رواية
NOVEL

VIRGINIA WOOLF

ڤرجينيا وولف

الأمواج

ترجمة : عطا عبد الوهّاب

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

الأمواج / رواية إنجليزيّة
ڤرجينيا وولف / مؤلّفة من بريطانيا
نقلها عن الإنجليزيّة : عطا عبد الوهّاب / مترجم من العراق
الطبعة الأولى ، 2009
حقوق الطبع محفوظة

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب :5460-11 ، العنوان البرقي : موكيّالي ،
هاتفاكس : 751438 / 752308
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص. ب : 9157 ، هاتف : 5605432 ، هاتفاكس : 5685501
E-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الألكترونيّ : www.airpbooks.com
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :

لوحة الغلاف : **تشيسلاڤ بيكسينسكي / بولندة**
الصفّ الضوئيّ : **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر / بيروت ، لبنان**
التنفيذالطباعيّ : **ديمو پرس / بيروت ، لبنان**

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored a retrieval system or transmitted in any form or by any means prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه ، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات ، أونقله بأيّ شكل من الأشكال ، دون إذن مسبق من الناشر.
ISBN 978-9953-36-345-5

twitter @baghdad_library

NOVEL

فرجينيا وولف

الأمواج

ترجمة: عطا عبد الوهّاب

twitter @baghdad_library

تقديم

فرجينيا وولف هي كاتبة إنكليزية شهيرة (١٨٨٢-١٩٤١) ، وقد نشرت في الفترة من ١٩١٥ حتى ١٩٤١ واحداً وعشرين عملاً في النقد والسيرة والرواية ، مثل رواية السيدة دالاوي ، ومثل سيرة الكلب «فلاش» وهما من ترجمة كاتب هذه السطور . كان كاتب هذه السطور كذلك قد ترجم سيرة هذه الكاتبة بمجلدين والتي كتبها كوينتين بيل ، ابن شقيقتها الرسامة فانيسّا ، وهي من منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر عام ١٩٩٣ . إن رواية السيدة دالاوي هي كذلك من منشورات المؤسسة العربية ذاتها عام ١٩٩٨ ؛ أما «فلاش» فهو من منشورات دار الشمس في بغداد عام ١٩٩٢ . والكلب فلاش هو كلب الشاعرة الإنكليزية أليزابيث باريت براوننغ .

إن رواية الأمواج التي نقدمها بالعربية الآن للقراء كانت قد صدرت في عام ١٩٣١ فاعتبرها النقاد تحدياً للقراء لأنها كلها مكتوبة بلغة شاعرية مرهفة ، حتى أن بعض هؤلاء النقاد قال إن الرواية بأسرها هي بمثابة قصيدة شعرية طويلة .

كانت فرجينيا وولف تصاب بالجنون بين فترة وأخرى ، وكانت كلما أبلّت من نوبة من نوبات جنونها تأخذ بكتابة رواية جديدة . أما عند إصابتها بالجنون في المرة الأخيرة فإنها لم تعد قادرة على مزيد من التحمل فأقدمت على الانتحار في ١٨ آذار ١٩٤١ . يقول كاتب سيرتها كوينتين

بيل في ص٦٩١-٦٩٣ من كتابه المترجم المشار إليه أعلاه ما يلي :

« . . . صباح يوم الجمعة ، الثامن والعشرين من آذار [١٩٤١] وكان يوماً بارداً ، ألقاً ، مشرقاً ، ذهبت فرجينيا كعادتها إلى غرفة عملها في الحديقة ، وهناك كتبت رسالتين أولاهما إلى ليونارد [زوجها] والأخرى إلى فانيسّا [شقيقتها] . . . أوضحت في كلتا الرسالتين أنها تسمع أصواتاً ، وأنها تعتقد أنها لن تشفى . . . ثم عادت إلى المنزل ، وكتبت رسالة ثانية إلى ليونارد ، [ونصها في ص٦٩٢] . و ضعت هذه الرسالة على رف الموقد في غرفة الجلوس ، وفي نحو الساعة الحادية عشرة والنصف تسللت إلى الخارج ومعها عصاها واتخذت طريقها عبر الحقول نحو النهر [نهر أوز Ouse] . . . تركت عصاها على ضفة النهر ودسّت حجراً كبيراً في جيب المعطف . ثم مضت إلى ميتتها فكانت ، كما سبق ان قالت إلى فيتا [ساكفيل - ويست ، صديقتها] ، هي التجربة التي لن أصفها أبداً .»

إن رواية الأمواج تقع باثنتي عشرة قسماً ، ويبدأ كل قسم منها بوصف الطبيعة قُبيل شروق الشمس حتى بُعيد غروبها ، ثم تنتهي الرواية بجملة واحدة : «الأمواج تتلاطم على الشاطئ» لكأن هذا الوصف للسماء والأرض والبحر هو وصف للحياة من الولادة حتى الموت .

وفي هذه الرواية ستة أشخاص هم : بيرنارد ، رودا ، جيني ، لويس ، نيفيل وسوزان . إن كلامهم ليس حواراً ، وإنما هو استكشاف لما يجري في داخل عقولهم على شكل نجوى ذاتية درامية لنفوسهم منذ طفولتهم وخلال دراستهم وحتى وفاة بيرنارد ؛ وتتركز هذه النجوى على المشكلة الخاصة بفهم طبيعة الهوية .

يتعرف المرء من خلال القراءة على معلومات معينة عن هذه الشخصيات الست . فلويس وبيرنارد يصبحان من رجال الأعمال الناجحين ، وتكون لبيرنادر زوجة وأسرة ، في حين يتخذ لويس من رودا

twitter @baghdad_library

عشيقة له فتنتحر هذه في نهاية المطاف . أما سوزان فتتزوج من مزارع وتنجب أولاداً . ولكن جيني تنصرف إلى حياة لندن الاجتماعية وتنتقل من حضن شابٍ إلى آخر ، على أن نيفيل هو مثليّ النزعي .

وفي الختام لا مناص من القول بأن قراءة رواية الأمواج هي ليست قراءة سهلة . ولكن! إذا صبر القارئ على قراءتها فسيحصل على غذاء أدبي رائع يستعصي على التقليد .

المترجم
عطا عبدالوهاب
عمان في ٢٠٠٩/٦/٢٨

twitter @baghdad_library

الشمس لم تشرق بعد . والبحر يمتزج بالسماء ، ولا يتميّز عنها سوى بأن فيه شيئاً من طيات ، فكأنه قماش متغضن . وبالتدريج ، وإذ تبيضّ السماء ، يمتد خط قاتم على الأفق يفصل البحر عن السماء ويصير القماش الرمادي مخططاً بتلاطمات كثيفة تتحرك ، واحدة تلو أخرى تحت سطح الماء ، فتتبع الواحدة الأخرى ، تطلبها حثيثاً ، إلى الأبد .

وما أن يقترب التلاطم من الشاطئ حتى يرتفع كل ضلع من الخطوط ، ويهوي بنفسه ، فينحطم ويجرف غلالة رقيقة من الماء الأبيض عبر الرمال . وتقف الموجة وقفة انتظار ، ثم تنداح مرة أخرى وهي تتأوه كنائم يتنفس بلا وعي . وبالتدريج يغدو الخط القاتم الممتد على الأفق واضحاً حتى كأن الرواسب في قنينة النبيذ القديمة قد ترسبت فجعلت الزجاجة خضراء . وإلى الخلف من الخط أيضاً صفت السماء كأن الرواسب البيض فيها قد ترسبت ، أو كأن ذراعاً لامرأة متخفية تحت الأفق قد رفعت سراجاً فانتشرت خطوط بيض وخضر وصفر كامدة الألوان على صفحة السماء وكرياش المراوح . ثم رفعت المرأة سراجها إلى أعلى فإذا بالهواء يبدو ذا ألياف وهو يتقطع أليافاً حمر وصفر كأنها نيران ذات دخان تدوي منبعثة من نار أُضرمت في الخلاء . وبالتدريج انصهرت ألياف النار المشتعلة في غبش واحد ، في وهج واحد ، يرفع

ثقل السماء الرمادية الشبيهة بالأصواف على كاهله فيحيلها إلى ألف ألفٍ من الذرات الزرق الناعمة . سطح البحر غدا ، على مهل ، شفافاً فامتد يترجرج ويتشعشع إلى أن أوشكت الخطوط القاتمة أن تمحي . وعلى مهل قامت الذراع الممسكة بالسراج برفعه إلى أعلى فأعلى حتى ترائى لهبة عريضة ؛ ثمة قوس من النار يشتعل على حافة الأفق ، فيتوهج من حوله البحر كله ذهباً .

الضياء يسقط على الأشجار في الجنينة ، فيحيل ورقة واحدة شيئاً شفافاً ثم يحيل أخرى . طير زقزق في الأعالي ؛ وتوقف ؛ طير آخر زقزق من الأسفل . الشمس أبرزت جدران البيت إبرازاً حاداً ، واستقرت كحاشية مروحة على ستارة بيضاء وبصَمت بصمة إبهام زرقاء من ظل تحت ورقة عند نافذة غرفة النوم . الستارة تحركت قليلاً ، لكن كل شيء في الداخل كان داكناً غير ملموس . الطيور شدت بلحنها المرسل الرتيب في الخارج .

twitter @baghdad_library

قـال برنادر Bernard «إني أرى طوقـاً مـعلقـاً من فـوقي . إنه يرتعش ويتعلق بعروة من الضياء» .

قالت سوزان «إني أرى لوحاً من اللون الأصفر الباهت يترامى بعيداً حتى يلاقي خطاً بنفسجياً» .

قـالـت رودا Rhoda «إني أسـمع صـوتاً ، زِق ، زَق ، زِق زَق ؛ ينطلق صاعداً ونازلاً» .

قال نيـفيل Nevielle «إني أرى كـرة سماوية تتدلّى في نقطة واحدة إزاء الأكتاف الضخمة لهضبة ما» .

قالت جيني Jinny «إني أرى حلية قرمزية ، مفتولة بخيوط ذهيبة» .

قـال لـويس Louis «إني أسـمع شـيـئـاً يدك الأرض . إن قـدم وحش عظيم قد غُلت بالأصفاد . إنها تدق الأرض ، تدقها ، وتدقها» .

قـال برنارد «انظروا إلى بيت العنكبـوت في زاوية الشـرفـة . إن عليـه خرزاً من الماء ، قطرات من ضياء أبيض» .

قالت سوزان «أوراق الشجر تجمعت حول النافذة كآذان صاغية» .

قال لويس «إن ظلاً يسقط على الدرب كأنه عضد ملوي» .

قالت رودا «ثمة جزائر من ضياء تسبح على العشب ، لقد سقطت من خلال الأشجار» .

قال نيفيل «عيون الطيور براقة في الأنفاق بين الأوراق» .

قالت جيني «سيقان النباتات مغطاة بشعيرات خشنة ، قصيرة ، فالتصقت بها قطرات من ماء» .

قالت سوزان «ثمة جرادة قد التفت على شكل حلقة خضراء ، ثلمتها أقدام حادة» .

قالت رودا «الحلزون ذو القوقعة الرمادية يمر عبر الدرب فيسطح سيقان الحشائش من ورائه» .

قال لويس «والأضواء متقدة تنبعث من زجاج النوافذ فتلمع على الأعشاب باطناً وظاهراً» .

قالت نيفيل «الأحجار باردة على قدميّ . إني أتحسس كل حجر منها على انفراد ، مكوراً أو مسنناً» .

قالت جيني «إن قفا يدي يشتعل حرارة ، لكن راحة الكف باردة دبقة وندية» .

قال برنارد «الآن يصيح الديك كأنه نفثة ماء عسر أحرم في المد الأبيض» .

قالت سوزان «الطيور تغني من حولنا ، في كل مكان وكل اتجاه» .

قال لويس «الوحش يدك الأرض ؛ الفيل بأقدامه مغلولة بالأصفاد ؛ الحيوان العظيم يضرب الأرض بقدمه على الشاطئ» .

قالت جيني «انظروا إلى البيت ، وكل نوافذه بيضاء اللون بالستائر» .

قالت رودا «الماء البارد بدأ يجري من الصنبور في غرفة غسيل الصحون على سمك المكاريل في الدورق» .

قال برنارد «الجدران متصدعة بشروخ ذهبية ، وهناك ظلال أوراق تسقط زرقاء ، على شكل الأنامل ، تحت النوافذ» .

قالت سوزان «الآن تسحب السيدة كونستابل Constable جواربها السوداء السميكة إلى الأعلى» .

twitter @baghdad_library

قال لويس «عندما يرتفع الدخان يتكور النوم فويق السطح كأنه ضباب» .

قالت رودا «الطيور غنت بمجموعها أولاً . الآن رفع المزلاج عن الباب في غرفة غسيل الصحون . وإذا بالطيور تطير . تطير منطلقة كأنها قذفة كف من بذور . لكن طيراً واحداً يشدو عند نافذة غرفة النوم وحيداً» .

قالت جيني «الفقاقيع تتشكل في قاع المقلاة ، ثم تتصاعد ، أسرع فأسرع ، بسلسلة فضية إلى الأعلى» .

قال نيفيل «الآن بدي Biddy تقشط حراشف السمك بسكين مسننة على قاعة خشبية» .

قال برنارد «إن نافذة غرفة الطعام لونها أزرق الآن ، والهواء يرف فوق المداخن» .

قالت سوزان «السنونو يحط على مانعة الصواعق وبِدي صبّت سطل الماء صباً عنيفاً على الألواح لأرض المطبخ» .

قال لويس «تلك هي الدقة الأولى لجرس الكنيسة ، ثم تتبعها الدقات الأخرى ؛ دقة فأخرى ، دقة فأخرى» .

قالت رودا «انظروا إلى غطاء المائدة ، يموج أبيض على المائدة . والآن هناك أطقم من الخزفيات البيض ، وخصل فضية بجنب كل صحن» .

قال نيفيل «فجأة تطن نحلة في أذني . إنها هنا ؛ إنها مضت» .

قالت جيني « إني أحترق ، إني أرتجف ، خارجة من هذه الشمس ، داخلة في هذا الظل» .

قال لويس «الآن ذهبوا جميعاً . أنا وحدي . ذهبوا إلى البيت لتناول الإفطار ، وتُركت واقفاً بجنب الجدار بين الأزهار . الوقت مبكر جداً ، قبل الدروس . إن زهرةً تلو زهرة ترتسم نقطاً في أعماق الساحة الخضراء . التويجات نقوش كأشكال المهرجين . سيقان النباتات تنبعث من الأجواف

السود في الأسفل . الأزهار تسبح كأنها أسماك خلقت من ضياء على سطح المياه الخضر المعتمة . إني أمسك ساق نبتة في يدي . إني أنا هذا الساق . جذوري تضرب سحيقة في أعماق العالم ، خلال تربة جافة ذات جلاميد ، وتربة بليلة ، خلال عروق من معادن الرصاص والفضة . إني أنا كلي ألياف . كل الاهتزازات تخضّني ، ووقر الأرض مطبق على ضلوعي . هنا في هذا المرتفع عيناي ورقتان خضراوتان ، لا تريان أني صبي أرتدي بزة قطنية رمادية مع حزام مشدود بحية نحاسية هاهنا . أما هناك فعيناي هما عينا تمثال حجري بلا أجفان في صحراء عند النيل . إني أرى نسوة يذهبن مع أباريق حمر إلى النهر ؛ أرى الإبل تتمايل ، والرجال بالعمائم ، إني أسمع وطء أقدام ، وارتعاشات ، وتململاً من حولي» .

«ها هم برنارد ونيفيل وجيني وسوزان (لكن من دون رودا) يمرون هناك بشباكهم فوق ألواح الأزهار . ينتُشون الفراشات من رؤوس الأزهار المهتزة . يمسحون سطح الدنيا . شباكهم ملئ بأجنحة مرفرفة . ويصيحون «لويس! لويس! لويس!» لكنهم لا يستطيعون رؤيتي . إني على الطرف الآخر من سياج أغصان الوشيع . ليس ثمة إلا ثقوب صغيرة للنظر من بين الأوراق . يا إليه ، دعهم يمرون . يا إلهي دعهم يضعون فراشاتهم على منديل صغير فوق الحصى . دعهم يحصون ما لديهم من فراشات ، شذرية ، وحمراء كبيرة ، وبيضاء كالقراطيس . ولكن أحجب عني أنظارهم . أنا أخضر كشجرة الصنوبر في ظل الوشيع . وشعري من ورق الشجر . إني متجذر في وسط الأرض . جسدي ساق نبات . أنا أعصر الساق . قطرة تنضح من الثقب عند الفم فتتنامى أكبر فأكبر ببطء ، بتكثف . الآن ثمة شيء وردي اللون يمر من أمام الثقب . الآن بريق عين يمرق خلال الشق . بريقها أصابني . أنا صبي ببزة قطنية رمادية ، وهي وجدتني ، وأنا أصبت في قفا رقبتي ، إنها قبلتني ، كل شيء قد انهار» .

twitter @baghdad_library

قالت جيني «كنت أركض بعد الإفطار ، رأيت أوراقاً تتحرك في فجوة في الوشيع ، وخطر لي : هذا طير في عشه . مضيت ونظرت ؛ ولكن ما من طير في عش . والأوراق تتحرك . ارتعبتُ . ركضتُ مارةً بسوزان ، مارةً برودا ، وكان نيفيل وبرنارد في سقيفة الأدوات يتكلمان . بكيت وأنا أركض ، أسرع فأسرع . ما الذي حرّك الأوراق؟ ما الذي يحرك قلبي ، وساقي؟ وهرعت إلى هنا ، فرأيتك أخضر كالأكمة . كأنك غصن ، في سكون مطبق ، لويس ، وعيناك جامدتان . خطر لي : هل هو ميت؟ فقبلتك ، وقلبي يخفق تحت ردائي الوردي كأوراق الشجر ، أوراق ظلت تتحرك ، وإن لم يكن هناك ما يحركها . الآن أشم رائحة الجيرانيوم ، أشم أديم الأرض ، أرقص ، أترجرج ، وقد أُلقيت عليك كشِباكٍ من نور ، إني أستلقي مرتجفة وقد رُميت فوقك» .

قالت سوزان «من خلال الشق في الوشيع رأيتها تقبله . رفعت راسي من أصيص الرياحين ونظرت من خلال شق في الوشيع . رأيتها تقبله . رأيتهما ، جيني ولويس ، يتعانقان . الآن سأضع غرامي في منديلي أغلفه به . ولسوف يشد شداً حتى يتكور . سأذهب إلى غابة الزان وحدي ، قبل الدروس . لن أجلس أجمع وأطرح الأرقام . لن أجلس إلى جانب جيني وإلى جانب لويس . سآخذ لوعتي وأضعها فوق الجذور تحت أشجار الزان . سأتفحصها وأتناولها بين أناملي . لن يعثروا عليّ . سآكل الجوز وأبحث عن البيض بين العلّيق وسيكون شعري كامداً لا يلمع وسوف أنام تحت الوشيع وأشرب الماء من الأحافير وأموت هناك» .

قال برنارد «سوزان مرّت بنا . مرّت بباب سقيفة الأدوات ومنديلها مكور . لم تكن تبكي ، لكن عينيها ، وهما جميلتان جداً ، كانتا مُزوّرتين كعيون القطط قبل القفز . سأتبعها ، يا نيفيل ، سأذهب وراءها بلطف ، لأكون حاضراً ، مع فضولي كي أدخل الراحة إلى قلبها عندما تتفجر غضباً

وتقول في نفسها : أنا وحيدة .

«إنها الآن تمشي عبر الحقل وهي تهتز ، وتظهر الهدوء واللامبالاة ، لتخدعنا ، ثم وصلت إلى المنخفض ؛ وهي تظن أنها لا تُرى ؛ بدأت تركض وكفّاها مقبوضان حتى تفتح ذراعيها أمامها ما أن تصل إلى الغابة وتتجه إلى الظل كأنها من السابحين . لكنها تعشو بعد الضياء فتعثر وتلقي بنفسها على الجذور تحت الأشجار ، حيث يبدو الضياء وكأنه يلهث . الأغصان في جَيشان . ثمة إهاجة هنا واضطراب ، ثمة اكتئاب ، الضياء متشنج ، ثمة عذاب هنا ، الجذور تكوّن هيكلاً عظمياً على الأرض ، والأوراق الميتة متراكمة في الزوايا . سوزان نشرت لوعتها ، منديلها فوق جذور الزان ، وسوزان تبكي ، وهي محنيّة حيث سقطت» .

قالت سوزان «رأيتها تقبله . نظرتُ من بين الأوراق ورأيتها ، كانت فرحة مرحة وقد تناثر عليها ماس رقيق بخفة الغبار ، وأنا مربوعة القامة ، يا برنارد ، أنا قصيرة ، لديّ عينان تنظران نظراً ثاقباً في الأرض وتريان الحشرات في الحشائش . الدفء الأصفر في جنبي أمسى حجراً حين رأيت جيني تقبل لويس . سآكل الحشرات وأموت في حفرة في الماء البني اللون حيث تعفنت الأوراق الميتة» .

قال برنارد «رأيتك تذهبين ، وعندما مررت من باب سقفية الأدوات سمعتك تندبين حظك قائلة : أنا تعيسة . وضعت سكيني جانباً . كنت أصنع الزوارق من خشب الوقود مع نيفيل . وشعري غير مصفف ، إذ حين قالت لي السيدة كونستابل أن أمشّطه كانت هناك ذبابة في بيت العنكبوت ، فتساءلت : هل أحرر الذبابة؟ أم أدعها تلتقم؟ لذا فإني أتأخر دائماً . شعري غير ممشط ، وهذه الجذاذات من الخشب تلتصق به . حينما سمعتك تبكين تبعتك ، فرأيتك تضعين على الأرض منديلك ، مكوّراً ، معقوداً فيه غضبه وكراهيتك . لكن هذا سرعان ما سينتهي . إن جسدينا

twitter @baghdad_library

قريبان الآن . أنت تسمعينني أتنفس ، أنت ترين الخنفساء أيضاً تحمل ورقة على ظهرها . إنها تجري من هنا ، ثم من هناك ، وهكذا لحتى رغبتك ، وأنت تراقبين الخنفساء ، رغبتك بامتلاك شيء واحد بعينه (وهو لويس الآن) لا بد أن ترتعش كالضياء يدخل ويخرج من أوراق شجر الزان ؛ وعندئذ فالكلمات التي تدور قاتمة في أعماق رأسك ، ستمزق عقدة الشدّة هذه المكوّرة في منديلك» .

قالت سوزان «أنا أحب وأكره . ولا أشتهي إلا شيئاً واحداً . عيناي جامدتان . عينا جيني تشعان بألف ضياء . عينا رودا هما كتلك الأزهار الشاحبة التي تأتيها الفراشات في الأصيل . عيناك تغدوان مليئتان ومترعتان . لكني حزمت أمري أصلاً على ما أريد . إني أرى حشرات في الحشائش . ومع أن أمي لم تزل تحيك لي جوارب بيضاء وتخيط لي صدارات وإني أنا طفلة ، فأنا أحب وأكره» .

قال برنارد «لكننا حين نجلس معاً ، على قربٍ ، يذوب أحدنا بالآخر بما نقوله من كلام . إننا يحفنا الغبش . نحن نصنع إقليماً وهمياً غير ملموس» .

قالت سوزان «إني أرى الخنفساء ، أراها سوداء ؛ أراها خضراء ؛ أنا تغلّني ألفاظ محدودة منفردة . لكنك تجوب الآفاق ؛ أنت تنسل منطلقاً ؛ أنت تتسامى إلى الأعلى ، بألفاظٍ وألفاظٍ تفيض جملاً» .

قال برنارد «الآن ، فلنستكشف . ها هو البيت الأبيض يستقر بين الأشجار ، إنه يجثم هناك بعيداً جداً تحتنا . سنغوص كالسابحين لا يمسّون الأرض إلا مساً خفيفاً بأطراف أصابع أقدامهم ، سنغوص خلال الهواء الأخضر للأوراق ، يا سوزان ، نغوص إبان ركضنا . الأمواج تطبق علينا ، أوراق الزان تتلاقى فوق رؤوسنا ، ها هي ساحة الإسطبل بعقاربها المذهبة وهي تلتمع . وتلك هي المسطحات والمرتفعات لسطوح البيت الكبير . ها هو

صبي الأسطبل يقعقع في الفناء بجزمة مطاطية . تلك هي إلفيدون Elvedon .

«الآن سقطنا من خلال رؤوس الأشجار إلى الأرض ، لم يعد الهواء يدحرج أمواجه الأرجوانية الطويلة ، الشقية ، من فوقنا . إننا نلمس البسيطة ؛ إننا نطأ الأرض . ها هو سياج الوشيع المقصوص جيداً لجنينة السيدات . هنالك يمشين في الظهيرة ، بالمقاصيص ، يقطعن الورد . نحن الآن في الغاب المحوّط والجدار حواليه . هذه هي قرية إلفيدون . لقد رأيت علامات في تقاطع الطرق بسهم واحد يؤشر : إلى إلفيدون . ما من أحد ذهب إلى هناك . نباتات السَّرخس تفوح برائحة قوية جداً ، وهناك فطريات حمر تنمو تحتها . نحن الآن نوقظ الفجر النائم الذي لم ير بشراً من قبل قط ؛ نحن الآن ندوس على عفص البلوط العفن من التقادم وتنزلق عليه الأقدام . ثمة جدار مدور يحيط بهذا الغاب ؛ لا أحد يأتي إلى هنا . إسمعي! هذا صوت ضفدع عظيم يرتطم بين الشجيرات ؛ هذا صوت شجرة فرّ بدائية تسقط لتتعفن بين السرخس .

«ضعي قدمك على هذه الآجرّة . انظري من فوق الجدار . تلك هي قرية إيلفيدون . السيدة تجلس بين نافذتين كبيرتين ، تكتب . البستانيون يكنسون ساحة العشب الخضراء بمكانس هائلة الحجم . نحن أول من أتى إلى هنا . نحن مكتشفا أرض مجهولة . لا تتململي ؛ إذا رآنا البستانيون فسيطلقون علينا النار . سنُدقّ بالمسامير كالثعالب ذات الفراء على باب الإسطبل . انظري! لا تتحركي . امسكي نباتات السرخس بقوة في أعلى الجدار» .

قالت سوزان « إني أرى السيدة تكتب . أرى البستانيين يكنسون ، لو أننا متنا هنا ، فما من أحد سيدفننا» .

قال برنارد «اركضي! اركضي! رآنا البستاني ذو اللحية السوداء! ستطلق

twitter @baghdad_library

علينا النار! سنقتل كالطيور الملونة ونعلّق على الجدار! إننا في بلاد معادية ، يجب أن ننجو فراراً إلى غابة الزان . يجب أن نختبئ تحت الأشجار ، لقد قلبت غصناً وأنا قادم . هناك درب سري . إنحني إلى أقصى ما تستطيعين ، إمش من دون أن تنظري إلى الخلف ، سيظنون أننا ثعالب . اركضي!

«نحن الآن آمنين . بوسعنا الآن الوقوف منتصبين مرة أخرى ، بوسعنا الآن أن نمدّ أذرعنا في هذا العريش العالي ، في هذه الغابة الشاسعة . إني لا أسمع شيئاً . ما هذه سوى غمغمة الأمواج في الهواء . هذه هي الحمامة ذات الطوق تبحث عن مخبأ في أعالي أشجار الزان . الحمامة تضرب بجناحيها الهواء ؛ الحمامة تضرب الهواء بجناحين متيبّسين» .

قالت سوزان «أنت الآن تتدلى بعيداً ، تؤلف جملاً . أنت الآن تتصاعد كخيط المنطاد ، أعلى فأعلى خلال طبقات من الأوراق ، بعيداً عن متناول اليد . أنت الآن تتباطأ . أنت الآن تجر بتنورتي ، وتنظر إلى الخلف ، تؤلف جملاً . لقد أفلتَّ مني ، ها هي الجنينة ، ها هو سياج الوشيع ,ها هي رودا على الدرب تهدهد التويجات يميناً وشمالاً في طاستها البنية» .

قالت رودا «كل سفني بيض ، لا أريد تويجات حمراً من زهور الخطمي الوردية أو زهور الجيرانيوم . أريد تويجات بيضاً تعوم عندما أميل بطاستي . لديّ الآن أسطول يسبح من ساحل إلى ساحل ، سأُسقط غصناً في الماء كقارب نجاة لبحار يغرق ، سأُسقط حصاة لأرى فقاعات تتصاعد من أعماق البحر ، نيفيل قد ذهب ؛ وسوزان قد ذهبت ؛ جيني في حديقة الخضراوات تجمع التوت مع لويس ربما . لديّ وقت قصير أبقى فيه وحدي ، بينما تضع الآنسة هدسون دفاترنا على منضدة الصف . لديّ أمدٌ قصير من الحرية . لقد التقطتُ كل التويجات الساقطة وجعلتها تعوم . وضعتُ قطرات من مطر في بعضها ، سأقيم فناراً هنا ، من رأس زهرة أليس

البيضاء الفواحة ، وسأهز الآن الطاسة البنية من طرف إلى طرف حتى تمخر سفني عباب الأمواج . بعضها سيغرق . بعضها سيرتطم بالمنحدرات الصخرية الشاهقة . سفينة واحدة تبحر لوحدها . تلك هي سفينتي ، إنها تبحر في كهوف ثلجية حيث ينبح دب البحر ويهز الستلكتايت سلاسل خضراً . الأمواج ترتفع ؛ عبابها يتلوّى ؛ انظروا إلى الأنوار على الصواري . السفن تفرقت ، السفن غرقت ، إلا سفينتي ، فهي ترتقي صهوة الموجة وتمخر أمام الإعصار فتصل إلى الجزر حيث الببغاوات تثرثر والطيور الزاحفة . . .» .

قال نيفيل «أين برنارد؟ سكّيني لديه ، كنا في سقيفة الأدوات نصنع الزوارق ، ومرت سوزان من الباب ، فرمى برنارد زورقه وذهب خلفها وأخذ معه سكيني ، السكين الحادة التي تقص عارضة قعر المركب . برنارد يشبه السلك المعلق المتدلي ، يشبه زر الجرس المعطوف ، يطن دائماً . إنه كالطحلب المتعلق خارج النافذة ، مرة رطباً ، وأخرى يابساً . إنه يتركني وراءه في حالة إحباط ؛ إنه يتبع سوزان ؛ فإذا بكت سوزان يأخذ سكيني ويحكي لها حكايات . المدية الكبيرة إمبراطور ؛ والمدية المثلومة عبد زنجي . إني أكره الأشياء المعلقة ؛ إني أكره الأشياء الرطبة . أكره التسكع وخلط الأمور بعضها ببعض . الآن يقرع الجرس وسوف نتأخر . الآن يجب أن نترك أدوات اللعب . الآن يجب أن ندخل جميعاً معاً . الدفاتر وضعت جنباً إلى جنب على منضدة الجوخ الأخضر» .

قال لويس «أنا لن أصرِّف الفعل ، إلى أن يلفظه برنارد . أبي رجل مصرفي في برسبين Brisbane [في أستراليا] وأنا أتكلم بلكنة استرالية . سأنتظر وأقلد برنارد . إنه انكليزي ، كلهم أنكليز . أبو سوزان قسيس ، رودا ليس لها أب ، برنارد ونيفيل من أبناء الذوات ، جيني تعيش مع جدتها في لندن ، إنهم الآن يضعون أقلامهم في أفواههم ، يمصونها . الآن يدعكون

twitter @baghdad_library

دفاترهم ويتلصصون بأنظارهم نحو الآنسة هدسون ، يعدون الأزرار البنفسجية في ردائها . برنارد في شعره جذاذة خشب ، سوزان في عينيها سيماء حمراء . كلتاهما محتقنة احمراراً . لكن أنا شاحب ؛ أنا أنيق ، والبنطلون القصير الواسع المزموم عند الركبة الذي أرتديه مشدود بحزام ذي حية نحاسية . إني أعرف الدرس عن ظهر قلب . إني أعرف أكثر مما سيعرفون على الإطلاق . أعرف في النحو دروسي عن الحال والتذكير والتأنيث ؛ بوسعي أن أعرف كل شيء في الدنيا إذا شئت . لكني لا أرغب أن أقف أمام فصل الدراسة وأتلو درسي . جذوري مظفورة الخيوط ، كأليافٍ في أصّ الأزهار ، ظفراً متيناً في أرجاء العالم . إني لا أرغب أن أكون في المقدمة وأعيش في نور هذه الساعة الكبيرة ، الصفراء ، التي تدق وتدق . إن جيني وسوزان ، برنادر ونيفيل ، قد تكاتفوا فصاروا سوطاً به يجلدونني . إنهم يضحكون من أناقتي ، ومن لكنتي الاسترالية . إني سأحاول الآن أن أقلد برنارد وهو يلثغ اللاتينية بخفوت ناعم» .

قالت سوزان «هذه كلمات بيض ، كالحصى يلتقطها المرء عند شاطئ البحر» .

قال برنارد «الكلمات تهز ذيولها يمنةً ويسرة عندما ألفظها ، إنها تحرك ذيولها ؛ تهز ذيولها ؛ تتحرك في الفضاء أسراباً ، مرة في هذا الاتجاه ، مرة في ذاك الاتجاه ، تطير كلها معاً ، مرة تنفصل عن بعضها ، وأخرى تعود إلى بعضها» .

قالت جيني «هذه كلمات صفر ، هذه كلمت متوقدة . إني أتمنى رداءً متوقداً ، بزّة صفراء ، بزة قمحية اللون تضرب إلى الصفرة لكي أرتديها في المساء» .

قال نيفيل «إن كل صيغة فعل تعني شيئاً مختلفاً . ثمة نظام في هذا العالم ؛ ثمة تمايز ، ثمة فوارق في هذا العالم على حافتها أخطو . ذلك أن

هذه هي مجرد بداية» .

قالت رودا «الآن أغلقت الآنسة هدسون الكتاب . الآن يبدأ الرعب . الآن تناولت طبشورة وأخذت تخط أرقاماً ، رقم ستة ، وسبعة ، وثمانية ، ثم علامة جمع ثم رسمت خطاً على السبورة . ما هو الجواب؟ الآخرون ينظرون ؛ إنهم ينظرون ويفهمون . لويس يكتب ؛ سوزان تكتب ؛ نيفيل يكتب ؛ جيني تكتب ؛ برنارد بدأ الآن يكتب . لكني لا أستطيع أن أكتب . إني أرى أرقاماً فقط . الآخرون يسلمون أجوبتهم ، واحداً فوحداً . الآن جاء دوري . لكني لا جواب عندي . الآخرون يسمح لهم بالخروج . إنهم يصفقون الباب . الآنسة هدسون تخرج . أنا تركت وحدي لأجد جواباً . الأرقام لا تعني شيئاً الآن . المعنى انتفى . الساعة تدق ، العقربان هما قافلتان تسيران في صحراء . الخطوط السود على وجه الساعة واحات خضر . العقرب الطويل تقدم في سيره لكي يجد ماء . العقرب الآخر يتعثر بشكل أليم بين الأحجار الساخنة في الصحراء . إنه سيموت في الصحراء . باب المطبخ ينصفق ، الكلاب البرية تعوي من بعيد . انظروا . إن حلقة الرقم أخذت تمتلئ بالزمن ؛ إنها تمسك بالدنيا في داخلها . بدأتُ أخط رقماً والدنيا تتحلق فيه ، وأنا نفسي خارج الحلقة ؛ أخذت أدخلها الآن -هكذا- وأختم عليها ، وأجعلها كلاً تاماً . الدنيا كلٌ تام ، وأنا خارجها ، أصيح : آه ، أنقذوني من أن أقذف إلى الأبد خارج حلقة الزمن!» .

قال لويس «رودا تجلس هناك محدّقة بالسبورة ، داخل الصف ، بينما نحن نهيم على وجوهنا ، نقطف هنا شيئاً من زعتر ، وننزع هناك ورقة من شجيرة قيصوم في حين يحكي برنارد حكاية . عظام كتف رودا تلتقي في وسط ظهرها كأنها أجنحة فراشة صغيرة . وإذ هي تحدّق في الأرقام الطبشورية فإن فكرها يستقر في تلك الدوائر البيض ؛ إنه يتنقل خلال

twitter @baghdad_library

تلك الحلقات البيض ويدخل إلى الفراغ ، وحيداً . الأرقام لا معنى لها بالنسبة إليها . وهي لا جواب لديها عليها . إنها يتيمة على خلاف الآخرين ، وأنا ، الذي أتكلم بلكنة استرالية ، وأبي رجل مصرفي في برسبين ، لا أخافها كما أخاف الآخرين» .

قال برنارد «فلنختبئ الآن ، تحت سرادق أوراق التوت ، ونحكي حكايات . فلنقطن العالم السفلي . فلنملك إقليمنا السري ، الذي يضاء بالتوت المتدلي كأنه شمعدان ، يشع أحمر من طرف ، أسودَ من طرف آخر . هنا ، يا جيني ، لو انثنينا قريباً من بعضنا لأمكننا الجلوس تحت سرادق أوراق التوت لنرقب المباخر وهي تتأرجح . هذا هو عالمنا . الآخرون يمرون في درب العربات . ذيول رداء الآنسة هدسون والآنسة كَري Curry تتخاطف كأنها مطفئات الشموع . تلك هي جوارب سوزان البيض . ذلك هو حذاء الرياضة الأنيق للويس ينطبع أثره على الحصى ثابتاً . ها هي آتيةً هبّات ساخنة من أوراق متفسخة ونباتات متعفنة . نحن في مستنقع الآن ؛ في غابة ملاريا . هناك فيل ، أبيض لما فيه من الشيات ، قُتل بسهم أرداه ، أصابه في عينه . والعيون البراقة للطيور المتقافزة -صقور ، نسور- جلية الوضوح . هذه الكواسر تحسبنا أشجاراً ساقطة . إنها تنقر حشرة - وهذا ثعبان سام- ثم تترك الحشرة وعليها ندبة متقيحة لكي تهرسها أقدام الأسود . هذا هو عالمنا ، فضاءً بأهلة ، وبنجوم من نور ؛ والتويجات الكبيرة نصف الشفافة تسدّ الفتحات كنوافذ أرجوانيةً . كل شيء غريب . الأشياء ضخمة جداً وصغيرة جداً . سيقان الأزهار كثيفة كأشجار البلوط . الأوراق عالية كقباب كاتدرائيات فسيحة . إننا عمالقة ، نستلقي هنا ، وبوسعنا أن نجعل الغابات ترتجف» .

قالت جيني «هذا هو وجودنا هنا ، هذا هو وجودنا الآن . لكننا سرعان ما سنذهب . سرعان ما ستصفر الآنسة كَرِي بصفارتها . وسوف نسير .

سوف نفترق . أنت ستذهب إلى المدرسة . سيكون عندك أساتذة يرتدون الصلبان والأربطة البيض . أنا سيكون عندي مديرة في مدرسة على الساحل الشرقي تجلس تحت صورة الملكة ألكساندرا . ذلك هو المكان الذي سأذهب إليه ، وكذلك سوزان ورودا . أما هذا فهو وجودنا هنا فقط ؛ هذا هو وجودنا الآن فقط . الآن سنسلتقي تحت أكمات التوت وكلما هبّت نسمة نثرت علينا الألوان . يدي كأنها جلد حية . ركبتاتي جزيرتان ورديتان عائمتان . وجهك كشجرة تفاح تغطيك» .

قال برنارد «الحرارة تزول من الغابة . الأوراق ترفرف أجنحة سود فوقنا . الآنسة كَري أطلقت صفارتها في الشرفة . يجب أن ننسل من تحت مظلة أوراق التوت ونقف منتصبين . ثمة أغصان في شعرك يا جيني . وجرادة خضراء على رقبتك . يجب أن نشكل رتلاً زوجياً . الآنسة كَرِي ستأخذنا إلى مسيرة سريعة ، بينما تجلس الآنسة هدسون على منضدتها لتسوية حساباتها» .

قالت جيني «إنه لشيءٌ كئيب أن نسير حذو الطريق الخارجي بلا نوافذ ننظر منها ، ومن دون أن نرى بقعاً مغرورقة بالضياء تنعكس من زجاج أزرق فتجثم على الرصيف» .

قالت سوزان «يجب أن نشكل رتلاً زوجياً ، وأن نمشي بانتظام ، من دون أن نجرجر أقدامنا ، ومن دون تباطؤ ، ولويس في المقدمة ليقودنا ، لأن لويس يقظ ولا يستسلم للأحلام» .

قال نيفيل «بما أن المفروض أنني رقيق العود إلى درجة لا تسمح لي بالذهاب معهم ، بما أنني يعتريني التعب بسهولة فأتوعك ، فسأستخدم هذه الساعة من ساعات العزلة ، من هذا التأجيل للمحادثة مع الغير ، فرصةً لأجوب حول تخوم البيت ، وأستعيد ، إن استطعت ، واقفاً على الدَرجة نفسها في منتصف السلم صعوداً إلى الصحن ، ما أحسست به

twitter @baghdad_library

عندما سمعت عن الرجل الميت من خلال الباب الدوّار حين كانت الطاهية تصفق بوابات الفرن . لقد وُجد مذبوحاً . تسمرت أوراق شجرة التفاح في السماء ؛ القمر يسطع ؛ لم أستطع رفع قدمي لصعود السلم . لقد عثروا عليه في البالوعة . كان فكّه الأسفل ابيض كسمك القد الميت . سأسمي هذا التشنج ، هذا التصلب ، (موت بين أشجار التفاح) ، إلى الأبد . كانت هناك غيوم رمادية طافية ؛ والشجرة العارمة لا تهدأ ؛ الشجرة العنود بلحائها الذهبي يدرِّع قسمها الأسفل . لم يسعفني تموّج حياتي . لم أتمكن من العبور . كانت هناك ثمة عقبة . قلت : (إني لا أستطيع التغلب على هذه العقبة غير المفهومة) . أما الآخرون فقد عبروا ذاهبين . لكننا ، كلنا جميعاً ، مفضيٌّ علينا بالهلاك بأشجار التفاح ، بالشجرة العارمة التي لا تهدأ ولا نستطيع عبورها .

«الآن انتهى التشنج والتصلب ؛ وإني سأواصل التجوال حول تخوم الدار في الأصيل ، عند الغروب ، حين ترسل الشمس بقعاً زيتية على أرضية المطاط ، ويجثو صدع من الضياء على الجدار ، فتبدو أرجل الكراسي كأنها مكسورة» .

قال سوزان «رأيت فلوري Florri في حديقة الخضراوات ، حين عدنا من مسيرتنا ، تحمل الغسيل متطايراً من حولها ، البجامات ، الملابس الداخلية ، قمصان النوم الليلية ، يشدها الهواء شداً . فقبلها إرنست Ernest . كان بصدار الجوخ الأخضر ، يلّمع الفضيات ؛ وكان فمه مزموماً كمحفظة نقود متغضنة فأطبق عليها ممسكاً بها ، أما هي فقد تلعثمت ملتاعةً خائرة ، والبجامات تتطاير بينهما بشدة . كان هائجاً كالثور ، وهي تلاشت من العذاب ، لم يبق منها حياً سوى عروق صغيرة تشطّب خديها المحمرين . الآن ، وهم يناولون بعضهم بعضاً الخبز والزبدة وأكواب الحليب عند تناول الشاي عصراً ، أرى شرخاً في الأرض وبخاراً حاراً يهسّ

صعداً ؛ والأص ذو العروتين يهدر إذ يهدر إرنست ، وأنا أتطاير في الريح حتى حين تتلاقى أسناني في الخبز الهش والزبدة الرخوة وألعق الحليب الحلو . إني لا أهاب الحر ، ولا الشتاء المنجمد . رودا تحلم ، وهي تمص قشرة من خبز منقوعة في الحليب ؛ لويس يمعن النظر في الجدار المقابل بعينين خضراوتين بلون خضرة الحلزون ؛ برنارد يكوّر خبزه كريوات ويقول إنها جمع من الناس . نيفيل قد انتهى بطريقته الحازمة والحاسمة من تناول الشاي . لفّ منديل الطعام ودسّه خلال الحلقة الفضية . جيني تدور بأصابعها على غطاء المائدة كأن الأنامل ترقص في أشعة الشمس رقصة باليه . لكني لا أهاب الحر ولا أهاب الشتاء المنجمد» .

قال لويس «الآن ننهض كلنا جميعاً ؛ نقف كلنا جميعاً . الآنسة كَري تفتح الكتاب الأسود على الأرغون . من الصعب ألا أنجهش بالبكاء ونحن نغني ، ونحن نبتهل إلى الله أن يحفظنا ونحن نيام ، داعين أنفسنا بالأطفال الصغار . حين نكون حزانى ونرتجف متهيبين فإن من الممتع أن نغني معاً ، نميل قليلاً بعضنا على بعض ، أنا نحو سوزان ، سوزان نحو برنارد ، ممسكين بالأيادي ، خائفين من أمور شتى ، أنا من لكنتي ، رودا من الأرقام ؛ لكننا عقدنا العزم على التغلب على المصاعب» .

قال برنارد «إننا نصعد السلم بجمهرتنا وكل واحد منا كأنه مهرة صغيرة ، فنضرب الأرض بأقدامنا ، ونقعقع الواحد خلف الآخر لنأخذ دورنا في الحمام . إننا نتدافع ، ونتصارع ، ونتقافز على الأسرة الصلبة البيضاء . جاء دوري . أتيت الآن .

«السيدة كونستابل قد تلفعت بمنشفة الحمام ، تتناول اسفنجتها الليمونية اللون وتنقعها بالماء ؛ تحولت الإسفنجة إلى لون بني ؛ إنها تقطّر ؛ تعصرها وهي تمسك بها عالياً من فوقي ، وأنا أرتجف تحتها . الماء ينهمر نزلاً في ساقية عمودي الفقري . سهام براقة من الأحاسيس الثائرة تنطلق من

twitter @baghdad_library

الجانبين . أنا مغطّى بلحم دافئ . تجاويفي اليابسة تبتل ؛ جسدي البارد يدفأ ؛ إنه يسيل ويلتمع . ألماء ينهمر ويغلفني برقاقةٍ كأنني سمكة . الآن تلفني المناشف الساخنة ، وإذ أحك ظهري تثير خشونتها دمائي فتموء . الأحاسيس الثرة والمثقلة تتألف في قمة رأسي ؛ فينث ضوء النهار – في الغابات ؛ في قرية إيفيلدون ؛ على سوزان وعلى طيور الحمام . وإذ ينهمر النهار في باطن رأسي فإنه يتساقط غزيراً ، مزدهياً . الآن أرخي بجامتي ، وأستلقي تحت هذا الغطاء الرقيق طافياً في الضياء الشبيه برقاقةٍ من ماء غشتها موجة على عينيّ . إني أسمع خلالها من بعيد ، على نأيٍ ، بداية غناء المرتلين ، خافتاً بعيداً ؛ أسمع أصوات عجلات ؛ وكلاب ؛ ورجال يصرخون ؛ أسمع أجراس الكنائس ، وبداية غناء المرتلين» .

قالت رودا «ما أن طويت ثوبي وقميص نومي حتى أقلعت عن رغبتي البائسة بأن أكون سوزان ، بأن أكون جيني ، لكني سأمدّ أصابع قدميّ لألمس المشبّك في نهاية السرير ؛ سأتوّثق وأنا ألمس المشبك من شيءٍ صلد . الآن لا يمكن أن أغرق ؛ لا يمكن أن أتساقط من خلال الغطاء الرقيق . الآن أبسط بدني على هذا الفراش المتهافت وأتدلّى معلقةً . أنا فوق الأرض الآن . لم أعد منتصبةً فيصدمني أحد وأتحطم . كل شيء ناعمٌ رخوٌ وينثني . الجدران والخزائن تبيضّ وتثني مربعاتها الصفر فيسطع على أعاليها زجاج أصفر . بوسعي عقلي الآن أن ينهمر منبعثاً مني . بوسعي أن أفكر بأساطيلي وهي تبحر على الأمواج العالية . لقد تحررت من العلاقات الصعبة والصدامات . إني أبحر وحدي تحت منحدراتٍ بيض شاهقة . آه ، لكني أغرق ، وأسقط! ها هي زاوية خزانة الملابس ؛ ها هي مرآة غرفة الأطفال . لكنهما تمتدان ، وتتطاولان . إني أغرق في رياش النوم السود ؛ وأجنحة النوم الكثيفة تنضغط على عينيّ . وإذ أرحل خلال الظلام أرى ألواح الأزهار الممتدة ، والسيدة كونستابل تركض قادمة من ركن

ساحة العشب الحريري المزهر لتقول إن عمتي قد جاءت لتأخذني في عربة . إني أركب ؛ إني أهرب ؛ إني أتعالى وفي قدميّ حذاءٌ نعله ذو رفّاسات فأتسامى فوق قمم الأشجار . لكني الآن أسقط في داخل العربة عند باب الردهة ، حيث تجلس عمتي وهي تهز رياشاً صفر بعينين صلبتين كأنهما كريوتين مزججتين . آه ، ما أصعب الإفاقة من الحلم! انظروا ، ها هي الخزانة . فلأسحب نفسي من هذه المياه . لكنها تتراكم فوقي ؛ إنها تجرنني بين أكتافها العظيمة ؛ فأُقلب ؛ وأُدحرج ؛ أنا ممتدة ، بين هذه الأضواء الطويلة ، هذه الأمواج الطويلة ، هذه الدروب التي لا نهاية لها ، مع أناسٍ يبتغون أشياء وأشياء متسابقين» .

twitter @baghdad_library

ارتفعت الشمس قليلاً . أمواج زرق ، أمواج خضر ، تجري كمروحة سريعة على الساحل ، فتحيط بغدوق الأزهار البحرية وتترك بركاً ضحلة من الضياء هنا وهناك على الرمل ، مخلفة حولها مسافة سوداء باهتة . الصخور التي كانت مغلسة وناعمة تصلبت وأضحت معلّمة بصدوع حمر .

خطوط حادة من الظلال تسقط على العشب ، والندى المتراقص في أطراف الأزهار والأوراق يجعل الجنينة كأنها ريازة من شرارات منفردة لم تتألف بعد في كلٍّ واحد .الطيور ، وصدورها مبقّعة بأصفر الكناري ولون الورد ، تشدو الآن بلحنٍ أو أكثر مشتركةً معاً ، تشدو هوجاء ، كالمتزلجين على الجليد يمرحونَ ذراعاً بذراعَ ، ثم تصمت فجأة ، تنفصل عن بعضها كل الفصل .

الشمس ألقت بسهام عريضة على البيت . الضوء مسّ شيئاً أخضر في زاوية النافذة فجعله قطعةً من زمرّد ، كهفاً من الاخضرار الخالص كأنه ثمرة بلا نواة . إنه يُبرز حوافي المقاعد والمناضد أسلاكاً ذهبية رفيعة في أغطية الموائد . وإذ يتزايد الضياء ينغلق برعماً هنا وبرعماً هناك فتنتفض منه أزاهير ، خضراء العروق وراعشة ، كأن جهد التفتح جعلها تهتز ، وتطلق صوتاً خافتاً ينبعث من سلسلة أجراس خامدة ، والأزهار المتفتحة تضرب بألسنتها على حيطانها البيض . كل شيء غدا

مائعاً رقيقاً كأن خزف الصحون يفيض سائلاً وفولاذ السكاكين محلول سائل . في هذه الأثناء يسقط ارتجاج الأمواج مكموداً في تكسّره ، كجذوع تسقط ، على الساحل .

twitter @baghdad_library

قال برنارد «الآن أزف الوقت . آن الأوان اليوم . العربة في الباب . صندوقي الضخم يثني ساقي جورج المتقوستين ثنياً أوسع . المراسم الفظيعة انتهت ، الإكراميات ، وتحيات الوداع في الردهة . الآن ها هي هذه المراسم العسيرة تؤدى باستعجال مع أمي ، والمصافحة مع أبي ؛ الآن يجب عليّ الاستمرار بالتلويح بيدي ، يجب عليّ الاستمرار بالتلويح ، إلى أن نستدير عند ركن الشارع . الآن تلك المراسم انتهت . الحمد لله ، كل المراسم انتهت . أنا وحدي ؛ إني ذاهب إلى المدرسة للمرة الأولى .

«كل واحد كأنه يقوم بأمور شتى من أجل هذه اللحظة فقط ؛ ولن يعيدها قط . لن يعيدها قط . صفة الاستعجال فيها شيء مخيف . كل واحد يعرف أني ذاهب إلى المدرسة ، ذاهب إلى المدرسة للمرة الأولى . قالت خادمة المنزل وهي تنظف السلم : (هذا الصبي ذاهب على المدرسة للمرة الأولى) ؛ ينبغي لي ألا أبكي . يجب أن أنظر إليهم بعدم اكتراث . الآن البوابات المريعة في المحطة تفغر فاها ؛ والساعة المدورة تمعن نظرها بي ، يجب أن أؤلف جملاً وجملاً لأقيم شيئاً صلداً بيني وبين تحديق الخادمات ، وتحديق الساعات ، بيني وبين الوجوه المحدّقة ، والوجوه غير المكترثة ، وإلا فسأبكي . ها هو لويس ، ها هو نيفيل ، بمعاطف طويلة ، يحملان حقائب يدوية ، عند مكتب قطع التذاكر . كلاهما رابط الجأش . لكنهما مختلفان» .

قال لويس «ها هو برنارد . إنه رابط الجأش ؛ إنه على رِسله . يهز حقيبته إذ يسير . سأتبع برنارد ، لأنه غير هيّاب . لقد انجذبنا من خلال مكتب قطع التذاكر ذهاباً إلى رصيف المحطة كما يجتذب مجرى الماء الأغصان والقش حول دعائم الجسر . ها هي ماكنة القطار القوية جداً ، الخضراء اللون خضرة القناني ، بلا رقبة ، كلها ظهر وأرداف ، تنفث بخاراً . مراقب الخط يصفر بصفارته ؛ العلم يؤشر صعوداً ونزولاً ؛ وبدون جهد ، وبقوة دفع الماكنة ، كالانهيار الثلجي يبدأ بدفعة رقيقة ، بدأنا نتجه إلى الأمام . برنارد يفرش سجادة ويلعب لعبة الكِعاب . نيفيل يقرأ . لندن تتَهادى ، لندن تجيش وتموج . ثمة انتصاب للمداخن والبروج . هنا كنيسة بيضاء ؛ هنا صارية بين الأبراج . هنا قنال . الآن هناك فضاءات مفتوحة فيها طرقات معبدة من الغريب أن يكون على الناس السير عليها . هناك هضبة مخططة ببيوت حمر . رجل يعبر جسراً وكلب في أعقابه . الآن بدأ الصبي الأحمر يرمي على طير الحجل . الصبي الأزرق يضعه جانباً . (عمي أحسن صياد طيور في انكلترا ، ابن عمي رئيس فريق لصيد ابن آوى) . بدأ التبجح ، وأنا لا أستطيع التبجح ، لأن أبي مصرفي في برسبين ، ولأني أتكلم بلكنة استرالية» .

قال نيفيل «بعد كل ذلك الهرج والمرج ، وتلك الاشتباكات والتزاحمات فقد وصلنا . إن هذه للحظةٌ حقاً ، إن هذه للحظةٌ مهيبة حقاً . إني آتي كسيدٍ يأتي مدشناً ما منح من قصور في الزمن القديم . هذا هو مؤسس معهدنا ، مؤسسنا الذائع الصيت ، يقف في الفناء رافعاً إحدى قدميه . إني أحيي مؤسسنا ، إن طابعاً رومانياً نبيلاً يخيّم على هذه الترابيع من الزوايا والأضلاع الكالحة . الأنوار مضاءة في الصفوف . لعل هذه مختبرات ؛ وهذه مكتبة ، حيث سأستكشف فيها دقة اللغة اللاتينية ، وأخطو بثبات على الجمل المرصوفة رصفاً حسناً ، وأنشد الشعر السداسي

twitter @baghdad_library

التفعيلات ، الشعر الرنّان ، الجلي ، لفرجيل ولوقريطس Lucretius ؛ وأنشد متولهاً لم يكن قط خافياً على أحد غراميات قطلوس Catullus ، أقرأ من كتاب كبير ، من قطع الربع ذي الحواشي . سأستلقي ، كذلك ، في الحقول بين الأعشاب المدغدغة للحواس . سأستلقي مع أصدقائي تحت أشجار الدردار الشاهقة .

انظروا جيداً ، المدير . وا أسفي ، أن يكون المدير مثيراً لاستخفافي . إن بادي التأنق أكثر مما ينبغي ، يلمع أكثر مما ينبغي وأسود ، كتمثالٍ ما في حديقة عامة . وعلى الجانب الأيسر من صداره ، صداره المزموم ، الشبيه بالطبل ، يتدلى صليب» .

قال برنارد «السيد كرين Crane ينهض الآن ليخطب بنا . كرين إياه ، المدير ، له أنف كجبلٍ عند الغروب ، وصِدع أزرق في ذقنه ، كوادٍ سحيقٍ مشجر أشعله أحد السائحين ، كواد سحيقٍ مشجر يُرى من نافذة قطار . إنه يترنح قليلاً وهو يتفوه ملء فيه بألفاظه الرنّانة والضخمة . إني أعشق الألفاظ الرنانة والضخمة . لكن ألفاظه هي بدرجة من الحماسة بشكل غير معقول . مع ذلك فإنه قد اقتنع بمرور الزمن بصدقها . وحينما يترك الغرفة متمايلاً كل الميل من هذا الطرف إلى ذاك ، ويندفع في طريقه من خلال الأبواب الدوارة ، فإن المعلمين جميعهم يتمايلون كل الميل من هذا الطرف إلى ذاك ، فيندفعون كذلك في طريقهم من خلال الأبواب الدوارة . إن هذه هي ليلتنا الأولى في المدرسة بمعزلٍ عن أخواتنا» .

قالت سوزان «هذه هي ليلتي الأولى في المدرسة ، بعيداً عن أبي ، بعيداً عن بيتي . عيني تنتفخ ، تحرقها الدموع . إني أكره رائحة الصنوبر ومطاط الأرضية . إني أكره أجمات الشجر وقد عضتها الريح وأكره البلاط الخزفي المعقم . أكره النكات المرحة والملامح الصقيلة الملساء على وجوه

الجميع . تركت سنجابي وحماماتي بعهدة الخادم الصبي ليعتني بها . باب المطبخ ينصفق ، الطلقات النارية تهسهس بين الأوراق حين يطلق بيرسي Percy النار على الغربان . كل شيء هنا زائف ، كل شيء مبهرج . رودا وجيني تجلسان بعيداً بالرداء القطني البني اللون ، وتنظران إلى الآنسة لامبيرت Lambert ، التي تجلس تحت صورة الملكة ألكساندا ، وهي تقرأ من كتاب أمامها . ثمة كذلك قطعة صغيرة زرقاء طرزتها إحدى الفتيات يوماً ما . إنّي إن لم أزم شفتيّ ، إن لم أبرم منديلي ، فلسوف أبكي» .

قالت رودا «الضوء الأرجواني في خاتم الآنسة لامبيرت يتنقل فوق الحروف السود على الصفحة البيضاء لكتاب الصلوات . إنه ضياء خمري ، وغزلي . الآن ، وقد فتحت صناديقنا في عنابر النوم ، فإننا نجلس زرافات تحت خرائط العالم . ثمة مناضد للكتابة عليها محابر . سنكتب تمارينا هنا بالحبر . لكنني هنا لست شيئاً . لا وجه لديّ . إن هذا الجمع الكبير ، الذي يرتدي القماش القطني البنيّ اللون ، قد سلبني هويتي . إننا كلنا قساة ، وبلا أصدقاء ، إني سأبتغي لنفسي وجهاً ، وجهاً رابط الجأش ، أشم ، وأحبوه بالمعرفة الكلية ، وأحمله تحت ردائي كتعويذة وعندئذ (أنا أعد بهذا) سوف أجد لنفسي وادياً ظليلاً في غابةٍ وأستطيع فيه أنً أعرض مجموعتي من النفائس الطريفة . أنا أعد نفسي بهذا . وهكذا لن أبكي» .

قالت جيني «المرأة العابسة ذات الخدين البارزين ، عليها فستان براق كالصدف ، معد للارتداء في المساء . هذا رداء مناسب للصيف ، أما للشتاء فإني أرغب بفستان رقيق فيه خيوط حمر تسطع بضوء نيران الموقد . عندئذ ، وحين توقد المصابيح ، فلسوف أرتدي فستاني الأحمر وسيكون رقيقاً كالغلالة ، وسيلتف حول جسدي ، ويهفهف إذ أدخل الغرفة ، وأنا أخطو على رؤوس أصابعي كما في رقص الباليه . سيؤلف الفستان شكل زهرة إذ أغور جالسة ، في وسط الغرفة ، على مقعد مذهب . لكن الآنسة

twitter @baghdad_library

لامبيرت ترتدي فستاناً غامقاً غير شفاف إذ تجلس تحت صورة الملكة ألكساندا وهي تضغط إصبعاً واحداً أبيض ضغطاً حازماً على الصحيفة . إننا نصلي» .

قال لويس «نحن الآن نسير بزمن زوجي ، بانتظام ، في موكب ، وندخل الكنيسة الصغيرة . أنا أحب العتمة التي تسقط علينا إذ ندخل المبنى المقدس . أنا أحب المسير النظامي . إننا نصطف ؛ نأخذ مقاعدنا جلوساً . ننزع عنا امتيازاتنا عندما ندخل . أنا أحب الأمر الآن ، حينما يرتقي الدكتور كرين المنبر ، وهو يتمايل قليلاً ، ولكن من جراء قوة دفعه ليس إلا ، فيقرأ الدرس من إنجيل منشور على ظهر المسند النحاسي . إني أبتهج ، قلبي يتفتح من استشعار كتلة بدنه ، وسلطته . إنه يسكّن سحب الغبار الدوارة في عقلي المرتعد ، عقلي المتهيّج هياجاً مخزياً - كيف رقصنا حول شجرة الكرسمس فنسوني حين وزعوا الرزم ، وقالت امرأة بدينة : «هذا الصبي الصغير ليست له هدية» ، وأعطتني علماً لماعاً ، علم انكلترا ، من أعلى الشجرة ، فبكيت بكاء عصبياً - فأتذكر ذلك بإشفاق . الآن كل شيء يعهد إلى سلطته ، إلى صليبه ، وأنا أشعر بإحساس يعتريني أن الأرض تحتي ، وأن جذوري تغور وتغور حتى تلف نفسها حول شيء صلب في المركز . لقد استرجعت استمراريتي ، وهو يقرأ . صرت شخصاً في الموكب ، قضيباً في العجلة الضخمة التي ما أن دارت حتى أقامتني منتصباً ، هنا والآن . لقد كنت في الظلام ؛ كنت مخفياً ؛ لكن حين تدور العجلة (وهو يقرأ) أنهض قائماً في هذا الضياء القائم فأبصر قليلاً صبياناً راكعين ، وأعمدة ولوحات نحاسية تذكارية . ليس ثمة فظاظة هنا ، ولا قبلات مباغتة» .

قال نيفيل «هذا الوحش يهدد حريتي حينما يقرا صلاته . إن كلماته تسقط ، من دون أن تكتسب دفئاً من الخيال ، باردة على رأسي كأحجار

التبليط ، بينما يجيش الصليب المذهب على صداره . إن الكلمات ذات السلطة يفسدها أولئك الذين ينطقونها . إني أهزأ وأسخر من هذا الدين الحزين ، من هؤلاء الأشخاص المرتعدين ، الذين أرداهم الأسى ، وهم يتقدمون ناحلين وجرحى على طريق الدرب الأبيض المظلل بأشجار التين حيث يستلقي الصبيان في التراب - الصبيان العراة ؛ وجلود الماعز منتفخةً بالنبيذ تتدلى من باب الحانة . كنت في روما مسافراً مع أبي في عيد الفصح ؛ وكان تمثال أم المسيح المرتعشة يُحمل محنيّ الرأس عبر الشوارع ؛ كذلك مر بنا تمثال المسيح ، بجسده المصاب ، في صندوق زجاجي .

«الآن سأميل جالساً كأني أحك فخذي ، وهكذا سأرى برسيفال Percival . ها هو يجلس بين رهط الولدان . إنه يتنفس من خلال أنفه المستقيم تنفساً ثقيلاً . عيناه الزرقاوتان وغير المعبرتين بشكل مستغرب مثبتتان بلا مبالاة وثنية على العمود المقابل . ما أصلحه مأموراً رائعاً في الكنيسة . ينبغي أن يحمل عصا ليضرب الصبيان عقاباً على سوء سلوكهم . إنه متوحد مع العبارات اللاتينية على اللوحات النحاسية التذكارية . لا يرى شيئاً ؛ لا يسمع شيئاً . إنه متناءٍ عنا جميعاً في كونٍ وثنيّ . لكن انظروا -إنه يرمي بيده إلى قفا رقبته . والمرء ليغرم بمثل هذه الإيماءات غراماً يائساً مدى العمر . دالتون ، جونز ، إدغار وباتمان يرمون بأيديهم إلى قفا رقابهم على شاكلته . لكنهم لا يفلحون» .

قال برنارد «أخيراً انقطعت الدمدمة . انتهى الوعظ . سحقت الدمدمة الفراشات البيض على الباب وأحالتها إلى مسحوق ناعم . إن صوته الفظ والخشن أشبه بذقنٍ غير محلوق . إنه الآن يتمايل عائداً إلى مقعده كبحارٍ مخمور . سيحاول كل المعلمين الآخرين تقليده في هذا ؛ لكنهم ، لأنهم مهلهلون ، لأنهم متخبطون ، لن يفلحوا وهم بسراويلهم الرمادية إلا بجعل أنفسهم سخفاء . أنا لا أحتقرهم . إن تصرفهم العجيب يبدو لي مثيراً

twitter @baghdad_library

للإشفاق . أسجل هذه الحقيقة لغرض الرجوع إليها في المستقبل مع حقائق عديدة أخرى أسجلها في دفتري . سأحمل معي حين أبلغ مراتب الشباب دفتراً سميكاً ذا صفحات عدة ، مرتبة حسب حروف الهجاء بشكل منتظم . سأُدخل فيه جملي بموجبه . تحت حرف م سأضع عبارة (مسحوق الفراشات) . فإذا ما وصفت ، في روايتي ، الشمس على رفرف النافذة فأنظر تحت حرف م وأجد مسحوق الفراشات . سيكون ذلك مفيداً ، الشجرة (تظلل النافذة بأنامل خضر) . سيكون هذا التعبير مفيداً . لكن وا أسفاه! إني سرعان ما يتشتت انتباهي- تشتّته شعرة كأنها حلوى مفتولة ، يشتّته كتاب الصلوات في يد سيليا Celia ، بغلافه الخارجي . لويس يستطيع تأمل الطبيعة ، من دون أن تطرف عينه ، على مدار الساعة . أنا سرعان ما أخيب في مأربي إلا إذا كُلِّمت ، (بحيرة عقلي صافية لا تعبث بها المجاديف ، تجيش رائقة ، وسرعان ما تغرق في وسنٍ زيتي) . سيكون هذا التعبير مفيداً» .

قال لويس «الآن نخرج من هذا المعبد البارد ، إلى ساحات اللعب الصفراء . وبما أن اليوم هو نصف عطلة (عيد ميلاد الدوق) فإننا سوف نستريح بالاستلقاء بين الحشائش الطويلة ، بينما هم يلعبون الكريكيت . لو أستطيع أن أكون (هم) ، لاخترت اللعبة ؛ ولحزمت سروالي الواقي حول ركبتي وخطوت عبر ساحة اللعب في مقدمة حَملة المضارب . انظروا الآن ، كيف أن الجميع يتتبعون برسيفال . إنه بدين . إنه يسير متخبطاً في الساحة ، بين الحشائش الطويلة ، إلى حيث تقوم أشجار الدردار الباسقة . وهو في روعته كقائدٍ من قواد القرون الوسطى . إن أثراً من ضياء يبدو وكأنه يسقط على العشب في أعقابه . انظروا إلينا نصطف خلفه ، نحن خدمه الأوفياء ، لكي تجز رقابنا كالخراف ، ذلك أنه سيحاول بالتأكيد القيام بمحاولة يائسة ليموت منازلاً في معركة . قلبي يغدو غليظاً ؛ وهو

يبريني كمبردٍ ذي حدين : أحدهما ، أني متولِّه بروعته ؛ والثاني أني أزدري لكنته السوقية - أنا الأرفع منه مقاماً - وأغار منه» .

قال نيفيل «والآن ، فليبدأ برنارد . فليواصل الثرثرة ، يحكي لنا حكايات ، ونحن مضطجعين . فليصف ما رأيناه نحن جميعاً بحيث يصبح وصفه مسلسلة . برنارد يقول هناك دائماً حكاية . أنا حكاية . لويس حكاية . هناك حكاية الصبي ذي الجزمة ، حكاية الرجل الأعور ، حكاية المرأة بائعة الحلازين البحرية . فليواصل الثرثرة بحكايته وأنا أستلقي وأمعن النظر في الأشكال المتصلبة السيقان لحملة المضارب المدرّعين باللباد ، من خلال الحشائش المرتعشة . لكأن العالم بأسره يفيض وينثني - الأشجار على الأرض ، الغيوم في السماء . أنا أنظر ، من خلال السماء ، إلى الأشجار . السباق كأنه يجري في الأعالي هناك . ومن بين السحب الناعمة ، البيضاء ، أسمع صيحة خافتة (اركض) ، وأسمع أخرى (ما بالك بهذه الضربة؟) . الغيوم تفقد خصلاً بيض إذ يبعثرها النسيم . لو أن تلك الزرقة تبقى إلى الأبد ؛ لو أن تلك الفجوة تظل إلى الأبد ؛ لو أن هذه اللحظة تستمر إلى الأبد- .

«لكن برنارد يستمر في الكلام . الأخيلة تتصاعد كالفقاعات - (ما أشبه هذا ببعير) . . . (ما أشبهه بنسر) ، البعير نسر ؛ النسر بعير ؛ ذلك أن برنارد هو سلك متدلٍ ، مرتخ ، لكنه مُغوٍ ، أجل ، لأنه حين يتكلم ، حين يسرد مقارناته السخيفة ، فإن طرباً يستخف المرء . المرء يعوم ، كذلك ، كأنه هو تلك الفقاعة ؛ المرء يتحرر طليقاً ؛ يشعر بالنجاة . حتى الصبيان السمان (دالتون ، لاربينت ، وبيكر) يشعرون بالاستسلام ذاته . إنهم يفضلون هذا على الكريكيت .

إنهم يقنصون العبارات إذ هي تتصاعد كالفقاعات . إنهم يتركون الحشائش الريشية تدغدغ أنوفهم . وعندئذٍ نشعر كلنا أن برسيفال يجثم

twitter @baghdad_library

بثقله في ما بيننا . إن قهقهته الغريبة تبدو وكأنها تصادق على ضحكنا . لكنه الآن قد غشّى نفسه بالعشب العالي - إنه ، على ما أظن ، يعلك سويقاً بين أسنانه . إنه يشعر بالضجر ؛ أنا أيضاً أشعر بالضجر . برنارد يدرك فوراً أننا ضجرون . أنا أستشف جهداً معيناً ، أستشف غلوّاً ، في عبارته ، كأنه قال (انظر!) ، لكن برسيفال قال (لا) ، ذلك أنه دائماً أول من يستشف عدم الإخلاص . إنه قاس إلى أقصى حد . الجملة تتضاءل واهنة . أجل ، لقد آن أوان اللحظة المريعة حين يضعف برنارد وتخذله قوته ولا تعود هناك أية مسلسلة فيتراخى ويعبث بقطعة من خيط ويلتزم الصمت ، فاغراً فاهاً كما لو أنه على وشك الإجهاش بالبكاء . هذا إذن هو مصدر من مصادر العذاب والدمار في الحياة - أن أصدقاءنا لا يستطيعون إكمال حكاياتهم» .

قال لويس «الآن دعوني أحاول ، قبل أن ننهض ، قبل أن نذهب لتناول الشاي ، أن أحدد اللحظة الفاصلة بجهد كبير . هذا الأمر سيبقى . إننا مفترقون ؛ بعضنا إلى الشاي ؛ بعضنا إلى شباك اللعب ؛ وأنا لأعرض مقالتي على المستر باركر Barker . هذا الأمر سيبقى . إن الشقاق والبغضاء (أنا أزدري هواة التخيّل - أستهجم قوة برسيفال أشد الاستهجان) يعملان على تجميع فكري الموزع وذلك بحدوث إدراك ما مفاجئ . إني أعتبر الأشجار ، الغيوم ، شهوداً على تكاملي الكلي . إني ، لويس ، أنا ، الذي سأدبّ على البسيطة مدة سبعين سنة قادمة ، قد ولدت بالكامل ، مخلوقاً من البغضاء ومن الشقاق . هنا على هذه الحلبة من العشب جلسنا معاً ، تربطنا ذريعة قوية من إكراه ما باطني . الأشجار تموج ، الغيوم تمر . الوقت يقترب عندما يتم الاشتراك في مثل هذه النجوى . إننا لن يصدر عنا دائماً صوت كالجرس المقروع كلما قرعتنا الأحاسيس تترى . أيها الأطفال ، إن حياتنا كانت أجراساً تقرع ؛ كانت جلبة ومباهاة ؛ صيحات قنوط ؛ ضربات

على قفا الرقبة في حدائق .

«ثمة الآن عشب وأشجار ، وهواء يهب محركاً فضاءات فارغة في الخلاء الأزرق ، ويهز الأوراق التي تستبدل نفسها في ما بعد ، وجلبتنا هنا ، ونحن جلوس ، وأذرعنا مشبوكة على ركبنا ، تلمّح إلى نظام آخر ، نظام أفضل ، يجعل مبرر الوجود قائماً إلى الأبد . هذا شيء أراه هنيهة ، وسأحاول الليلة تثبيته بكلمات ، وصهره بحلقةٍ من حديد ، وإن كان برسيفال هو الذي سيحطمها ، إذ يتخبط وهو يسحق الحشائش ، ورهط الصغار يهرول خلفه بخنوع . مع ذلك فإن برسيفال هو من أحتاج إليه . ذلك أن برسيفال هو الذي يلهم الشعر» .

قالت سوزان «كم من الشهور ، كم من السنين ، صعدت هذه السلالم ، في أيام الشتاء الكئيبة ، في أيام الربيع الباردة؟ الآن نحن في أواسط الصيف . إننا نصعد الآن لنغيّر ملابسنا ونرتدي البزّات البيض لنلعب التنس -جيني وأنا على أن تتبعنا رودا . إني أحصي كل درجة عند صعودي وأعتبر كل درجة شيئاً انتهى أمره . لذا فإني أمزّق كل ليلة اليوم القديم من التقويم ، وأدعكه بشدة على شكل كرة . أفعل ذلك بروح انتقامية ، في حين تكون بتي Betty وكلارا Clara جاثيتين على ركبتيهما . أنا لا أصلي . إني أنتقم لنفسي من النهار . أصب ازدرائي عليه . أقول عنه في نفسي أنت ميت اليوم ، يا يوم المدرسة ، أيها اليوم البغيض . لقد جعلوا من أيام حزيران كلها -هذا هو اليوم الخامس والعشرون منه- أياماً مبهرجة ونظامية ، مع أجراس ، ودروس ، مع أوامر للاغتسال ، لتبديل الملابس ، للسعي ، للأكل ، إننا نصغي إلى رجال إرساليات من الصين . إننا نذهب في مركبات - عربات كبيرة ذات أربع عجلات- حذو أرصفة معبدة لحضور حفلات

twitter @baghdad_library

موسيقية ولزيارة معارض فنية .

«في مسقط رأسي يموج التبن في المروج . أبي يتكئ على الباب الدوار ، وهو يدخن . في البيت أحد الأبواب ينصفق ، ويليه آخر ، إذ يهب هواء الصيف في الممرات الخالية . لعل صورةً ما قديمة تتأرجح على الجدار .

تويج يسقط من وردة في الدورق . مركبات الحقل تكسو الوشيع بخصل التبن . كل هذا أراه ، دائماً أراه ، إذ أمرّ بالمرآة المعلقة في صحن السلم ، جيني في المقدمة ورودا تتباطأ في الخلف . جيني ترقص . جيني ترقص في الردهة دائماً على البلاط القبيح ذي الرسوم الشمعية ؛ إنها تقلب العجلات في ساحة اللعب ، تقطف زهرة كمن يغترف محرماً ، وتضعها خلف أذنها حتى تعتلج عيني الآنسة بيري Perry الغامقة اللون بالإعجاب ، بالإعجاب بجيني ، ليس بي . الآنسة بيري مغرمة بجيني ؛ وكان بوسعي أنا أن أغرم بها ، لكنني الآن لا أغرم بأحد ، سوى بأبي ، وحماماتي وسنجابي الذي تركته في قفص في البيت ليعتني به الغلام» .

قالت جيني «أنا أكره المرآة الصغيرة على السلم . إنها لا تُظهر سوى رؤوسنا فقط ؛ تقطع رؤوسنا . شفتاي عريضتان جداً ، وعيناي متقاربتان جداً ؛ أنا أكشف عن لثتي كثيراً عندما أضحك . رأس سوزان ، بملامحه المطرقة ، بالعينين ا لخضراوتين خضرة الحشيش ، اللتين سيعشقهما الشعراء كما قال برنارد ، يحجب رأسي ؛ حتى وجه رودا ، حالماً ، فارغاً ، يكتمل كتلك التويجات البيض التي كانت رودا تعومها في طاستها . لذا فإني أتجاوز الدرجات مارةً بهما للوصول إلى صحن السلم التالي ، حيث علقت المرآة الطويلة فأرى نفسي بالكامل . إني أرى جسدي ورأسي يتحدان كشيءٍ واحد الآن ؛ ذلك أنهما ، حتى في هذه البزّة القطنية ، كلٌّ واحد ، جسدي ورأسي . انظروا ، فحين أحرّك رأسي فإني أترجرج من أعلى جسدي النحيل إلى أسفله ؛ حتى ساقاي النحيفتان تترجرجان

كساق نبتةٍ في الريح . إني أَخفق بين وجه سوزان الثابت وبين غموض رودا ؛ أثب كلهبٍ يتواثب بين صدوع الأرض ؛ أتحرك ، أرقص ؛ ولا أتوقف قط عن الحركة وعن الرقص . إني أتحرك كالورقة التي تحركت في سياج الوشيع وأنا طفلة فأفزعتني . إني أرقص فوق هذه الجدران المتشابهة ، الموخوطة ، المصبوغة ، وقد لونت أسافلها بحاشية صفراء ، كما يتراقص ضوء النار فوق دوارق الشاي . إن النار تسري بي حتى من عيون النساء الباردة . وحين أقرأ تتحلق حاشية أرجوانية ، حول الحافة السوداء للكتاب المدرسي . لكني لا أستطيع أن أتابع أية كلمة خلال ما يجري في الحاشية من تغييرات . لا أستطيع أن أتابع أية فكرة إلى نهايتها من الحاضر إلى الماضي . أنا لا أقف حائرةً ، كسوزان والدموع في عيني أتذكر البيت ؛ ولا أضطجع ، كرودا متهاوية بين نباتات السرخس ، أبقّع ردائي القطني الوردي بلونٍ أخضر ، وأحلم بالنباتات التي تزهر تحت البحر ، وبالصخور التي تسبح من خلالها الأسماك ببطء . أنا لا أحلم .

«فلنسرع الآن . فلأكن الآن أول من يخلع هذه الملابس الخشنة . سأتناول جواربي النظيفة البيضاء . سأتناول حذائي الجديد . وأربط شعري بشريطٍ أبيض ، وعندما أثب عبر الساحة سيتطاير الشريط ملتمعاً ، ثم يلتف حول عنقي ، وفي موضعه الصحيح . لن تكون هناك شعرة واحدة من شعري في غير محلها» .

قالت رودا «هذا هو وجهي في المرآة وراء كتف سوزان – ذلك الوجه هو وجهي . لكني سأختبئ خلف سوزان لأخفيه ، لأنني لست هنا . ليس عندي وجه . الآخرون عندهم وجوه ؛ سوزان وجيني كلتاهما عندها وجه ؛ إنهما هنا . عالمهما هو العالم الحقيقي . الأشياء التي يرفعونها لها وزن . إنهما تقولان نعم ، تقولان لا ؛ في حين أنني أتنقل وأتبدل ويعرف أمري بأسره في ثانية واحدة . هما إذا التقتا خادمة نظرت إليهما دون أن

twitter @baghdad_library

تضحك . لكنها تضحك مني . إنهما تعرفان ماذا تقولان إذا كلمتا . إنهما تضحكان حقاً ؛ تغضبان حقاً ؛ أما أنا فعليّ أن أنظر أولاً ثم أفعل ما يفعله الآخرون من بعدهم .

«انظروا الآن بأية ثقة فائقة تسحب جيني جواربها ، لا لشيء إلا لكي تلعب التنس . هذا أمر أُعجب به . لكني أكثر ميلاً إلى طريقة سوزان ، لأنها أشد عزماً ، وأقلّ طموحاً لنيل الامتياز من جيني . كلتاهما تزدريني لأنني أقلد ما تقومان به ؛ لكن سوزان تعلّمني أحياناً ، كيف أعقد ربطة مثلاً ، أما جيني فلديها ما لديها من المعرفة لكنها تحتفظ بها لنفسها . هما لديهما صديقات تجالسانهما . لديهما أشياء تقولانها في الزوايا سراً . أما أنا فلا صلة لي إلا بأسماء ووجوه أكثرها كتعاويذ ضد الكارثة . إني اختار عبر الردهة وجهاً ما غير معروف ، فأشرب الشاي حين تجلس قبالتي ذات الوجه التي لا أعرف اسمها . فأختنق . وتزلزلني عاطفتي العنيفة . إني أتخيل هؤلاء الذين بلا أسماء ، الخلو من الأخطاء ، وهم يرقبونني من وراء الأجمات . إني أثب عالياً لأثير إعجابهم . وفي الليل ، في السرير ، أثير عجبهم التام . إني كثيراً ما أموت مصابة بالسهام لكي أستدر دموعهم . فإذا قالوا إنهم كانوا في سكاربورو Scarborough في العطلة الأخيرة ، أو أدرك ذلك من العلامة الملصقة على حقائبهم ، فإن المدينة بأسرها تكتسي ذهباً ، الرصيف كله يضيء بالأنوار . لهذا أكره المرايا التي تظهر وجهي الحقيقي . وحين أكون وحيدة أهوي غالباً إلى العدم . عليّ أن أضغط بقدمي خلسة لئلا أسقط من شفا العالم إلى العدم . عليّ أن اصفق راسي على بابٍ ما متين لأعيد ذاتي إلى الجسد» .

قالت سوزان «لقد تأخرنا ، ويجب أن ننتظر دورنا لكي نلعب . سنتخفى هنا وسط الحشائش العالية ونتصنع مشاهدة جني وكلارا ، مشاهدة بتي ومافيس Mavis . لكننا لن نشاهدهن . أنا أكره مشاهدة

آخرين يلعبون . سأتخيل أخيلة عن الأشياء التي أكرهها جداً ثم أدفنها في التراب . هذه الحصاة اللامعة هي مدام كارلو Carlo ، وسأدفنها عميقاً لما تتصف به من تزلف ومداهنة ، وبسبب القرش الذي أعطتنيه لكي أبقي عظام كفي مفتوحة حين عزفت على البيانو . دفنت قرشها . وسأدفن المدرسة بأسرها : الملعب ؛ الصف ؛ المطعم الذي يفوح دائماً برائحة اللحم ؛ والكنيسة الصغيرة . سأدفن بلاط الأرض الداكن والتصاوير الزيتية للشيوخ – من المحسنين ومؤسسي المدارس . ثمة أشجار أحبها ؛ شجرة الكرز مع قطع من اللبان الصافي على لحائها ؛ وأحب منظراً واحداً أراه من العلّية باتجاه هضاب بعيدة . سأدفن كل شيء باستثناء هذين ، مثلما أدفن هذا الحصى القبيح المنثور دائماً في أطراف هذا الساحل المالح ، بما فيه من أرصفة وسائحين . في بلدتنا ، الأمواج بطول ميل أو أكثر . وفي ليالي الشتاء نسمع هديرها . في عيد الميلاد الماضي غرق رجل وهو جالس بمفرده في مركبته الصغيرة ذات العجلتين» .

قالت رودا «حينما تمر الآنسة لامبرت ، وهي تتكلم مع القسيس ، فإن الأخريات يضحكن ويقلدن حديثها من وراء ظهرها ؛ مع هذا فكل شيء يتبدل ويضحي منيراً . جيني أيضاً تثب عالياً حين تمر الآنسة لامبرت . لو أن لامبرت رأت تلك الزهرة فستتبدل الزهرة . أنّى ذهبت الآنسة لامبرت تبدلت الأشياء تحت عينيها ؛ ومع هذا فحين تذهب لا يكون الشيء هو ذاته مرة أخرى؟ الآنسة لامبرت تأخذ القسيس خلال البويب الذي وسط البوابة الكبيرة إلى جنينتها الخاصة ؛ وحين تصل إلى البركة ترى ضفدعة على ورقة ، وهذه ستتبدل . كل شيء مهيب ، كل شيء شاحب كتمثال في رواق مشجر . إنها تترك بردتها الحريرية تنحدر عن كتفها ، فلا يظل ساطعاً سوى خاتمها الأرجواني ، خاتمها الخمري ، البنفسجي . هذا اللغز الغامض يحيط بالناس حين يغادروننا . حين يغادرون أستطيع أنا

twitter @baghdad_library

اصطحابهم إلى البركة فأجعلهم من ذوي المهابة . حين تمر الآنسة لامبرت فإنها تجعل الزهرة تتبدل ؛ إن كل شيء ينساب انسياباً كخصل من نار حين تقطع لحم البقر على المائدة . إن الأشياء تفقد صلابتها شهراً بعد شهر ؛ حتى جسدي الآن يدع الضياء يمر من خلاله ؛ إن عمودي الفقري رخوٌ كالشمع قرب لهيب الشمعة . إني أحلم ؛ إني أحلم» .

قالت جيني «لقد كسبت الشوط . الآن جاء دوركن . يجب أن ألقي بنفسي على الأرض وألهث . تنفسي ينقطع من الركض ، من الفوز . كل شيء في جسدي يستخفه الركض والفوز . دمي لا بد أن يكون أحمر براقاً ، مهاجاً ، يتلاطم على ضلوعي . كعباي يوخزانني ، كأن حلقات سلكية تنفتح وتنغلق في قدميّ . إني أرى كل ورقة من الحشائش بوضوح تام . لكن النبض يقرع كل القرع في صدغي ، خلف عيني ، فيتراقص كل شيء - الشبكة ؛ العشب ؛ وجوهكن تتواثب كالفراشات ؛ الأشجار كأنها تتقافز عالياً سافلاً . ليس هناك في هذا العالم شيء رصين ، شيء ثابت . كل شيء يترجرج ، كل شيء يتراقص ؛ كل شيء إسراع وفوز . ولكن ، حين استلقيت بمفردي على الأرض الصلبة ، أرقبكن تلعبن شوطكن ، أخذت أشعر بالرغبة بأن أُفرَد من بينكن ؛ أُستدعى ، أنادى من شخص واحد يأتي ليعثر عليّ ، شخص يُجتذب نحوي ، ولا يستطيع أن يظل بعيداً عني ، لكنه يأتي إلى حيث أجلس على مقعدي المذهّب ، ورداني يتماوج من حولي كأنه زهرة . عندئذٍ ننسحب إلى ظُلّة ، فنجلس بمفردنا في شرفة ، ونتحدث معاً .

«الآن ينحسر المد . الآن ترجع الأشجار إلى الأرض ؛ الأمواج النشطة التي تضرب ضلوعي تتكسر تكسّراً رفيقاً ، وقلبي يلقي بمراسيه ، كزورق شراعي تنزلق أشرعته نازلة ببطء وهو يتجه نحو الرصيف الأبيض . شوط اللعبة انتهى . وعلينا الذهاب لتناول الشاي الآن» .

قال لوريس «الصبيان المتبجحون ذهبوا الآن مع فريق كبير لكي يلعبوا الكريكيت . انطلقوا في مركبتهم الكبيرة ، يغنون جماعياً . رؤوسهم كلها تلتفت في آن واحد عند الزاوية بالقرب من أجمة الغار . إنهم يتباهون الآن ، أخو لارينت لعب مع فرق أكسفورد لكرة القدم ؛ أبو سميث ضرب رقماً قياسياً في ساحة لوردز ؛ أرجي وهيو ؛ باركر ودالتون ؛ لا رينت وسميث ، ثم مرة أخرى أرجي وهيو ؛ باركر ودالتون ؛ لارينت وسميث - الأسماء تكرر نفسها ؛ الأسماء هي هي دائماً . فهم هُم المتطوعون لكل شيء ؛ واللاعبون في الكريكيت ؛ وهم من رجال جمعية التاريخ الطبيعي . إنهم دائماً يؤلفون رتلاً رباعياً ويسيرون أفواجاً وهوياتهم على قبعاتهم ؛ إنهم يرفعون أيديهم بالتحية في آنٍ واحد وهم يمرون بشخص قائدهم الجنرال . ما أبهى نظامهم ، وما أجملَ طاعتهم! لو كان يسعني اتباعهم ، لو كان يسعني أن أكون معهم ، لضحيت بكل ما أعرف . لكنهم كذلك يتركون الفراشات وهي ترتجف بأجنحتها متقصِّفة ؛ إنهم يرمون مناديلهم قذرة ملوثة بالدماء ، مدعوكة في الزوايا . إنهم يقسون على صبيانٍ صغار حتى يبكون في أزقة مظلمة . آذانهم كبيرة حمراء تبرز من تحت قبعاتهم . مع هذا فهذا ما نرغب أن نكونه ، نيفيل وأنا . إني أرقبهم حاسداً وهم يذهبون . وإذ أتلصص عليهم من وراء ستار ، فإني ألحظ تزامن حركاتهم بابتهاج . لو أن ساقيّ تُدعمان بسيقانهم ، فيا لهما كيف ستركضان! لو كنت معهم وكسبت أشواطاً في اللعب وجدفت في سباقات الزوارق الكبرى ، وامتطيت صهوات الجياد طيلة النهار ، فيا لي كيف سأنشد الأغاني بصوت هادر عند منتصف الليل! وبأي سيل ستتدفق الكلمات من حنجرتي!» .

قال نيفيل «برسيفال ذهب الآن . إنه لا يفكر بشيء سوى باللعبة . لم يلوّح بيده قط حين استدارت المركبة الكبيرة قريباً من أجمة الغار . إنه

twitter @baghdad_library

يزدريني لأني أضعف من أن أستطيع اللعب (مع هذا فهو دائماً متلطف تجاه ضعفي) . يزدريني لعدم اكتراثي سواء ربحوا أم خسروا ، أما هو فيكترث . إنه يتقبل إخلاصي له ؛ ويقبل قرباني المتهيب ، المهين بلا ريب ، ممزوجاً بالازدراء لأنه قربان أقدمه إلى عقله . ذلك أنه لا يستطيع القراءة . مع هذا فحين أقرأ شكسبير ، وأنا مستلقٍ في الحشائش العالية ، فإنه يفهم أكثر مما يفهمه لويس . لا يفهم الكلمات - لكن ما الكلمات؟ ألا أعرف أنا أصلاً كيف أقفّي الشعر ، كيف أقلد بوب ودرايدن بل حتى شكسبير؟ لكنني لا أستطيع الوقوف طيلة النهار في الشمس وعيناي على الكرة ؛ لا أستطيع الإحساس بطيران الكرة خلال جسدي والتفكير بالكرة فقط دون سواها . أنا سأكون متشبثاً بما هو خارج معاني الكلمات طوال حياتي . مع هذا فإني لا أستطيع الحياة معه وتجرّع سخافته . إنه سيتغلّظ ويشخر عند النوم . إنه سيتزوج وستكون هناك ملاومة على مائدة الإفطار . لكنه الآن شاب فتيّ . ما من خيط ، ما من صفحة ورق تقف بينه وبين الشمس ، بينه وبين المطر ، بينه وبين القمر إذ يستلقي عارياً ، مطّرحاً ، ساخناً ، في فراشه . الآن وهم ذاهبون في الطريق العام بمركبتهم الكبيرة يلوح وجهه مرقطاً بالأحمر والأصفر . إنه سيخلع سترته ويقف منفرج الساقين ، ويداه متهيئتان ، يراقب موقع الهدف . وسيدعو ربه قائلاً : «اللهم اجعلنا من الرابحين . وسيفكر بشيء واحد فقط ، إنهم يجب أن يغلبوا .

«كيف أستطيع الذهاب معهم في المركبة الكبيرة لكي ألعب الكريكيت؟ برنارد وحده يستطيع أن يذهب معهم ، لكن برنارد يتأخر كثيراً ، فكيف يذهب معهم . فهو يتوقف وهو يغسل يديه ليقول : (أرى ذبابة في بيت العنكبوت . هل أنقذها؟ أم أدع العنكبوت يلتقمها؟) إنه يعيش في ظل الحيرة بأنواعها المختلفة ، فإذا ذهب معهم فسيستلقي في العشب ، يراقب السماء ، ولا يبدأ باللعب إلا في نهاية الشوط حين تكون

الكرة قد أصابت المرمى . لكنهم سيسامحونه ؛ ذلك أنه سيحكي لهم حكاية» .

قال برنارد «لقد ذهبوا سراعاً بالمركبة ، وأنا متأخر جداً في الذهاب معهم . الأولاد الصغار العفاريت ، الذين هم في أعلى مراتب الجمال أيضاً ، وأنتم تحسدونهم من أعماق قلوبكم ، أنت ولويس ، يا نيفيل ، هؤلاء ذهبوا سراعاً بالمركبة ورؤوسهم تستدير بالطريقة نفسها . لكني لا أعي هذه الفوارق الدقيقة . أصابعي تنساب فوق مفاتيح البيانو دون أن أميّز السوداء بينها من البيضاء . آرجي يحصل على درجة مائة بسهولة ؛ أما أنا فأحصل أحياناً على خمس عشرة بمحض الصدفة . فما هو الفرق بيننا؟ لكن ، مهلاً ، يا نيفيل ؛ دعني أتكلم . الفقاعات تتصاعد كأنها فقاعات فضية من قاع المقلاة ؛ إنها صورة تتراكم ، واحدة فوق أخرى . أنا لا أستطيع الجلوس أمام كتابي ، مثل لويس ، بجلدٍ فتّاك . عليّ أن أفتح باب الفخ الصغير وأفسح المجال لخروج هذه الجمل المترابطة التي بها أرتب ما يحدث ، دون أن تتفكك ، فيتكون في تصوري خيط متكامل يربط الأشياء برفق أحدها بالآخر . سأحكي لك حكاية الدكتور .

«حين يتمايل الدكتور كرين خلال الأبواب الدوّارة بعد الصلاة فإنه يكون مقتنعاً ، على ما يبدو ، بتفوقه الذريع ؛ والحق ، يا نيفيل ، إننا لا نستطيع أن ننكر أن مغادرته تترك فينا ليس فقط إحساساً بالارتياح ، وإنما كذلك إحساساً بشيء خُلع ، كسنٍ اقتلع . الآن دعنا نتبعه إذ هو يجيش خلال الباب الدوّار إلى شقته الخاصة . فلتتخيله في غرفته الخاصة الواقعة فوق الاسطبل يخلع ملابسه . إنه يفك حمالات جواربه (فلنكن في كلامنا تافهين ، فلنكن حميمين) . عندئذ وبإيماءة مميّزة (من الصعب تجنب هذه العبارات الجاهزة الصنع ، وهي في حالة صاحبنا عبارات مناسبة نوعاً ما) يخرج العملة الفضية ، ثم العملة النحاسية ، من جيوب سرواله ،

twitter @baghdad_library

ويضعها هنا ، وهناك ، على منضدة زينته . وبذراعيه مبسوطتين على ذراعي مقعده يأخذ بالتأمل والتفكير (هذه هي لحظة انفراده بنفسه ، وعلينا أن نحاول اصطياده فيها) : هل يعبر القنطرة الوردية إلى غرفة نومه أم لا يعبرها؟ إن الغرفتين تتصلان بقنطرة من الضياء الوردي المنبعث من المصباح قرب السرير حيث تستلقي زوجته السيدة كرين وشعرها على الوسادة وهي تقرأ في كتاب من كتب المذكرات الفرنسية . إنها وهي تقرأ تجيل يدها فوق جبينها بإيماءة خليعة ويائسة وتتنهد : (هل هذا هو كل ما هنالك؟) وهي تقارن نفسها بدوقةٍ ما فرنسية . ويقول الدكتور إني سأتقاعد ببحر سنتين . أقلّم أسيجة أشجار الطقسوس في حديقة ريفية غرب البلاد . ربما كنت سأصير أميراً من أمراء البحر ؛ أو قاضياً ؛ لا مدير مدرسة . إنه يسأل نفسه ، وهو يحدِّق بنيران الموقد الغازي وكتفاه محدودبان بضخامة أعظم مما نعهده فيهما (لا تنس أنه بجلبابه) ، ما هي القوة التي أوصلتني إلى هذا الوضع؟ ما هي تلك القوى العظيمة يا ترى؟ إنه يتساءل وهو يندمج في دفق جمله الجليلة ويلتفت ناظراً إلى النافذة . إنها ليلة عاصفة ؛ أغصان شجر الكستناء تتماوج صاخبةً . النجوم تلتمع من بين الأغصان . إنه يسأل نفسه ما هي قوى الخير والشر العظيمة التي آلت بي إلى هنا؟ يتساءل وهو يرى آسفاً أن مقعده قد حكّ ثقباً صغيراً في زغب السجادة الأرجوانية . وهكذا فهو جالس ، يهز حمالات السروال . لكن الحكايات التي تتبع الناس إلى غرفهم الخاصة تصعب روايتها . أنا لا أستطيع الاستمرار في هذه الحكاية . إني أعبث بقطعة خيط صغيرة ؛ إني أقلب بضعة قطع نقدية في جيب سروالي» .

قال نيفيل «إن حكايات برنارد تؤنسني في البداية . لكنها حين تتمادى متراخية بشكل أخرق وهو يلهث ، عابثاً بقطعة خيط صغيرة ، فإني أشعر بعزلتي . إنه يرى الجميع تحيط بهم حوافٍ غابشة . لذا لا

أستطيع أن أتحدث معه عن برسيفال . لا أستطيع تعريض تولّهي الأخرق والعنيف لتفهمه المتعاطف . إن تولهي سيؤلف كذلك (حكاية) . أنا بحاجة إلى شخص يكون ذهنه كالفأس تسقط على قطعة الخشب ؛ شخص يكون الدرك الأسفل من الخطل متسامياً بنظره ، وشسع النعل مجيباً للقلب ، لمن أكشف تولهّي العجول؟ إن لويس بارد جداً ، كونيّ جداً . ما من أحد هنا ، بين هذه الأطواق الرمادية ، والحمائم النائحة ، هنا بين هذه الألعاب البهيجة وقواعد العرف والمحاكاة ، وكلها منظمة بدرجة كبيرة من المهارة لمنع الشعور بالوحدة . مع هذا صعقني وأنا أسير تطيّر مباغت مما سيأتي . البارحة رأيت فينيك Fenwick وأنا أمر من الباب المفتوح المؤدي إلى الجنينة الخاصة ، ومضرب الكرة مرفوع بيده . البخار يتصاعد من إبريق الشاي في وسط ساحة العشب الخضراء . ثمة ألواح من أزهار زرق . عندئذٍ اعتراني فجأة الإحساس الغامض ، الصوفي ، بالوجد ، وبالتمام الكلي الذي انتصر على الفوضى . ما من أحدٍ رأى شخصي الأشم والمستغرَق وأنا أقف في الباب المفتوح . ما من أحدٍ خمّن حاجتي لتقديم وجودي كله إلى إله واحد ؛ ثم أزول فأختفي . مضرب الكرة تحرك بيده نازلاً ؛ الرؤيا تهشمت .

«هل أبغي شجرة؟ هل أهجر هذه الصفوف والمكتبات ، والصفحة الصفراء العريضة التي أقرأ فهيا شعر قطلوس ، وألجأ إلى الغابات والحقول؟ هل أسير تحت أشجار الزان ، أو أتسكع بمحاذاة ضفة النهر ، حيث تلتقي الأشجار متحدةً كالعاشقين في الماء؟ لكن الطبيعة رتيبة أكثر مما ينبغي ، خاوية أكثر مما ينبغي . ليس فيها سوى التسامق والشسوع والماء والأوراق . بدأت أتمنى ضياء النار ، والخلوة ، وضلوع امرئٍ واحد» .

قال لويس «بدأت أتمنى لو أن الليل سجى . إني إذ أقف هنا ويدي على لوح خشب البلوط الخشن لباب المستر ويكهام Wickham أحسب

twitter @baghdad_library

نفسي صديقاً لراشيليو أو للدوق سان سيمون حاملاً علبة سعوط للملك نفسه . إن هذا هو امتيازي . إن فكاهاتي الظريفة (تجري كالنار العارمة في أرجاء البلاط) . الدوقات يقطعن الزمرد من أقراطهن إعجاباً - لكن هذه القذائف لا تحسن تصاعدها إلا في الظلام ، في علبتي الصغيرة ليلاً . إني الآن لست سوى صبي بلكنة مستوطني المستعمرات واضعاً عظام أصابعي على باب البلوط الخشن للمستر ويكهام . كان النهار مليئاً بالمخزيات والانتصارات وقد أُخفيت خشية الضحك . إني أحسن باحث في المدرسة . إنما حين يجن الظلام فإني أخلع عني هذا الجسد الذي لا أحسد - أنفي الكبير ، وشفتاي الرقيقتان ، ولكنتي الخاصة بمستوطني المستعمرات- وأقطن الفضاء . أنا عندئذٍ رفيق فرجيل ، ورفيق أفلاطون . أنا عندئذ السليل الأخير لأحد كبار البيوتات الفرنسية . لكني كذلك المرء الذي سيجبر نفسه على هجر هذه الأقاليم التي تهب فيها الرياح ويضيئوها نور القمر ، هذه التحولات التائهة في جوف الليل ، إني أنا الذي سيتصدى لأبواب البلوط الخشن . إني سأحقق في حياتي - وعسى أن يعينني الله على ألا يستغرق ذلك طويلاً- دمجاً جباراً بين الشيئين المتعارضين وهما واضحان لي بشكل ذريع . سأقوم بذلك من خلال شقائي . سأطرق الباب . ولسوف أدخل» .

قالت سوزان «لقد مزّقت شهر أيّار وحزيران بأكملهما وخمسة وعشرين يوماً من تموز . مزقتها ودعكتها فلم تعد باقية إلا كوقر في جنبي . كانت أياماً مشلولة ، كفراشات ذبلت أجنحتها فلا تستطيع أن تطير . لم يبق سوى ثمانية أيام . بعد ثمانية أيام سأخرج من القطار واقف على رصيف المحطة في الساعة السادسة وخمس وعشرين دقيقة . عندئذ ستنشر حريتي شراعها ، أما هذه القيود التي تطبع الحياة بالغضون والذبولً -قيود

من ساعات محددة ونظام وانضباط ، وضرورة الحضور هنا وهناك في اللحظة الصحيحة بالضبط- فسوف تتصدع كلها وتتمزق إرباً . النهار سيهب بوجهي وأنا افتح باب المركبة فأرى أبي بقبعته القديمة والوقاء العتيق على حذائه . وسأرتجف . سأجهش بالبكاء . وفي صباح اليوم التالي سأستيقظ عند الفجر . سأخرج من باب المطبخ . سأسير على المرسى . الجياد العظيمة لمتطي صهوة السراب ستهدر من خلفي وتقف فجأة . سوف أرى السنونو يمر فوق العشب مسرعاً . سأرمي بنفسي على سدّة النهر وأرقب السمك بين القصب . ستنطبع راحة كفي بإبر الصنوبر . ولسوف أرفع هنالك الغطاء عني وأخرج ما كنت قد صنعته هنا كائناً ما يكون ؛ أخرج شيئاً صلباً . ذلك أن شيئاً قد نما في باطني هنا ، خلال فصول الشتاء والصيف ، على السلالم ، في غرف النوم . إني لا أريد أن أثير الإعجاب كما تريد جيني . لا أريد أن ينظر إليّ الناس بإعجاب حين أدخل . أيرد أن أُعطي وأن أُعطى ، وأريد عزلةً أرفع الغطاء فيها عما أملكه .

«ثم سأعود خلال الدروب الراعشة تحت أطواق من أوراق الجوز . سأمر بامرأة عجوز تسحب عربة أطفال مليئة بالحطب ؛ وسأمر بالراعي . لكننا لن نتحدث . سأعود عبر حديقة الخضراوات ,وأرى الأوراق الملتفة لزروع اللهانة وقد حصبتها حبيبات الندى ، وأرى البيت في الحديقة وقد تغشّى بستائر النوافذ . سأصعد إلى غرفتني ، وأقلّب أشيائي ، وقد خُتم عليها بعناية في خزانتي : الأصداف ؛ البيض ؛ الحشائش الغريبة . سأطعم حماماتي وسنجابي . سأذهب إلى مأوى الكلب وأمشط شعر كلبي الأسباني . وهكذا فبالتدريج سأقلّب الشيء الصلب الذي نما هنا في جنبي . ولكن هنا في هذا المكان تقرع الأجراس ويترامى وقع الأقدام على الدوام» .

قالت جيني «إني أكره الظلام والنوم والليل ، فاضطجع توّاقةً لحلول

twitter @baghdad_library

النهار . أنا أصبو أن يكون الأسبوع كله يوماً واحداً من دون تقسيم . حين أفيق مبكراً -تفيقني الطيور- أستلقي وأرقب المقابض النحاسية على الخزانة تغدو واضحة للعيان ؛ ثم المغسلة ؛ ثم مسند تعليق المنشفة . ما أن يغدو كل شيءٍ في الغرفة واضحاً للعيان حتى يخفق قلبي بنبضٍ سريع . عندئذٍ أشعر بجسدي يتصلب ويصبح ورديا ، أصفر ، أسمر . يداي تمران فوق ساقيّ وبدني . إنني اشعر بتجاويف جسدي ، بنحافتي . وأحب أن أسمع الجرس يرن عالياً في أرجاء الدار فتبدأ الحركة - هنا خفقة وهناك همسة . الأبواب تنصفق ، الماء يتدفق . هذا يومٌ آخر ، هذا يوم آخر ، هكذا أصيح إذ تلمس قدامي الأرض . قد يكون يوماً مرضوض الجوانب ، يوماً لا يبلغ الكمال . أنا غالباً ما أُزجر . غالباً ما أوّبخ عن كسلٍ يبدو عليّ ، أو عن ضحكٍ يندُّ عني ؛ لكني أنتبه حتى حين تدمدم الآنسة ماثيوز Mathews بشأن إهمالي الأخرق لمرأى شيء يتحرك - بقعة من ضياء الشمس على صورة ، حمار يجر ماكنة قص العشب في الساحة الخضراء ؛ أو شراع يمر بين أوراق شجر الغار ، لذا فأنا لا أبتئس قط . ولا يمكن منعي من القفز على رؤوس أصابعي كراقصة باليه خلف الآنسة ماثيوز عند الذهاب لأداء الصلوات .

«الآن أيضاً سيحين الوقت الذي نترك فيه المدرسة ونلبس أردية طويلة . سألبس قلائد وثوباً أبيض بلا أكمام في الليل . ستقام حفلات في غرف تسطع بالأضواء ؛ وسيفردني رجل واحد من بين الفتيات وسيقول لي ما لم يقله لغيري . سيميل إليّ أكثر مما يميل إلى سوزان أو رودا . سيجد فيّ صفة ما ، شيئاً ما خاصاً . لكني لن أبيح لنفسي التعلق بشخص واحد فقط . لا أريد أن أكون مغلولة . أنا أرتعش ، أرتجف كورقة في السياج الشجري المزهر ، إذ أجلس وقد تدلت قدماي ، على حاشية السرير ، حين يهل يوم جديد . أمامي خمسين من السنين ، أو ستين ،

لكي أحياها . إني لم أمد يدي بعد في ذخائري . هذه هي البداية» .

قالت رودا « أمامي ساعات وساعات قبل أن أستطيع إطفاء الضياء والاستلقاء في سريري معلقةً فوق العالم ، قبل أن أتمكن من إتاحة الفرصة للنهار أن ينصرم ، قبل أن أتمكن من إتاحة الفرصة لشجرتي أن تنمو ، وهي ترتجف في سرادقاتٍ خضرٍ تمتد فوق رأسي . هنا لا أستطيع إتاحة الفرصة لشجرتي أن تنمو . شخصٌ ما يصطدم بها . بعضهم يتساءلون ، ويقاطعون ، ويطرحون الشجرة أرضاً .

«الآن سأذهب إلى الحمام وأخلع حذائي وأغتسل ؛ لكني إذ أغتسل ، إذ أحني رأسي فوق المغسلة ، أدع برقع الإمبراطورة الروسية يهفهف حول كتفيّ . ماسات التاج الإمبراطوري تسطع على جبيني . إني أسمع هدير الغوغاء العدائيين عند خروجي إلى الشرفة . الآن أجفف يديّ ، بعنفوان ، لكي لا ترتاب الآنسة التي نسيت اسمها فتظن أنني ألوّح بقبضتي للغوغاء الغاضبين . (أنا إمبراطورتكم ، أيها الناس) . موقفي هو موقف التمرد ، وأنا مقدامة لا أهاب شيئاً ، وأكتسح العقبات .

«لكن هذا حلم رقيق . هذه شجرة ورقية . الآنسة لامبرت تبدد هذا . حتى مشهدها وحده وهي تتوارى في الرواق يحيله هباء . إنه ليس صلداً ؛ إنه لا يهبني الرضا والقناعة -هذا الحلم الإمبراطوري . إنه يتركني ، الآن وقد هوى ، مرتجفةً هنا في الرواق . الأشياء تبدو أكثر شحوباً . سأذهب الآن إلى المكتبة وأتناول كتاباً ، فأقرأ وأنظر ؛ واقرأ مرة أخرى وأنظر . هذه قصيدة عن سياج شجري مزهر . سأجوب خلاله وأقطف الأزهار وغصون الزعرور البري التي بلون ضوء القمر ، والورد البري واللبلاب الملتف . سوف أشبكها كلها بيدي وأضعها على منضدة الكتابة اللامعة . سأجلس بجنب حافة النهر الراعشة وأنظر إلى الزنابق المائية ، العريضة والبراقة ، وهي تضيء شجر البلوط الذي يخيّم متدلياً على السياج المزهر بأشعة قمرية

twitter @baghdad_library

النور تنبعث من ضيائها المائي ذاته . سأقطف الأزهار ؛ سأحزم الأزهار في إضمامة واحدة وأشبكها وأقدمها - يا إلهي! لمن؟ ثمة إعاقة في فيض كياني ؛ إن تياراً عميقاً يضغط على عقبة ما ، فتهتز ، ثمة تمسّك وتجاذب ؛ وعقدة ما في المركز تقاوم . يا إلهي ، هذا هو الألم ، هذا هو العذاب! أنا أتخاذل ، أنا أفشل . الآن جسدي يذوب ، فيرفع عني غطائي المختوم ، إني متوهجة . الآن التيار يتدفق في مدٍ عميق آتياً بالخصب ، فاتحاً كل شيء مسدود ، مزحزحاً كل شيء مستغلقٍ ، فيفيض طليقاً . لمن سأقدم كل هذا الذي يفيض الآن من خلالي ، من جسدي الدافئ ، من مساماتي؟ سأجّمع أزهاري وأقدمها - يا إلهي! لمن؟

«البحارة يتسكّعون ؛ والعشاق يسيرون أزواجاً ؛ حافلات الركاب تقرقع بمحاذاة ساحل البحر في طريقها إلى المدينة . إني سأعطي ؛ إني سأُغْني ؛ إني سأعيد إلى العالم هذا الجمال . سأربط أزهاري في إضمامة واحدة وأتقدم مبسوطة اليدين لأقدمها - يا إلهي! لمن؟» .

قال لوريس «الآن ، في هذا اليوم الأخير من الفصل الدراسي الأخير- اليوم الأخير لنيفيل وبرنارد ولي - تسلمنا ما كان على معلمينا أن يعطونا إياه . لقد تم التمهيد ؛ وقدّم العالم إلينا . يقال إننا نغادر . الدكتور العظيم ، الذي أخصه بالتبجيل وزّع ، وهو يترنح قليلاً من جنبٍ إلى جنب بين المناضد والمجلدات ، مؤلفات هوراس وتنسي والأعمال الكاملة لكيتس وماثيو أرنولد ، وعليها كلمات الإهداء مكتوبةً بما يليق بالمناسبة . إني أحترم اليد التي وهبت الكتب . الدكتور يتكلم باقتناع تام . كلماته هي الحق بالنسبة له وإنْ ليس بالنسبة لنا . وعندما تكلم بصوت العاطفة العميقة الأجش ، وتكلم برقة ، قال لنا إننا على وشك الذهاب . دعانا إلى أن نحرر أنفسنا كالرجال ، (إن ما يستشهد به من الإنجيل أو من جريدة

التايمز ، يبدو على لسانه رائعاً بالتساوي) . بعضنا سيفعل هذا الشيء ؛ بعضنا الآخر سيفعل ذاك . وقسمٌ منا لن يلاقي أحدنا الآخر مرةً أخرى . نيفيل وبرنارد وأنا لن نلتقي هنا مرة أخرى . ستفرقنا الحياة . لكننا عقدنا في ما بيننا روابط معينة . إن أعوام الصبا ، أعوامنا غير المسؤولة ، قد انتهت . لكننا صهرنا لأنفسنا صلات معينة . وأحسن ما ورثنا هو التقاليد . إن هذه البلاطات الحجرية قد أبلاها الاستعمال لمئات ستٍ من الأعوام . وعلى هذه الجدران نقشت أسماء رجال الحرب ورجال السياسة وأسماء بعض الشعراء التعساء (اسمي سيكون بينهم) . ألا فلتكن كل التقاليد ، كل التحصينات ، كل القيود والحدود ، في عناية الله! إني أعتز بفضلكم يا أيها الرجال المتشحون بالأردية السوداء ، وبفضلكم يا أيها الموتى ، لما قدمتوه من إرشاد ؛ مع هذا وبعد كل هذا فالمشكلة باقية . الفوارق لم تحل بعد . الأزهار تهز رؤوسها خارج النافذة . إني أرى طيوراً وحشية ، وثمة انفعالات أكثر وحشية من أوحش الطيور تنبثق من قلبي الوحشي . عيناي وحشيتان ؛ شفتاي مزمومتان . الطير يطير ؛ الزهرة ترقص ؛ لكني أسمع دائماً وقع الأمواج لحبهم ؛ والوحش المغلول يضرب بأقدامه على الشاطئ . يضرب بأقدامه ويدك بها الأرض» .

قال برنارد «هذا هو الاحتفال الأخير . هذا هو آخر احتفالاتنا كلها . إننا لتعترينا مشاعر غريبة . الحارس الممسك بعلمه على وشك أن يصفر صفارته ؛ القطار الذي ينفث بخاراً على وشك الحركة خلال لحظة واحدة . المرء يريد أن يقول شيئاً ، أن يحس بشيء ، شيء ملائم للمناسبة تماماً . عقل المرء قد أعد للتفكير ؛ شفتاي مزمومتان . ثم تطير نحلة وتطن حول الزهور في الباقة التي لا تفتأ تشمها الليدي هامپتون ، زوجة الجنرال ، لتظهر تقديرها للمجاملة التي حضيت بها . ماذا لو وخزت النحلة أنفها؟ إننا جميعاً في حالة انفعال عميق ؛ مع ذلك لا نظهر التبجيل ؛ ولا نحس

twitter @baghdad_library

بالندم ؛ ونتوق إلى أن ننهي هذا الأمر ؛ ولكننا نتردد في الإقبال على الفراق . النحلة تشتت أفكارنا ؛ لكأن طيرانها العارض يسخر من عميق مشاعرنا . إنها تطن طنيناً خافتاً ، وتسلك سبلها في الفضاء الفسيح ، ثم تستقر على القرنفلة . عددٌ منا لن يلتقوا مرة أخرى . إننا لن نستمتع بلذائذ معينة مرة أخرى ، حين نكون أحراراً فنستطيع الخيار بين أن نأوي إلى النوم ، أو أن نبقى مستيقظين ، وحين لا أضطر أنا بعد الآن أن أهرّب أعقاب الشموع وكتب الأدب المكشوف . النحلة الآن تطن حول رأس الدكتور العظيم . لارينت ، جون ، آرجي ، برسيفال ، بيكر وسميث - لقد أحببتهم حباً جماً . لم أعرف من بين الجمع غير صبي واحد مجنون . لم كره غير صبيٍّ واحد لئيم . إني أتمتع ناظراً إلى الماضي بوجبات الإفطار المربكة على مائدة المدير لتناول الخبز المحمّص والمربّى . المدير وحده لا يلحظ النحلة . لو أنها استقرت على أنفه فسيطردها بحركة واحدة رائعة . الآن قد انتهى من إطلاق فكاهته ؛ الآن أوشك صوته أن يتحشرج شيئاً ما . الآن تم صرفنا -لويس ، نيفيل وأنا إلى الأبد . إننا نأخذ كتبنا اللماعة جداً ، وقد أهديت إلينا إهداءً تقليدياً بخطٍ غير مقروء بعض الشيء . إننا ننهض ، إننا نتفرق ، الضغط قد أزيل . النحلة أضحت حشرة تافهة لا تثير الانتباه ، حشرة طارت من خلال النافذة المفتوحة إلى المجهول . غداً نذهب» .

قال نيفيل «إننا على وشك الافتراق . ها هي الحقائب ؛ ها هي المركبات . ها هو برسيفال بقبعته اللباد المدورة . إنه سينساني . يهمل رسائلي ملقاة بين البنادق والكلاب بلا جواب . سأبعث له بقصائد ولعله سيجيب ببطاقة بريدية مصورة . وأنا إنما أحبه لهذا السبب . سأقترح عليه أن نلتقي -تحت برج الساعة ، أو بقرب نصب الصليب ؛ وسأنتظر ، أما هو فلن يأتي . وأنا إنما أحبه لهذا السبب . إنه سيتوارى من حياتي ، ناسياً كل

شيء ، يكاد يجهل كل شيء . أما أنا فسأدخل في حياة أناس آخرين ، مع أن هذا أمراً غير قابل للتصديق ؛ الحياة هنا ما هي إلا مغامرة صبيانية فراراً من السيطرة ، إنها مجرد استهلال لا غير . إني أشعر أصلاً ، وإن كنت لا أستطيع تحمّل مظاهر الرياء المبهرجة والعواطف الزائفة التي يبديها الدكتور ، بأن أشياءً لم نكن ندركها إلا على نحوٍ معتم قد باتت قريبة الوقوع . سأكون حراً في دخول الحديقة حيث يرفع فينويك مضربه . إن أولئك الذين احتقروني سيعترفون بسيادتي . ولكن قانوناً ما مبهماً يحكم كينونتي ويقضي بأن السيادة وحيازة السلطان لن تكونا كافيتين ؛ أنا سأظل أقتحم الحجب وصولاً إلى خلوة النفس وأظل أبغي كلمات أهمسها لوحدتي . لذلك سأذهب ، مرتاباً ، لكنْ متجلياً ؛ متطيراً من ألم لا يطاق ؛ مع ذلك لا اشك بأني في مغامرتي منتصر بعد شقاء عظيمٍ ، ولا شك بأني بالتأكيد مكتشف مطمحي في نهاية المطاف . إني أرى هناك ، وللمرة الأخيرة ، تمثال مؤسس مدرستنا الورع والحمام حول رأسه . إنها ستدور إلى الأبد حول رأسه ، تبيّضه ، في حين ينوح الأرغون في الكنيسة الصغيرة . لذا أجلس ؛ وحين أجد مكاني في زاوية المقصورة المحجوزة لنا ، فسأظلل عيني بكتاب لأخفي دمعتي ؛ أظلل عيني لكي أراقب ؛ لكي أسترق النظر إلى وجهٍ واحد . اليوم هو اليوم الاول من عطلة الصيف» .

قالت سوزان «اليوم هو اليوم الأول من عطلة الصيف . لكن اليوم لم يزل مغلّفاً . لن أُمَحِصَّه حتى أخرج إلى رصيف المحطة مساء . لن أتيح لنفسي شمّه حتى أشم الهواء الأخضر البارد من الحقول . لكن هذه الحقول ليست هي حقول المدرسة ؛ هذا ليس هو سياج المدرسة المزهر ؛ الرجال في هذه الحقول يعملون أشياء حقيقية ؛ إنهم يملأون العربات بالتبن الحقيقي ؛ وهذه بقرات حقيقية ، وليست بقرات المدرسة . لكن رائحة

twitter @baghdad_library

المعقمات في الممرات ورائحة الطباشير في الصفوف لم تزل في منخريّ . لم يزل منظر ألواح الخشب المعشّقة ، المزججة ، اللامعة ، في عينيّ . يجب أن أنتظر لكي أرى الحقول والأسيجة المزهرة ، والغابات والحقول ، وتقاطع سكك الحديد المنحدرة وقد تناثرت بينها شجيرات الوزّال ، أرى المركبات على السكك الفرعية ، والأنفاق وحدائق الضواحي والنساء فيها ينشرن الغسيل ، ثم الحقول مرة أخرى والأطفال يتأرجحون على بوابات المنازل ، وذلك لكي أخفي المدرسة عن ناظري ، لكي أدفنها عميقاً ، هذه المدرسة التي كرهت .

«أنا لن أرسل أطفالي إلى مدرسة ولن أقضي ليلة واحدة طوال حياتي في لندن . هنا في هذا الربع الشاسع كل شيء يُرجع الصدى على نحوٍ مكتوم ويهدر مخنوقاً . الضياء أصفر ، كالضياء الأصفر تحت مظلة . جيني تعيش هنا . جيني تأخذ كلبها لتمشي به على الرصيف . الناس هنا يمرقون في الشوارع صامتين . إنهم لا ينظرون إلى شيء سوى إلى نوافذ المخازن . رؤوسهم جميعاً تهتز على ارتفاع واحد . الشوارع نُسجت ببعضها بأسلاك البرق . البيوت كلها زجاج ، كلها مبهرجة ومزينة بالأزهار ؛ كلها أبواب خارجية وستائر حريرية ، كلها أعمدة وعتبات بيضاء . لكني الآن أمرّ ، خارجةً من لندن مرةً أخرى ؛ والبيوت ، والنسوة ينشرن الغسيل ، والأشجار والحقول . لندن الآن مبرقعة ، فمتوارية ، فمتهاوية ، فمندثرة . محلول التعقيم وأشجار الصنوبر المشذب بدأت تفقد نكهتها . أنا أشم الذرة واللفت ، وأفتح رزمة ورقية مربوطة بقطعة من قماش قطني أبيض . قشور البيض تنزلق في حجري ، في الفجوة المقعرة بين ركبتيّ . الآن نتوقف في محة تلو محطة ، ونمر سريعاً بعربات الحليب . الآن النسوة تقبل إحداهنّ الأخرى ويتعاونّ على حمل السلال . الآن سأتيح لنفسي أن أنحني من النافذة . الهواء يدفق في أنفي وحنجرتي – الهواء البارد ، الهواء المالح يفوح

برائحة مزارع اللفت . وها هو أبي ، وقد أدار ظهره ، يتكلم مع أحد المزارعين . إني أرتعش . إني أبكي . ها هو أبي بواقية الحذاء . ها هو أبي» .

قالت جيني «إني أجلس في زاويتي ملمومة ، وأذهب شمالاً في هذا القطار السريع الذي ينساب رغم هديره انسياباً تتسطح به أسيجة المتسلقات المزهرة ، وتستطيل الهضاب . إننا نمرق مروراً بأكشاك الإشارة ؛ ونجعل الأرض تهتز قليلاً من جانب إلى جانب . المسافة تلتقي أبداً في نقطة واحدة ؛ ونحن أبداً نشق المسافة شقاً واسعاً مرة أخرى . أعمدة البرق تتقافز دون انقطاع ؛ عمود يهوي ، وعمود يقوم . الآن نحن نهدر وندلف في نفق . السيد المهذب يسحب النافذة إلى أعلى فيغلقها . إني أرى انعكاسات على الزجاج اللامع الذي يخطط النفق . ثم أرى السيد المهذب يخفض جريدته . إنه يبتسم لصورتي المنعكسة على الزجاج في النفق . وعلى الفور يتخذ جسدي عفوياً مظهراً متصنعاً تحت نظرته الثاقبة . جسدي يحيا حياة خاصة به . والآن زجاج النافذة الأسود هو زجاج أخضر مرة أخرى . إننا خارج النفق . إنه يقرأ جريدته . لكننا تبادلنا استحسان الجسدين . ثمة في ما بعد مجتمع عظيم من الأجساد ، وجسدي يقدّم فيه ؛ جسدي جاء إلى الغرفة حيث المقاعد المذهبة . انظروا – إن نوافذ القصور بستائرها البيض المنصوبة فيها كالخيام تتراقص جميعها ؛ والرجال الجالسون بين الأسيجة المزهرة في حقول القمح بمناديلهم المعقودة الزرق يعون هم أيضاً ، كما أعي أنا ,الحرارة والنشوة . أحدهم يلوّح إذ نمر به . ثمة أعراش في حدائق هذه القصور والفتيات على السلالم بالقمصان يشذبون أشجار الورد . رجل على جواد يخب في الحقل . جواده يتقحّم عند مرورنا . والفارس يلتفت لينظر إلينا . وهدرنا مرة أخرى خلال الظلام . أنا أستلقي إلى الخلف ؛ أستسلم للنشوة ؛ وأحسب أنني أدخل عند نهاية النفق إلى غرفة ينيرها سراج فيها مقاعد ، فألقي بنفسي على مقعد منها

twitter @baghdad_library

فأثير الإعجاب ، وثوبي يهفهف من حولي . لكني أنظر ، وقد رفعت بصري ، فألاقي عينيّ امرأة حانقة تتهمني بالنشوة . جسدي ينغلق في وجهها بوقاحة كما تنغلق المظلة . أنا أفتح جسدي وأغلقه بإرادتي . الحياة قد بدأت . أنا الآن أغرف من ذخائر حياتي» .

قالت رودا «اليوم هو اليوم الأول من عطلة الصيف . والآن ، إذ يمرّ القطار بهذه الصخور الحمر ، بالبحر الأزرق ، فإن الفصل الدراسي ، وقد انتهينا منه ، يتخذ شكلاً واحداً ورائي . إني أرى لونه . حزيران كان أبيض اللون . أرى الحقول بيضاً بزهور الديزي ، بيضاً بالفساتين ؛ وساحات التنس مخططة بالأبيض . ثم كانت ريح ورعد قاصف . كانت هناك نجمة تجري خلال السحب في ليلة من الليالي ، وإني قلت للنجمة (أذيبيني بك) . كان ذلك في منتصف الصيف ، بعد حفلة الحديقة والخزي الذي أصابني في حفلة الحديقة . الريح والعاصفة لونّتا تموز . كذلك ، ففي الوسط ، تقع المخاضة الرمادية عفنة ، فظيعة ، في الفناء ، حينما حملت رسالة وأنا أمسك مغلفاً بيدي . جئت على المخاضة . لم أستطع عبورها . الهوية خذلتني . قلت إنني لا شيء ، وسقطت . أطارتني الريح كريشة ، وحملتني إلى داخل أنفاق . عندئذ دفعت بقدمي بحذر عبرها . وضعت يدي على جدار من آجر . رجعت يعتريني الألم ، وأنا أسحب نفسي إلى داخل جسدي فوق مكان المخاضة الرمادي العفن . هذه إذن هي الحياة التي لا محيد عنها .

«وهكذا أعزل فصل الصيف الدراسي . الحياة بصدماتها المتقطعة ، وبفجاءاتها الشبيهة بقفزات نمر ، تنبعث وهي تجيش بعبابها القاتم من البحر . ونحن إنما بهذا نتعلق ؛ بهذا نلتصق ، كأجساد تلتصق بخيول وحشية . مع هذا فقد أوجدنا وسائل لملء الصدوع وتمويه هذه الشقوق . ها هو جامع التذاكر . ثمة رجلان ؛ وثلاث نساء ؛ وقطة في سلة ؛ وأنا أضع

ساعدي على رفرف النافذة - هذا هو الهنا والآن ، إننا نمضي ، نجري ، خلال حقول القمح الذهبي نسمعها هامسة . النساء في الحقول مندهشات إذ تركن هناك يحرثن الأرض . القطار الآن يدك دكاً قوياً ، وينفث أنفاسه كالشخير ، إذ يتسلق إلى أعلى فأعلى . أخيراً صرنا فوق أرض السبخ . هنا لا تعيش سوى بضع خراف برية ؛ بضع مهرات هزيلة ؛ مع هذا فإننا مزودون بكل وسائل الراحة ؛ بمناضد تسند جرائدنا ، بحلقات تمسك أقداحنا . إننا نأتي حاملين هذه الأدوات معنا إلى أعلى السبخ . الآن نحن على القمة . الصمت سيطبق من ورائنا . لو نظرتُ من فوق ذلك الرأس الأصلع لرأيتُ الصمت يطبق أصلاً وظلال السحب تتلاحق فوق السبخ الخالي ؛ الصمت يطبق فوق مرورنا العابر . أنا أقول هذه هي اللحظة الحاضرة ؛ هذا هو اليوم الأول من عطلة الصيف . هذا هو جزء من الوحش الظاهر الذي به نرتبط» .

قال لويس «الآن انتهينا . الآن أنا أتدلّى معلقاً بلا روابط . نحن في لا مكان . إننا نعبر انكلترا بقطار . انكلترا تنزلق أمام النافذة ، تتغيّر دائماً من هضبة إلى غابة ، من أنهار إلى صفصاف إلى مدن مرة أخرى . وأنا ليس لي مكان ثابت أذهب إليه . برنارد ونيفيل ، برسيفال ، آرجي ، لارپنت وبيكر يذهبون إلى أوكسفورد أو كيمبردج ، إلى أدنبرة ، روما ، باريس ، برلين ، أو إلى إحدى الجامعات الأمريكية . أنا أذهب لا أدري إلى أين إلا على نحو غامض ، لأربح مالاً على نحو غامض . لذلك فإن ظلاً قارصاً مثيراً ، طابعاً تائقاً ، يسقط على هذه الزغائب الذهبية ، على هذه الحقول الحمر المكتسية بزهور الخشخاش ، على هذا القمح الغامر الذي لا يفيض أبداً إلى خارج حدوده ؛ لكنه يترامى مترجرجاً حتى الحافة . هذا هو اليوم الأول من أيام حياة جديدة ، وتد آخر في العجلة الصاعدة . لكن جسدي

twitter @baghdad_library

يمر شارداً كظل لطير . أنا سأكون كظل عابر على المرج ، يتلاشى ، وسرعان ما يدلهم ويموت هناك في الغاب ، لولاً أني أقسر ذهني لكي يتشكل في جبيني ؛ إني أُكره نفسي على تقرير هذه اللحظة ولو بمجرد بيت واحد من شعر غير مكتوب ؛ على تأشير هذه البوصة من التاريخ الطويل ، الطويل الذي ابتدأ في مصر ، أيام الفراعنة ، حين حملت النساء أباريق حمر إلى النيل . أنا أبدو أصلاً كأني قد عشت آلافاً عديدة من السنين . لكن إذا أغمضت الآن عينيّ ، إذا خبت في إدراك مكان الالتقاء بين الماضي والحاضر ، غافلاً عن أني أجلس في مركبة قطار من الدرجة الثالثة مليئة بصبيان يعودون لقضاء إجازاتهم ، فإن التاريخ الإنساني تُسلب منه نصباً واحتيالاً رؤيا لحظة من اللحظات . إن عين الرؤيا ، التي سترى من خلالي ، تغمض -إذا نمتُ الآن ، كسلاً ، أو جبناً ، وأنا أدفن نفسي في الماضي ، في الظلام ؛ أو -إذا أذعنتُ ، كما يذعن برنارد ، وهو يحكي حكايات ؛ أو إذا تبججت ، كما يتبجح برسيفال وآرجي وجون وولتر ولاثوم ولارينت وروبر وسميث - الأسماء هي هي دائماً ، أسماء الصبيان المبجحين . إنهم جميعهم يتبجحون ، جميعهم يتكلمون ، إلا نيفيل ، الذي يرسل نظرة واحدة في بعض الأحيان إلى هامش رواية فرنسية ، وهكذا سينسلّ دائماً إلى غرف ذات طنافس ، مضاءة بنيران الموقد ، فيها كتب عديدة وصديق واحد ، بينا أكدح أنا على مقعدٍ في مكتب خلف العارضة . ثم سأغدو حاقداً فأسخر منهم . إني سأحسدهم على استمراريتهم عبر الطرق التقليدية الآمنة تحت فيء أشجار الطقسوس المعمرّة في حين أعاشر أنا المدققين والكتبة ، وأذرع رصيف المدينة حيث مكاتب الأعمال .

«أما الآن وقد خُلعت عني حالة التجسّد ، وأنا أمر على حقول مترامية (ثمة نهر ؛ رجل يصيد السمك ؛ ثمة برج ، وشارع القرية والنزل ذو النوافذ المدورة) فإن كل شيء بالنسبة لي معتم وأشبه بالحلم . إن هذه الأفكار

القاسية ، هذا الحسد ، هذا الحقد المرير ، لا تستقر ثاويةً فيّ . أنا شبح لويس ، عابر سبيل سريع الزوال ، الأحلام في رأسه ذات قوة ، وذات أصوات تنبعث من الحدائق حينما تعوم في الصباح الباكر تويجات الأزهار على أعماق لا يسبر لها غور وتغني الطيور . إني أهرع وأرش نفسي بماء الطفولة البراق . إن غلالتها الرقيقة ترتعش . لكن الوحش يدكّ بأقدامه الأرض دكاً ، على الساحل» .

قال برنارد «لويس ونيفيل كلاهما يجلس صامتاً . كلاهما مستغرق . كلاهما ينظر إلى وجود الآخرين كأنه جدار فاصل . لكنني أنا ما أن أكون في صحبة الآخرين حتى تنطلق مني الكلمات فوراً بذبذبات مرئية - ألا ترى كيف تبدأ العبارات فوراً بالانضفار فويق شفتيّ . لكأن عوداً من ثقاب قد أشعل ناراً ؛ ثمة شيء يشتعل . إن مسافراً كهلاً عليه مظاهر النعمة يدخل الآن . وأرغب فوراً بالتحدث إليه ؛ وأمتعض بالغريزة من الإحساس بوجوده البارد ، غير الاندماجي . أنا لا أؤمن بالانفصال . إننا لسنا فرادى . كذلك فإني أرغب بأن أضيف إلى مجموعتي من الملاحظات القيمة عن الطبيعة الحقة للحياة الإنسانية . كتابي سيبلغ بلا ريب عدة مجلدات ، مشتملاً على الأنواع المعروفة كلها من الرجال والنساء . إني أملأ رأسي بما أراه سواءً كان محتويات غرفة أو مركبة قطار كما يملأ المرء قلماً من محبرة . إن فيّ عطشاً مستمراً لا يُبلُّ غليله . والآن أحس من ظهور علامات دقيقة لا أستطيع بعد تفسيرها وسأفعل في ما بعد ، بأن تمنّع هذا الرجل على وشك الزوال . إن عزلته تُظهر علائم التصدع . لقد ذكر بشكل عابر ملاحظة عن بيتٍ في الريف . تعالت حلقة من الذبذبات المرئية من شفتيّ (حول الحاصلات الزراعية) فأحاقت به ، وجعلته ينفتح للاتصال المتبادل . الصوت الإنساني ذو صفة أخاذة - (إننا لسنا فرادى ، إننا كلٌّ واحد) . وإذ تبادلنا هذه الملاحظات القليلة ، الودية حول البيوت الريفية ،

twitter @baghdad_library

فقد أنعشتُ حيويته وجعلته رجلاً حقيقياً . إنه سخي كزوج ولكنه يخون زوجته ، مهنته متعهد بناء ويستخدم فيها بضعة عمال . وهو شخص مهم في المجتمع المحلي ؛ وعضو في المجلس البلدي ، وقد يغدو مع الوقت رئيساً للبلدية . إنه يحمل حلية ضخمة ، كأنها سنٌّ متراكب خاست جذوره ، حلية مصنوعة من مرجان ، تتدلى من سلسلة ساعته . اسم وولتر جي . ترامبل Welter J. Trumble هو نمط الاسم الذي يليق به . لقد زار أمريكا في رحلة عمل مع زوجته وقد كلفته غرفة ذات سريرين في فندق صغير أجور شهر بأسره . أسنانه الأمامية مثبتة بجسر ذهبي .

«الحقيقة أنني لا أنزع إلى التأمل . إتي أتطلب الأمر الملموس ، الصلد ، في كل شيء ؛ ولا أتقرّى العالم إلا على هذا النحو . بيد أن العبارة الجيدة تبدو لي كأنها ذات وجود مستقل . مع هذا أرى أن أحسن التعابير إنما تتكون في العزلة . إنها تتطلب شيئاً من الخزن في التبريد ، الأمر الذي لا أستطيع توفيره ، إذ أنني أخوض على الدوام في كلمات دافئة قابلة للذوبان . مع ذلك فإن طريقتي تفضل طريقتهما بمزايا معينة . نيفيل يشمئز من فظاظة ترامبل . لويس ، وهو يرمق بعينيه ، ويتعثر في المشي كلقلق زريّ ذي ساقين طويلتين ، يلتقط الكلمات كما لو بلاقطة الحشرات السكرية . صحيح إن عينيه -وهما وحشيتان ، ضاحكتان ، ولكنهما مستميتتان- تعبران عن شيء لم نسبر نحن غوره . إن في نيفيل ولويس كلاهما دقةً وضبطاً ، مما أعجب به ولن أحوزه قط . والآن بدأت أعي أن الفعل مطلوب . إننا نتقرب من تقاطع طرق ؛ عليّ عند هذا التقاطع أن أغير قطاري . عليّ أن أستقل قطاراً إلى أدنبرة . أنا عاجز عن إدراك هذه الحقيقة - إنها تثوي خافيةً بين أفكاري كزر من أزرار الثياب ، كقطعة صغيرة من النقود . ها هو جامع التذاكر يأتي . كان عندي تذكرة ، بالتأكيد . لكن الأمر لا يهم . إما أن أجدها وإما ألا أجدها . فتشت

محفظتي . بحثت في جيوبي كلها . هذه هي الأمور التي تعترض دائماً ما انشغل به في مجرى البحث عن عبارة مثالية تلائم هذه اللحظة ذاتها بالضبط» .

قال نيفيل «ذهب برنارد من دون تذكرة سفر . لقد تجنبنا ، وهو يطلق عبارة من عباراته ، ملوّحاً بيده . إنه يستطيع أن يتحدث مع مربي الخيل أو مع عامل أنابيب المياه باليسر نفسه الذي يتحدث به معنا . عامل الأنابيب تقبله بإخلاص . كان العامل يفكر أن لو كان عنده ابن مثله لأمكنه أن يرسله إلى أوكسفورد . لكن ، ما الذي يشعر به برنارد تجاه عامل الأنابيب؟ ألا يرغب فقط بالاستمرار في تسلسل الحكاية التي لا يتوقف قط عن حكايتها لنفسه؟ لقد بدأها حين كوّر خبزه إلى كريوات كما كان يفعل وهو طفل . كريوة تمثل رجلاً ، وكريوة تمثل امرأة . كلنا كريوات . كلنا عبارات في حكاية برنارد ، أشياء يدونها في دفتره تحت (أ) أو (ب) . إنه يحكي حكايتنا بتفهم فائق ، في ما عدا ما يشعر به أغلبنا . ذلك أنه لا يحتاجنا . إنه ليس تحت رحمتنا قط . ها هو ، يلوّح بذراعيه على رصيف المحطة . مضى القطار من دونه . وفاته قطاره الآخر الموصل إلى وجهته . لقد فقد تذكرته . لكنّ ذلك لا يهم . إنه سيحدّث نادلة المشرب عن طبيعة المصير الإنساني . فذهبنا ، وقد نسينا هو أصلاً ؛ توارينا عن نظره ؛ نحن نمضي ، ممتلئين بما تخلف فينا من انفعالات يمتزج بها الحلو بالمر ، ذلك أن برنارد مدعاة للإشفاق على نحوٍ ما ، إذ فقد بطاقته وهو يتصدى للعالم وعلى لسانه عبارات لم تكتمل ؛ ولأنه كذلك فهو مدعاة للمحبة .

«أنا الآن أتصنع القراءة مرة أخرى . أرفع كتابي فيكاد يغطي عينيّ . لكني لا أستطيع القراءة بحضور مربي الخيل وعمال أنابيب الماء . أنا لا أملك القوة على تملق نفسي لكسب رضاها . أنا لا أعجب بذلك الرجل ؛ وهو لا يعجب بي . فلأكن على الأقل صادقاً . فلأشجب هذا العالم

twitter @baghdad_library

العابث ، التافه ، الراضي عن نفسه ؛ هذه المقاعد المحشوة بالوبر ؛ هذه الصور الملونة لأرصفة الموانئ ولاستعراضات الذكرى . بوسعي أن أصرخ بوجه الرضا الذاتي المتأنق ، بوجه الابتذال لهذا العالم الذي يلد تجار الخيول بالحليّ المرجانية تتدلى من سلاسل ساعاتهم . إن فيّ ذلك الشيء الذي سيأتي عليهم كلياً . ضحكتي ستنغص حياتهم ؛ ستسوقهم أمامي وهم يزعقون . كلا ؛ فهم خالدون . إنهم ينتصرون . وسيجعلون من المتعذر عليّ دائماً أن أقرأ قطلوس في عربة قطار من الدرجة الثالثة . سيضطروونني في تشرين الأول أن آوي إلى إحدى الجامعات فأصير أستاذاً ؛ وأذهب مع مدراء المدارس إلى اليونان ؛ وأحاضر عن خرائب البارثنون . إنه لمن الأفضل تربية الخيل والعيش في تلك القصور الحمراء من الجري دخولاً وخروجاً في جماجم القدامى مثل سوفوكل ويوربيديس كاليرقة ، مع زوجة متعجرفة من أولئك ا لجامعيات . بيد أن هذا هو الذي سيكون قدري . ولسوف أشقى . إني ، وفي الثامنة عشرة لقادر أصلاً على احتقار يجعل مربي الخيول يكرهونني . هذا هو انتصاري ؛ أنا لا أقبل بالحلول الوسط . ولست خجولاً ؛ ولا أرطن بلكنة أجنبية . أنا لا أتوجس خيفة مما يظنه بأبي الصيرفي في برسبين كما يتوجس لويس .

«الآن نقترب من مركز العالم المتمدين . ها هي عدادات الغاز المألوفة . ها هي الحدائق العامة تمتد فيها ممرات متقاطعة معبدة بالقير . ها هم العشاق على العشب الوّهاج فماً لفم بلا حياء . برسيفال يكاد يصل إلى اسكتلندة الآن ؛ قطارة يجري خلال أرض السبخ الحمراء ؛ إنه يرى الروابي الحدودية الممتدة طويلاً ، ويرى الجدار الروماني ، إنه يقرأ رواية بوليسية ، ومع هذا يفهم كل شيء .

«القطار يبطئ فيستطيل ، إذ نتقرب من لندن ، من المركز ، وقلبي ينطلق أيضاً ، خوفاً ، وتجلياً . إني أوشك أن ألاقي – ماذا؟ أية مغامرة فائقة

تنتظرني ، بين شاحنات البريد هذه ، والحمالين هؤلاء ، بين هذه الزرافات من أناس ينادون على سيارات الأجرة؟ إني أشعر بالتفاهة ، والضياع ، ولكني أشعر بالتجلي أيضاً . ثم توقفنا بهزة رقيقة . سأدع الآخرين يخرجون قبلي . سأجلس ساكناً لحظة واحدة قبل أن أخرج إلى هذه الفوضى ، إلى هذا الصخب . لن أنتظر ما سيأتي . الهدير الجبار في أذنيّ . إنه يرن ويطن تحت هذا السقف الزجاجي الموّار كالبحر . إننا نقف مكتئبين على رصيف المحطة مع حقائبنا اليدوية . نهوِّم حد التمزق . إحساسي بنفسي يكاد يتلاشى ؛ كذلك احتقاري . لقد غدوت مقزّماً ، مطَّرحاً ، مرمياً في الفضاء . إني أخطو نحو الرصيف ، ممسكاً بقوة كل ما أمتلكه – حقيبةً واحدة» .

twitter @baghdad_library

تعالت الشمس .سقطت حُزمٌ صفر وخضر على الساحل ، لتزخرف ضلوع الزورق المنخوب وتجعل نباتات البحر وبأوراقها المنسوجة زرداً تسطع زرقاء كالحديد . يكاد الضياء يثقب الأمواج السريعة الرقيقة وهي تجري كالمراوح على الساحل . الفتاة التي هزت رأسها فأرقصت الجواهر كلها ، العقيق والزبجرد والأحجار الكريمة بألوانها المائية وما فيها من شرار النار ، كشفت عن جبينها الآن فشقت مفتّحة العين درباً مستقيماً فوق الأمواج . تلألؤ الأمواج الراعش السمكي اللون يغدو قاتماً ؛ الأمواج تتكتل ؛ تجاويفها الخضر تغدو عميقة وقاتمة وربما تقتحمها قطعان ومن الأسماك الهائمة . وما أن يرتطم الموج منكسراً ويرتد إلى الخلف حتى يترك حاشية سوداء من الأحطاب والفلين على الساحل ، وكذلك من القش والعيدان ، كما لو أن مركباً قد غرق ممتلئاً بالماء وتناثرت جوانبه فسبح البحار إلى البر وصعد وثباً المرتفع الصخري السامق تاركاً الحمولة الهشة تنجرف إلى الشاطئ .

الطيور التي في الجنينة التي كانت قد غنّت بنزق شَرود ، وبهياج متشنج عند الفجر على تلك الشجرة ، على تلك الأكمة ، تغني الآن معاً في جوقة ، بأصوات صارخة وحادة ؛ مرةً بالاشتراك كأنها تعي الصحبة ، ومرة على انفراد كما الغناء للسماء الشاحبة الزرقاء . الطيور تهبّ جميعها بطيرةٍ واحدة ، حين تدبّ القطة السوداء بين الأكمات ،

حين ترمي الطاهية تراب الفحم على كومة الرماد فتجفّلها . في تغريدها خوفٌ ، وتخوّف من الألم ، وجذلٌ ينتهز الآن انتهازاً سريعاً في هذه الهنيهة بالذات . كذلك فإنها تغرّد مضاهاةً في هواء الصباح الصافي ، تمرق عالياً فوق شجرة الصفصاف ، وهي تصدح معاً في الطراد , كراً وفراً ، تنقر بعضها بعضاً إذ تدور عالياً في الفضاء . ثم ما أن يتبعها الكر والفر والطيران حتى تهبط بروعة ، تنحدر برهافة ، وتحط صامتة على الشجرة ، على الجدار ، بعيونها البراقة ترنو ، ورؤوسها تتلفت هنا وهناك ؛ طيور واعية ، غير غافية ، ولا يشغلها سوى شيء واحد بالذات .

لعل الشيء هو قوقعة حلزون ، تتصاعد في العشب كأنها كاتدرائية قاتمة ، كأنها بناء ينتفخ محرّقاً بحلقات داكنة ومظللاً بخضرة تلقيها عليه الحشائش . أو لعل الطيور رأت بهاء الأزهار يُضيء بنورٍ من الأرجوان الفياض على ألواح الورد ، وقد دُسّت خلالها أنفاق قاتمةً من فيء بنفسجي بين السيقان . أو لعلها ثبّتت نظراتها الحادة على أ وراق التفاح الصغيرة البرّاقة ، تتراقص وإن محتبسة ، تلتمع بتصلب بين البراعم الوردية الرؤوس . أو أنها رأت قطرة المطر على السياجات المزهرة ، متدليةً لا تسقط ، فيرتسم بيتٌ بأكمله محدَّباً فيها ، ويرتسم الصفصاف باسقاً ؛ وإلا فإن عيون الطيور ، وهي تحدق بالشمس ، قد أضحت خرزاً من ذهب .

الآن وهي ترنو إلى هذا الجانب ، إلى ذاك ، فقد نظرت نظرات أعمق ، تحت الأزهار ، خلال القنوات المعتمة ، نحو العالم غير المضاء حيث تتعفن الورقة في مكان سقوط الزهرة . ثم إذا بطير يمرق مروقاً جميلاً ، ويحط بدقة ، فيطعن البدن الرخو ، الشائه ، للدودة التي لا حول لها ولا طول ، وينقرها مرةً فأخرى ، ويتركها لتتقرّح . هنالك بين

twitter @baghdad_library

الجذور حيث تتفسخ الزهور ، تنبعث هبات من روائح وخِمة ؛ ثمة قطرات تتألف على جوانب الأشياء المشبعة بالامتصاص . قشر الفاكهة الخائس يتشقق ، والمادة تنضح بكثافة لا تسمح بالجريان . إفرازات صفر تتبرّزها يرقات ، وبين حين و حين هناك جسم غير متخلّق ذو رأس في كلا طرفيه يترنح من جانبٍ إلى جانب ببطء . الطيور الذهبية العيون وهي تمرق بين الأوراق تلحظ ذلك الصديد ، ذلك البلل ، بفضول لعوب . بين حين وآخر تغرز رؤوس مناقيرها بوحشية في المزيج اللزج .

الآن ، كذلك ، زحفت الشمس الصاعدة إلى النافذة لتلمس الحاشية الحمراء من الستارة ، وبدأت تُبرز دوائر وخطوطاً . الآن يتزايد ضياء الشمس فيستقر بياضها في الزجاج ؛ حزمة الشعاع تكثّف سطوعها . الكراسي والخزانات تلوح في الخلف ضخمةً ، حتى أن كل قطعة منها ، وإن كانت منفصلة عن الأخرى ، تبدو متصلة بشكل لا فكاك منه . المرآة تزيد من ابيضاض بركتها على الجدار . الزهرة الحقيقية على رفرف النافذة يصحبها طيف زهرة . مع هذا فالطيف جزءٌ من الزهرة ، لأنه حين تفتّح برعمٌ فإن الزهرة الأشحب لوناً في الزجاج فتحت برعماً كذلك .

الريح تتصاعد . الأمواج تقرع على الساحل ، أشبه بمحاربين معممين ، أشبه برجال معممين ذوي رماح مثقفة مسمومة ، وما أن يلوّحوا بأذرعهم عالياً حتى يهجموا على قطّعان القوت ، على النعاج البيض .

قال برنارد «هنا في الكلية أضحت تعقيدات الأمور لصيقة بنا ، حيث حركة الحياة وضغطها على أقصاهما ، وحيث يغدو الانفعال الناشئ عن محض العيش شيئاً عاجلاً بصورة متزايدة يومياً . في كل ساعة يُنبش شيء جديد في كعكة النخالة العظيمة . إني أسال : من أنا؟ هذا؟ كلا ، أنا ذاك . خاصةً الآن حين تركت غرفة من الغرف ، والناس يتحدثون ، والبلاط الحجري يرن بوقع أقدامي الانفرادية ، وأنا أشهد القمر يبزغ ، متعالياً ، بعدم اكتراث ، فوق الكنيسة العتيقة -عندئذٍ يصبح واضحاً أنني لست واحداً فقط بل متعدداً معقد التركيب . برنارد يثرثر في العلن ؛ ويتكتم في السر . هذا ما لا يفهمونه ، ذلك أنهم الآن يغتابونني بلا ريب ، قائلين إنني أتحاشاهم ، إنني مراوغ . لا يفهمون أن عليَّ أن أحقق انتقالات مختلفة ؛ عليّ أن أخفي التقلبات المتعددة للأشخاص الذين يقومون بأدوارهم بالتناوب بصفتهم برنارد . أنا أعي الظروف وعياً غير طبيعي . لا أستطيع قط أن أقرأ كتاباً في عربة قطرا من دون أن أسأل : هل هذا الرجل متعهد بناء؟ هل هذه المرأة تعيسة؟ أدركت اليوم إدراكاً حاداً أن سايمز Simes المسكين ، بشامته ، كان يشعر ، بمنتهى المرارة ، أن فرصته لخلق انطباع حسن في نفس بيلي جاكسون Billy Jackson هي فرصة بعيدة المنال . وإذ شعرت بذلك شعوراً أليماً فقد دعوته للعشاء بحماسة بالغة . إنه سيعزو هذا إلى إعجاب هو ليس من دأبي . هذا صحيح . (ولكنّ

twitter @baghdad_library

برنارد) (أنا هنا أقتبس من كاتب سيرتي) (باشتراكه في الحساسية التي تتمتع بها المرأة إنما يمتلك رصانة الرجل المنطقية) ، أجل ، فالذين يخلقون انطباعاً واحداً منفرداً ، وهو في الأغلب انطباع جيد ، (إذ يبدو أن ثمة فضيلة في البساطة) ، هم أولئك الذين يحفظون توازنهم في منتصف التيار . (إني أرى على الفور الأسماك بخياشيمها تجري إلى الأمام ، والتيار ينشق إلى الخلف منها) . كانن Canon ، لايسيت Lycett ، بيترز Peters ، هوكنز Hawkins ، لاربينت . نيفيل - كلهم أسماك في منتصف التيار . لكنك أنت تفهم ، أنت ، أنا نفسي ، الذي يلبي دائماً النداء (إنها لتجربة تورث العذاب أن ينادي المرء فلا يلبي نداءه أحد ؛ هذا سيجعل منتصف الليل خاوياً ، يفسر ملامح الشيوخ في النوادي - لقد تخلو عن مناداة نفس لا تلبي النداء) ، أنت تفهم أن ما أقوله الليلة لا يمثلني إلا تمثيلاً سطحياً . أما تحت السطح ، وفي اللحظة التي أبلغ فيها وضعاً من الاختلاف الشنيع ، فأنا أكون كذلك متكاملاً . أنا أتعاطف تعاطفاً شديداً يبينُ عليّ ؛ كذلك أجلس ، كضفدعة الطين في حفرة ، أتلقى ببرود تام ما يحدث لي كائناً ما يكون . إن قليلاً جداً منكم ، يا من يغتابونني الآن ، لديكم الطاقة المزدوجة على الشعور وعلى التفكير . فهذا لايسيت يؤمن بالركض وراء الأرانب ؛ وهوكنز أمضى فترة العصر يطالع في المكتبة . بيترز لديه فتاته الشابة في مكتبة توزيع الكتب . كلكم منشغل ، مهتم ، مستدرج ، أثيرت فيه الحيوية كلياً من أخمص القدم حتى قمة الرأس - كلكم خلا نيفيل ، فعقله أعقد جداً من أن تثيره أية فعالية واحدة . إني أنا كذلك معقد جداً . في حالتي يظل شيء ما طافياً ، لا يعلق بشيء .

«والآن وكدليل على انفتاحي لتقبل الجو المحيط بي ، فإني ما أن أدخل غرفتي هاهنا ، وأضيء النور ، وارى صفحة الورق ، والمنضدة ، وجلبابي متروكاً بإهمال على ظهر المقعد ، حتى أشعر أنني رجل مقدام

ولكن متفكر ، شخص جسور وفتّاك ، إنسان ما أن يخلع معطفه بخفة حتى يأخذ قلمه ويخط في الحال رسالة إلى فتاته التي شغفت قلبه حباً .

«أجل ، إن كل شيء مؤات . إني الآن في مزاج رائق . بوسعي أن أكتب الرسالة فوراً ، وهي التي كنت قد بدأتها مراراً وتكراراً . لقد وصلت غرفتي للتو . خلعت قبعتي ورميت عصاي جانباً ؛ إني أكتب ما يخطر على بالي أولاً بأول من دون أن أكلف نفسي عناء تنظيم الأشياء . إن الذي سأكتبه سيكون صورة قلمية رائعة يجب أن تحسبها فتاتي قد كتبت من دون توقف ، من دون محو . ما لهذه الحروف على هذا النحو من ركاكة الخط -ثمة بقعة من الحبر قد سقطت من جراء عدم الاعتناء . كل شيء ينبغي التضحية به من أجل السرعة وعدم الاعتناء . سأكتب بخط سريع ، متدفق ، ناعم الحروف ، وأبالغ بتدوير التاء المقصورة وبمدة الألف ، هكذا- بمدة منحنية . والتاريخ سيكون مجرد يوم الثلاثاء ، السابع عشر ، ثم علامة استفهام . لكني كذلك يجب أن أخلق لديها انطباعاً بأن الكاتب -وهو هنا ليس أنا- وإن كان يكتب بهذا الشكل العرضي ، هذا الشكل المتسرّع الجاري كيفما اتفق ، فإن هناك في سطوره إيحاء رهيف بالألفة الحميمة والاحترام . يجب أن أنوّه بأحاديث تحدثنا بها معاً - أن أستعيد مشهداً علق بالذاكرة . لكني يجب أن أبدو لها (وهذا مهم جداً) أنني أنتقل من أمر إلى أمر بيسر تام . سأنتقل من ذكر الخدمة التي قدمتها للرجل الذي غرق (عندي جملة لها) إلى السيدة موفات Moffat ومقولتها (مدونة لديّ) ثم أنتقل إلى بعض التأملات التي هي في ظاهرها عرضية لكنها مليئة بعمق التفكير (غالباً ما يكتب النقد العميق بصورة عرضية) بشأن كتاب ما كنت قد قرأته ، كتاب لا يخطر على البال . أريدها أن تقول وهي تمشط شعرها أو تطفئ الشمعة : (أين قرأت ذلك؟ أوه ، في رسالة برنارد) إن ما أحتاجه هو السرعة ، التأثير الساخن ، الذائب ، الفيض البركاني من

twitter @baghdad_library

حمم تموج بالجمل . بمن أفكر؟ بايرون بالطبع . إني ، من بعض النواحي ، شبيهٌ ببايرون . لعل رشفةً من بايرون ستساعدني على وضعي في المسار الصحيح . فلأقرأ صفحة من الصفحات . لا ؛ هذه كئيبة ؛ هذه غير مترابطة . هذه بالأحرى رسمية أكثر مما ينبغي . ها أنا الآن أحصل على سر الأداء . الآن أحصل على نبض بايرون بقرع في رأسي (الإيقاع هو الشيء الرئيسي في الكتابة) . الآن سأبدأ ، من دون توقف ، على نغم الضربات ذاتها- .

«مع ذلك فالرسالة تظهر لي تافهة . إنها تنضب وتجف . وأنا لا أستطيع الحصول على قوة دفع كافية لتحملني على الانتقال من حالٍ إلى حال . إن ذاتي الحقيقية تنفصل عن ذاتي المزعومة . أما إذا بدأت بإعادة كتابة الرسالة فستشعر الفتاة (أن برنارد يتصنع صفة الأديب ؛ برنارد يكتب وعينه على كاتب سيرته) (وهذا صحيح) . لا ، سأكتب الرسالة غداً بعد الإفطار مباشرةً .

«فلأملأ الآن رأسي بصور خيالية . فلأفرض أنني دُعيت ضيفاً في إحدى القرى وأصلها في الغسق . هناك في فناء هذا البيت العتيق والمتميز معاً كلبان أو ثلاثة من الكلاب النحيلة ، الطويلة السيقان . في الردهة سجاد بهت لونه ؛ وفي الشرفة ذاتٌ عسكري يدخن غليوناً ، وهو يسير الهوينى . المسحة السائدة هي مسحة الفاقة المتميزة ، ومسحة الصلات العسكرية . على طاولة الكتابة حافر جواد من خيول الصيد - الجواد المفضل . (هل تركب الخيل؟) (نعم ، سيدي ، أعشق ركوبها) . (ابنتي تنتظرنا في غرفة الجلوس) . قلبي يدق في ضلوعي . إنها تقف إلى منضدة واطئة ؛ كانت في الصيد ؛ وهي تقضم الساندويج كفتاة مسترجلة . وقد خلقت انطباعاً جيداً نوعاً ما لدى العقيد . أنا بنظره لست متشاطراً ولا ساذجاً جداً . كما أنني ألعب البلياردو . ثم دخلت الخادمة اللطيفة التي

قضت في خدمة العائلة مدة ثلاثين سنة . الرسم في الصحون هو لطيور شرقية طويلة الذيول . صورة أم الفتاة برداء من الحرير الشفاف معلقة فوق الموقد . إن بوسعي وضع صورة قلمية مختصرة بسهولة فائقة . ولكن ، هل سأوفق في أن أجعل من ذلك شيئاً مؤثراً؟ هل أستطيع سماع صوت الفتاة - نبرتها تماماً والتي بها تقول ، حين نكون وحدنا ، (برنارد؟) وماذا بعد ذلك؟

«الحقيقة هي أنني أحتاج إلى التشجيع والحث من الآخرين . بإمكاني ، حين أكون وحدي ، جالساً بجنب ناري الخامدة ، أن أرى النقاط الضعيفة في حكاياتي . إن الروائي الحقيقي ، الإنسان البسيط تماماً ، بوسعه الاستمرار على التخيّل إلى ما لا نهاية . إنه لن ينهي حبكته مثلي . ولن يشعر بهذا الشعور المدمر بالرماد القاحل في موقد خبت ناره . ثمة غشاوة ترف في عيني . كل شيء يغدو عصيّاً على الرؤية . فأنقطع عن الإبداع .

«فلأتذكّر . لقد كان النهار على العموم نهاراً جيداً . إن القطرة التي تتألف على سطح الروح في المساء قطرة مكوّرة ، متعددة الألوان . مضى الصباح ، وهذا رائع ، ثم قضيت العصر ماشياً . أنا أحب مناظر الأبراج عبر الحقول . أحب ما أراه من بين أكتاف الناس . ما فتئت الأشياء تقفز إلى رأسي . كنت جم التصور ، رهيف الدقة . بعد العشاء كنت درامياً . حددت ، على نحو ثابت ملموس ، كثيراً من الأشياء التي نلاحظها بغشاوة في أصدقائنا المشتركين . قمت بالانتقال من حال إلى حال بسهولة ويسر . لكني سأسال نفسي الآن السؤال النهائي ، وأنا جالس بجنب هذه النار القاحلة ، بنتوءاتها العارية من الفحم الأسود ، مَنْ مِن هؤلاء الناس أنا؟ إن الأمر يعتمد كثيراً على الغرفة . حين أنادي بيني وبين نفسي قائلاً (برنارد) فمن يكون المجيب؟ رجلٌ أمين ، ساخر وجائر ، لكنه

twitter @baghdad_library

ليس حاقداً . رجل بلا عمر بعينه أو مهنة بعينها . أنا مجرد أنا . إنه الذي يتناول الآن سفود الموقد فينبش تراب الفحم بحيث يتساقط زخات . إنه يقول لنفسه وهو يراقب تساقط الرماد : (يا إلهي ، ما أعظمها من عجاجة دخان!) ثم يضيف ، باكتئاب ، ولكن بشيء من مشاعر العزاء ، (إن السيدة موفات ستأتي وتكنس كل شيء-) ، أتخيل أنني غالباً ما سأكرر لنفسي تلك العبارة ، إذ أنبش وأقعقع خلال الحياة ، ضارباً هذا الجانب من العربة أولاً ، ثم ذاك ، وأقول (إي نعم ، السيدة موفات ستأتي وتكنس كل شيء) ، والآن إلى الفراش» .

قال نيفيل « في عالم يحوي اللحظة الحاضرة ، فيم يتم التفريق تمييزاً بين هذا الشيء وذاك . ما من شيء ينبغي تسميته لئلا نغيره بالتسمية . فليبق كل شيء كما هو ، هذه الضفة ، هذا الجمال ، وأنا ، لهنية واحدة ، مغموراً بالسرور . الشمس حارة . إني أرى النهر . أرى أشجاراً مرقطة تشتعل في ضياء شمس الخريف . الزوارق تطفو ماضيةً ، خلال الاحمرار ، خلال الاخضرار . جرسٌ يقرع من بعيد ، لكن لا يقرع للموت . ثمة أجراس تدق للحياة . ورقة تسقط ، جذلاً . أوه! إني أعشق الحياة! يا لها كيف تبعثر شجرة الصفصاف أغصانها الرقيقة في الهواء! يا لها كيف يمر من بين أغصانها زورق حاشد بشباب متكاسل ، قوي ، لا يعي . إنهم يستمعون لأغاني الاسطوانات ؛ يأكلون الفاكهة من أكياس الورق . يرمون قشور الموز التي تغرق في ما بعد وكأنها أسماك الإيل في النهر . كل ما يفعلونه جميل . أباريق الخمور من خلفهم والحليّ ، غرفهم مليئة بالمجاديف والصور الزيتية الزائفة ، لكنهم قلبوا كل هذا إلى أشياء جميلة . ذلك الزورق يمر من تحت الجسر . وآخر يأتي . فآخر . ذلك هو برسيفال ، يستريح على الوسائد ، متوحِّداً ، في هجوع عملاق . لا ، ما هذا إلا مريد من أتباعه الدائرين في فلكه ، يقلد توحدهً ، وهجوعه العملاق . إنه هو وحده

لا يحس بألاعيبهم ، وحين يكتشفهم متلبسين بها فإنه يلكزهم بمرح بوكزةٍ من قبضته . هم ، كذلك ، مروا من تحت الجسر خلال (نافورات الشجر المتدلي) ، خلال ضرباتها الناعمة من اللون الأصفر والأجّاصي . النسيم يتململ ، الستارة ترتعش ؛ إني أرى خلف الأوراق النباتات الوقورة ، وإن كانت مُمرحة أزلياً ، وهي تبدو مساميّةً ، غير مثقلة الحمل ؛ خفيفة وإن كانت الأوراق تخلد على التربة المعشبة العريقة في القدم . الآن بدأ يتصاعد فيّ الإيقاع المألوف ؛ كلمات كانت سابتة أخذت تصّاعد مرة ، ومرةً تهز أعرافها فتهوي وتقوم ، وتهوي وتقوم مرة أخرى . أنا شاعر ، نعم . أنا بالتأكيد شاعر عظيم . زوارق وشباب يمرون وأشجار نائية ، (نافورات الشجر المتدلي) ، إني أراها جميعاً . أشعر بها جميعاً . أنا ملهم . عيناي تغرورقان بالدموع . ومع هذا ، حتى وأنا أشعر بهذا ، فإني أجلد بالسياط سُعار مخيلتي ليَعرم بازدياد . إنه يُزبد ويُرعد . يغدو مصطنعاً ، غير مخلص . كلمت وكلمات وكلمات ، يا لها كيف تجري خبباً – يا لها كيف تجلد بالسياط خصلات شعرها المرسلة وذيولها الطويلة ، لكني لعيبٍ ما فيّ لا أستطيع أن أرخي نفسي لصهواتها ؛ لا أستطيع الجري معها ، مبعثراً النساء والحقائب المنسوجة . ثمة منقصة فيّ ، لعله نكوص فتاك ، لو تجاوزته لتحول إلى زبدٍ وزيف . مع هذا إنه لمما لا يُصدق ألا أكون شاعراً عظيماً . ما الذي كتبته ليلة أمس إن لم يكن شعراً جيداً؟ أنا سريع أكثر مما ينبغي؟ سطحي أكثر مما ينبغي؟ لا أدري . إني لا أعرف نفسي أحياناً ، أو لا أعرف كيف أقيس وأسمّي وأحصي الصفات التي تجعلني ما أنا عليه .

«إن شيئاً ما يغادرني الآن ؛ شيئاً ما يخرج مني لملاقاة ذلك الشخص القادم ، شيئاً يؤكد لي أنني أعرف الشخص قبل أن أرى من هو . ما أغرب أن يتغيّر المرء بإضافة صديق واحد ، حتى عن بعد . ما أنفع المسعى الذي يبذله أصدقاء حين يستذكروننا . مع هذا ما ألم أن يُستذكر المرء ، أن

twitter @baghdad_library

يشوّه ، أن تذوّب ذات المرء ، وتخلط ، فتمسي جزءاً من امرئ آخر . وإذ بتقرب المرء نحوي فإني أصير لا نفسي بل نيفيل ممزوجاً بشخص ما - بمن؟- ببرنارد؟ نعم ، إنه برنارد ، وإني لعلى برنارد سأطرح سؤالي . من أنا؟» .

قال برنارد «ما أغرب شجرة الصفصاف حين نراها كلنا معاً . كنت أنا باريون ، والشجرة هي شجرة بايرون ، بكّاءةً ، نثيثة ، نائحة . الآن ونحن ننظر إلى الشجرة معاً ، فإن لها ملامح متراكبة ، إذ أن كل غصنٍ متميز على انفراد ، وإني سأقول لك ما أشعر به ، تحت ضغطٍ من وضوحك الصافي .

«إني أحس باستهجانك ، أشعر بقوتك . إني أصير معك كائناً بشرياً رثاً ، مقززاً ، بمنديله المزركش الكبير ملوثاً دائماً بزيت الكعك الساخن . أجل ، إني أمسك بمرثية غراي Gray بيد ، وبالأخرى أحفر قعر الكعكة التي امتصت الزبدة كلها فالتصقت بقعر الصحن . إن هذا يسيئك ؛ أنا أشعر بابتئاسك شعوراً حاداً . وبوحي من ذلك ، ولتوقي إلى كسب حسن ظنك بي ، فإني سأحكي لك كيف سحبت تواً برسيفال من السرير ؛ إني أصف فعاله ، منضدته ، شمعته الذائبة ، نبراته الفظة والمتذمرة وأنا أسحب الأغطية من فوق قدميه ؛ وهو في هذه الأثناء يختبئ هرباً كشرنقة الحرير الطويلة . إني أصف كل هذا وأنت على ما أنت عليه من تقوقع في حزن ما خاص بك (ذلك أن شكلاً مقنعاً يتسربل على تلاقينا) ، وضعاً جعلك تتزحزح ، فتضحك وتُسرّ بي . إن سحري وفيض لغتي ، وهما على ما هما عليه من عفوية ، أمر يسرني أنا كذلك . وإنه لتدهشني ، وأنا أرفع الغطاء عن الأشياء بالكلمات ، الكثرة الكاثرة لما لاحظته ، والسعة اللانهائية لما لا يسعني قوله بكلمات . إن الكثير والكثير ليجيش في رأسي إذ أتكلم ، الكثير والكثير من الصور والصور . فأقول لنفسي : هذا هو ما أحتاج ؛

وأسأل : لماذا لا أستطيع إكمال الرسالة التي أكتبها؟ ذلك أن غرفتي تتناثر فيها دائماً رسائل ناقصة . وإني ليخالجني الظن ، حين أكون معك ، بأنني الموهوب الأكبر بين الناس . إني لأمتلئ ببهجة الشباب ، بالعنفوان وبالإحساس بما هو آت . إني ، وأنا أتخبط ، وإن متوهجاً ، أرى نفسي وأنا أطن حول الأزهار ، أطن في الكؤوس القرمزية ، فأجعل الأقماع الزرقاء ترن بأزيزي المدهش . إني سأستمتع بشبابي بصورة ثرة (أنت تجعلني أشعر بهذا) . أن استمتع بلندن . وبالحرية . لكن رويدك . أنت لا تصغي إليّ . أنت تحتج عليّ إذ تنسل بإشارة مكبوتة ، ويدك حذو ركبتك . إننا بمثل هذه العلامات نشخص عقابيل أصدقائنا . لكأنك تقول : (لا تخلفني وراءك وأنت تنعم بالرفاهية والسعة) . وتقول : (رويدك . إسألوني عما أقاسي؟) .

«ذرني إذن استخلقك . (أنا مدين لك بالفضل إلى هذا الحد) . إنك تستلقي على هذه الضفة الحارة ، في هذا اليوم البديع ، المتواهي ، الساكن ، البراق ، من أيام تشرين ، ترقب زورقاً بعد زورق يعوم خلال شجرة الصفصاف المتسّقة الأغصان . وأنت تتمنى أن تكون شاعراً ؛ وتتمنى أن تكون عاشقاً . لكن الوضوح الرائق في ذكائك ، والاستقامة العنيدة في ملكتك العقلية (أنا مدين لك بهذه الكلمات اللاتينية ؛ هاتان الصفتان تجعلانني أتململ بقلق بعض الشيء فأرى البقع الباهتة والخصل الواهية في عدتي) هما صفتانً توقفانك عند حد . أنت لا تنغمس بصوفيات غامضة . أنت لا تضبب نفسك بسحب وردية ، أو بغيم أصفر .

«هل أنا على صواب؟ هل قرأت الإشارة البسيطة ليدك اليسرى قراءة صحيحة؟ إن كان الأمر كذلك ، ناولني قصائدك ؛ أعطني الصفحات التي كتبت ليلة البارحة بدرجة من حماسة الإلهام بحيث أنك تشعر الآن خجولاً بعض الشيء . هذا لأنك لا تثق بالإلهام ، إلهامك أو إلهامي . فلنعد معاً ، لنعبر الجسر ، ونمرّ من تحت أشجار الدردار ، إلى غرفتي ، حيث

twitter @baghdad_library

نستطيع ، والجدران من حولنا والستائر القطنية الحمر مسدلة ، أن نمنع ما يلهينا من هذه الاصوات والروائح ونكهات أشجار الليمون ، وأن نمنع أيضاً ما يلهينا من حياة أناس آخرين ؛ من حياة فتيات المخازن المليئة بالحيوية والمرح وهن يسرعن الخطى بكبرياء ، وحياة العجائز المثقلة بالهموم وهن يجرجرن أقدامهن ؛ أو ما يلهمنا من لمحات نختلسها من شخص ما غامض متلاشٍ - قد يكون هذا الشخص هو جيني ، قد يكون سوزان ، أم هل هي رودا تختفي في نهاية الجادة؟ ثم إنهي أحدس ، من رجفة خفيفة في شفتيك ، بما هو شعورك ؛ لقد تحاشيتك ؛ ذهبت أطن كمجموعة من النحل ، هائماً إلى ما لا نهاية ، لا أملك شيئاً مما تملكه من قوتك العنيدة في التركيز على موضوع واحد . لكني سأعود» .

قال نيفيل «عند وجود بنايات كهذه ، فإني لا أستطيع تحمل وجود فتيات المخازن . إن تضاحكهنّ ، اغتيابهن للناس ، يسيئني ؛ يقتحم عليّ سكوني ، فيلكزني في أصفى لحظات التجلي ، لكي أتذكر انحطاطنا .

«لكننا الآن عدنا إلى ما كنا عليه بعد الفترة القصيرة من اللهو بالدراجات الهوائية والانشغال بشذى الليمون وبالأناس المتوارين في الشارع اللاهي . إننا هنا سادة السكينة والنظام ؛ ورثة العرف الفخور . الأضواء بدأت تشق شقوقاً صفراً عبر الميدان . الغبش المتصاعد من النهر يملأ هذه الأحياز العتيقة ، إنه يلتصق ، بلطف ، بالحجر الذي بيّضه الزمن . الأوراق الآن كثيفة في الدروب الريفية ، الخراف تثغو في الحقول الرطبة ، لكننا هنا في غرفتك ننعم بالجفاف . إننا نتكلم على انفراد . النار تثب وتخبو ، فإذا برزّةٍ تلتمع .

«إنك كنتَ تقرأ بايرون . كنتَ تؤشر المقاطع التي تتفق في ما يبدو مع طبيعتك . إني أجد إشارات على كل تلك الجمل التي تعبر عن طبيعة ساخرة ولكنها عاطفية جداً ؛ طبيعة طائشة كطيش الفراش وهو يرمي

بنفسه متهوراً على زجاج النوافذ الصلد . لقد حسبت ، وأنت تؤشر بقلمك على أشعار بايرون ، أنك مثله ، فكأنك تقول في نفسك : (أنا أيضاً أخلع معطفي هكذا . أنا أيضاً أرفع إصبعي في وجه القدر!) مع هذا فإن بايرون لم يغلِ شاي كما تغليه أنت ، فتملأ الإبريق حتى يسيح الشاي منه حيث تضع غطاءه عليه . ها هي بقعة بنية على المائدة - إنها تسيل بين كتبك وأوراقك . أنت الآن تجفّفها ، متخبطاً ، بمنديل الجيب . ثم تحشو منديلك في جيبك - هذا ليس بايرون ؛ هذا أنت ؛ هذا أنت تماماً ، فإذا فكرت بك بعد عشرين سنة ، حيث يكون كلانا مشهوراً ، مصاباً بداء النقرس ولا تطاق صحبته ، فسأتذكرك بهذا المشهد ؛ أما إذا كنت ميتاً فسأبكي . لقد كنت حيناً من الدهر فتى تولستوي ؛ الآن أنت فتى بايرون ، ولعلك تكون في ما بعد فتى مريديث ؛ عندئذٍ ستزور باريس في عطلة عيد الفصح وتعود مرتدياً رباطاً أسود كفرنسي مقيت ، مغمور . عندئذٍ سأتركك .

«أنا شخص واحد - أنا نفسي . إني لا أتقمص قطلوس ، الذي أعشقه . إني أكثر التلاميذ سعياً ، مع قاموس هنا ودفتر هناك ، فيه أدخل استعمالات غريبة لاسم المفعول . لكن المرء لا يستطيع الاستمرار إلى الأبد وهو يجلو بحد السكين هذه الكتابات القديمة لتكون أكثر وضوحاً . هل سأسدل دائماً الستارة القطنية الحمراء فأرى كتابي باهتاً تحت المصباح وكأنه كتلة من رخام؟ تلك إذن حياة مجيدة ، أن يكرّس المرء نفسه للكمال ؛ أن يتحرّى مجرى الجملة فيتبعها أيان تقود ، حتى إلى صحارى ، تحت وطأة هبوب الرمال ، دون اعتبار للمغويات وللمغريات ، حياة مجيدة أن يكون المرء فقيراً دائماً وأشعثاً ؛ أن يكون بادي السخف في ميدان بيكاديللي .

«لكني عصبيّ الطبع فلا أستطيع أن أنهي جملتي بشكل صحيح . أتكلم سريعاً ، إذ أذرع المكان ذهاباً وإياباً ، لأخفي هياجي . أنا أكره

twitter @baghdad_library

منديلك القذر - إنك ستلوث نسختك من ديوان (دون جوان) . أنت لا تصغي إليّ . أنت تؤلف جملاً عن بايرون . وإذ تشير أنت بيدك ، وتلوح بمعطفك وبعصاك ، أحاول أنا أن أكشف لك سراً لم أبح به لأحد بعد ؛ أناشدك (إذ أقف وظهري إليك) أن تتقري حياتي ثم تنبئني هل قضي عليّ أن أثير الاشمئزاز دائماً في نفوس الذين أحبهم؟

«إني أقف وظهري إليك أعبث بأصابعي . كلا ، إن يديّ الآن ساكنتان تماماً . أنا أفسح مجالاً في رف الكتب بشكل دقيق فأضع ديوان (دون جوان) هنا ؛ إن الأحرى بي أن أكون محبوباً ، الأحرى بي أن أكون مشهوراً ، من أن أسعى وراء الكمال خلال الرمال . لكن هل قضى عليّ أن أثير التقزز؟ هل أنا شاعر؟ خذها . إن الرغبة المعبأة خلف شفتيّ ، باردةً كمعدن الرصاص ، سقطت كأنها رصاصة ، والشيء الذي أرومه من فتيات المخازن ، من النساء ، من الذريعة ، من الابتذال السوقي للحياة (لأنني أحبها) هذا الشيء يرمي بناره عليك وأنا أقذف قصيدتي ، فألقفها» .

قال برنارد «لقد انطلق من الغرفة كالسهم : ترك لي قصيدته . أيتها الصداقة ، أنا أيضاً سأضغط الأزهار بين صحائف صونيتات شكسبير! أيتها الصداقة ، كم هي خارقة نبالك - هنا ثم هنا ، ثم هنا مرة أخرى . لقد نظر إليّ ، فالتفت لكي يواجهني ؛ أعطاني قصيدته . الغبش كله يترامى فويق سطح كياني . سأحتفظ بتلك الثقة ما حييت . إنه كموجة عالية ، كدفقٍ من ماء ثقيل ، قد مر من فوقي ، بحضوره المدمر - يجرجرني منفتحاً ، يعرّي الحصى على شواطئ روحي . كان ذلك مهيناً ؛ لقد صُيِّرت أحجاراً تافهة . المظاهر الخارجية كلها طويت . (أنت لست بايرون ؛ أنت نفسك) . يا للغرابة- أن تقرن بشخص آخر فتصبح كائناً واحداً .

«ما أغرب أن تحس بالخيط الذي غُزل منا وهو يمدّ شعيراته الدقيقة عبر

الفضاءات الغابشة في العالم الحادث . هو قد ذهب ؛ أنا أقف هنا ، أمسك بقصيدته . بيننا هذا الخيط . أما الآن فما أدعى للراحة وللثقة من أن تشعر بأن ذلك الحضور الغريب قد أزيح ، ذلك التفحّص قد أسدل عليه ستار العتم فتغطى! ما أدعى للامتنان من أن ترخي الستائر ، فلا تسمح بأي حضور آخر ، أن تشعر بأولئك الأقران البسطاء ، بأولئك المعارف ، عائدين من الزوايا المظلمة التي إليها لجأوا ، والذين ألجأهم هو ، بقوته المتفوقة ، إلى الاختباء . إن الأرواح الهازئة اللماحة ، التي تراقب نيابةً عني حتى في الملمات ، تعود الآن زرافات إلى موطنها مرة أخرى . إني ، بإضافتهم إليّ ، أنا برنارد ؛ أنا بايرون ؛ انا هذا ، وذاك ، والآخر . إنهم يحتشدون في الفضاء ويزيدونني غنى كما في أيام خلت بغرائبهم وتعليقاتهم ، ويلبدون بالسحب سماء البساطة الرائعة في لحظة شبوب عاطفتي . ذلك أنني عديد الذوات أكثر مما يظن نيفيل . إننا لسنا بسطاء كما يريدنا أصدقاؤنا أن نكون لتلبية حاجاتهم . على أن الحب بسيط .

«لقد رجعوا الآن ، أقراني ، معارفي ، الطعنة الآن ، والشرخ في حصوني والذي شرخه نيفيل بسيفه الحاد المدهش ، قد رُمِّم . أكاد الآن أن أكون سليماً غير منقوص ؛ أفلا تراني جذلاً ، وأنا أعمل ما يتجاهله نيفيل فيّ . إني أشعر ، حين أنظر من النافذة ، فاتحاً الستائر من الوسط : (بأن هذا لن يسرّه ؛ لكنه يبهجني) . (نحن نستخدم أصدقاءنا لقياس مقامنا) . إن منظوري يصل إلى ما لا يصله نيفيل قط . أصواتهم تتعالى بأغاني الصيد في الطريق . إنهم يحتفلون بجولة قنص مع كلاب الصيد . الصبيان بالقبعات وهم يتلفتون دائماً في اللحظة ذاتها حين تمر المركبة من المنعطف ويربت بعضهم على أكتاف بعض متفاخرين . نيفيل يتحاشى التدخل تحاشياً ناعماً ، ويسرع خلسة ، كأنه متآمر ، عائداً إلى غرفته . إني أراه يغوص في مقعده الواطئ محدقاً بالنار التي اكتسبت موقتاً صلادة

twitter @baghdad_library

معمارية . يقول في نفسه : ليت أن الحياة تتلبس ذلك الدوام ، ليتها تحوز ذلك النظام -ذلك أنه يرغب في المقام الأول بالنظام ، ويستهجن تشعثي البايروني ؛ وهكذا يسدل ستارته ؛ ويرتج بابه . إن عينيه (ذلك أنه عاشق ؛ وشكل المحبة الشرير ران على تلاقينا) تمتلئان بالشوق ؛ تغرورقان بالدموع . إنه يستل سفود النار وبضربة واحدة يحطم مظهر الصلادة المؤقت في الفحم المتقد . كل شيء يتغير . كذلك الشباب والحب . الزورق مرّ عائماً من تحت طاق الصفصاف وهو الآن تحت الجسر . برسيفال ، توني ، آرجي ، أو أي شخصٍ آخر ، سيذهب إلى الهند . لن نلتقي مرة أخرى . ثم يمد يده ليتناول دفتر مسوداته - الكتاب الأنيق المجلد بورق مرقط -فيكتب على نحوٍ محموم أبياتاً طويلة من الشعر ، مقلداً من يستبدّ بإعجابه من الشعراء في اللحظة الحاضرة .

«لكنني أريد أن أتلكأ ؛ أن أنحني من النافذة ؛ أن أصغى . ها هي أصوات ذلك الجوق الممرح يأتي مرة أخرى . إنهم الآن يهشمون الصحون - هذا أيضاً من التقاليد . والجوق يدهم ، كسيل من الصخور الوثابة ، مهاجماً الأشجار العتيقة ، فيدفق بانطلاق رائع من فوق المرتفعات . ها هم ينداحون ؛ ها هم يمضون على خيولهم ، وراء كلاب الصيد ، ها هم يجرون وراء كرات القدم ، ويتنافحون ملتصقين بالمجاديف كأنهم أكياس الدقيق . كل الفوارق اندمجت -إنهم يتصرفون كرجل واحد . وريح تشرين العاصفة تحمل هدير الضجة في نفثات من الصوت والصمت عبر ساحة اللعب . إنهم الآن يهشمون الصحون مرة أخرى - هذا أيضاً من التقاليد . ثمة امرأة عجوز ، مترنحة ، تحمل كيساً وتجري إلى البيت من تحت النوافذ المتلونة بجمرات النيران . إنها تتوجس خيفة من مهاجمتهم لها وإسقاطها في البالوعة . مع هذا فإنها تتوقف كأنها تبغي دفئاً ليديها المتورمتين من الضرام الذي يترامى بتياراتٍ من الشرار وجذاذاتٍ من الورق المتطاير . المرأة العجوز

تتوقف لصق النافذة المضاءة . هذا تباين . هذا تباين أراه أنا ولا يراه نيفيل ؛ هذا تباين أشعر به أنا ولا يشعر به نيفيل . لذا فإنه سيبلغ الكمال ، أما أنا فسأخيب ولن أترك من ورائي سوى عبارات منقوصة يعوزها الكمال وقد تناثرت فيها الرمال .

«أنا أفكر بلويس الآن . أية أضواء حاقدة وإن كانت كاشفة سيلقيها لويس على هذا الأصيل الخريفي المتزايل ، على هذا التهشيم للصحون والإنشاد المتعاقب لأغاني الصيد ، على نيفيل وبايرون وعلى حياتنا هنا؟ إن شفتيه الرقيقتين مزمومتان بعض الشيء ؛ إن خديه شاحبان ؛ إنه مستغرق في قراءة وثيقة تجارية غامضة في مكتب ما . وقوله (أبي صيرفي في برسبين) -كونه يخجل منه فهو دائماً يتحدث عنه- لم يجد نفعاً . لذا فهو يجلس في مكتب ما ، لويس أحسن المتعلمين في المدرسة . لكني ، وأنا أبتغي المتناقضات ، غالباً ما أحس بعينيه تقعان علينا ، عينيه الضاحكتين ، عينيه الوحشيتين ، وهو يجمعنا كفقرات تافهة في مجموع ما كلي والذي يسعى إليه أبداً في مكتبه . وذات يوم ، سيتناول قلماً رفيعاً ويغمسه في حبر أحمر ، فتتم عملية الجمع ؛ إن مجموعنا سيكون معلوماً ؛ لكنه لن يكون كافياً .

«أسمع صوت ارتطام ، بُم! فقد قذفوا الآن كرسياً على الجدار . لقد حلت علينا اللعنة إذن . قضيتي مشكوك بها أيضاً . ألست منغمساً في عواطف لا موجب لها؟ أجل ، إني ما أن أنحني إلى خارج النافذة وأسقط سيجارتي فتتهاوى خفيفة إلى الأرض ، حتى أشعر بلويس يراقب سيجارتي . ولويس يقول : (هذا يعني شيئاً . لكن ماذا؟)» .

قال لويس «الناس يمرون باستمرار . إنهم يمرون أمام نافذة هذا المطعم من دون انقطاع . سيارات ، شاحنات ، حافلات ، ومرة أخرى حافلات ، شاحنات ، سيارات - إنها تمر من أمام النافذة . أرى إلى الخلف دكاكين

twitter @baghdad_library

وبيوتاً ؛ أرى كذلك الأبراج الرمادية لإحدى كنائس المدينة . أرى إلى الأمام رفوفاً زجاجية عليها صحون الكعك المحلى وشطائر اللحوم . كلها مغشاة ببخار إبريق الشاي . هنا رائحة لحمية ، بخارية ، من روائح لحم البقر والضأن ، من روائح المقانق والبطاطس المهروسة ، تهوِّم كشبكة رطبة متدلية في وسط المطعم . إني أركن كتابي حذو قنينة صلصة البهار وأحاول أن أبدو كالآخرين .

«على أني لا أستطيع . (إنهم يمرون ويمرون في موكبٍ لا نظامي) . لا أستطيع قراءة كتابي ، أو طلب ما أريد من لحم البقر ، بلا تردد . فأكرر القول لنفسي : (أنا انكليزي اعتيادي ؛ أنا موظف كتابي اعتيادي) ، مع هذا فإني أتطلع إلى الرجال البسطاء حول المائدة المجاورة لكي أتأكد أنني أفعل ما يفعلون . إنهم بوجوههم المطاوعة ، وجلودهم المترجرجة ، التي ترتعش دائماً لتجاري انفعالاتهم المتكاثرة ، قد أُعدوا إعداداً لهذه اللحظة بعينها ، إنما كانوا يبحثون وهم يؤشرون بما يناسب الحال مسألة بيع البيانو . وهذا البيانو يسد الردهة ؛ وهكذا فالبائع يوافق على أن يتقاضى عشرة جنيهات . الناس يمرون ويمرون ومن خلفهم أبراج الكنيسة وصحون شطائر اللحوم . إن وعيي يتمزق جراء هذه الفوضى . لذلك فإنني لا أستطيع التركيز على عشائي . إنهم يخرون ويغوصون كطيور بحر الشمال بريشها الزلق بالزيت . إن الخروج على ذلك النمط المعتاد هو غرور فارغ . ذلك النمط هو الاعتيادي . في هذه الأثناء تتمايل القبعات على الرؤوس ؛ الباب ينغلق وينفتح على الدوام . إني أعي تياراً يفيض ، أعي عدم الانتظام ؛ أعي الإبادة والقنوط . إذا كان هذا هو كل ما هنالك ، فإن هذا تافه لا قيمة له . مع هذا فإني أحس ، كذلك ، بإيقاع المطعم . إنه كلحن الفالز ، يموج ويدور . النادلات ، وهنّ يوازن بما يحملن ، فيدخلن ويخرجن, دائرات بالأطباق ، فيوزعن الخضراوات ، والفاكهة والحلوى ، يوزعنها في

اللحظة المناسبة على الطالبين بلا خطأ . إن الأشخاص الاعتياديين ، وهم يدغمون إيقاع النادلة بإيقاعهم (إني سأشتري آلة أصغر ؛ فالبيانو يسد الردهة) يتسلمون خضرواتهم مع الفاكهة والحلوى ، أين هي الفاصلة إذن في هذا الاستمرار؟ وما الصدع الذي من خلاله يرى المرء الكارثة؟ الدائرة كاملة ؛ التناغم كامل . هنا الإيقاع المركزي ؛ هذا المعين المشاع . أنا أرقبه يتوسع ويتقلص ؛ فيتوسع مرة أخرى . مع هذا فأنا لست مندمجاً في كل هذا . إذا تكلمتُ ، مقلداً لكنتهم ، فإنهم يشنفون آذانهم ، منتظرين أن أتكلم مرة أخرى ، لكي يخمنوا مسقط رأسي - هل جئت من كندا ، أم من أستراليا؟ أنا الذي لا أرغب إلا بأن أؤخذ بالأحضان بمحبة ، شخص غريب وخارجي . أنا الذي لا أتمنى إلا أن أشعر بأمواج الحماية النابعة من الشيء الاعتيادي وهي تغمرني ، أرى بطرف عيني أفقاً ما بعيداً ؛ أنا أدرك وجود القبعات المتمايلة بعدم انتظام أبدي . لي أنا يوجّه نواح الروح التائهة ، المشتتة (ثمة امرأة ذات أسنان منخوبة تتعثر في المطعم) ، (أعدنا إلى ملأ الناس ، نحن الذين نمر ممزقين ، متمايلين من أمام النوافذ بما فيها من أطباق شرائح اللحوم) . أجل ؛ أنا سأعيدكم صاغرين إلى النظام .

«سأقرأ في الكتاب المركون إلى قنينة صلصة البهار . في هذا الكتاب بعض الرنّات الزائفة ، بعض الأقوال البالغة الكمال ، بضع كلمات ، لكنه شعر . أنتم جميعاً تتجاهلونه . فما قاله الشاعر الميت نسيتموه . وأنا لا أستطيع ترجمته لكم بحيث تشدكم إليه قوته الملزمة ، وتجعل من الواضح لكم أنكم لا هدف لكم ؛ والإيقاع رخيص وتافه ؛وبذا أزيل ذلك الانحطاط الذي يتغلغل فيكم ، ويورثكم العقم حتى وأنتم في ريعان الشباب ، أزيله عنكم إذا كنتم لا تدركون أنكم لا هدف لديكم . إن ترجمة تلك القصيدة لكي تكون سهلة القراءة هي المسعى الذي أروم . إني ، أنا رفيق أفلاطون ، رفيق فرجيل ، سأقرع باب البلوط الخشن غير

twitter @baghdad_library

المصقول فأناهض الجمود والخمود . لن أخضع لهؤلاء الذين لا هدف لهم ، يمرون بقبعات اللباد العريضة وبالقبعات السود العالية وبأزياء الرأس النسائية المزركشة ذات الرياش . (سوزان ، التي أحترمها ، سترتدي قبعة خوص بسيطة أيام الصيف) . ولا للسحق ولا للبخار الذي يجري بقطرات غير متساوية على زجاج النافذة ؛ ولا لتوقف الحافلات وتشغيلها باهتزاز مفاجئ ؛ ولا للتردد في الاختيار أمام المآكل في المطاعم ؛ ولا للكلمات التي تسهب إسهاباً كالحاً بلا معنى إنساني ؛ أنا سأعيدكم صاغرين إلى النظام .

«إن جذوري تمتد عميقاً خلال عروق الرصاص والفضة ، خلال الأمكنة الرطبة ، الشبيهة بالأهوار التي تفوح بالروائح الكريهة لتصل إلى عقدة مصنوعة من جذور شجر البلوط . إني وقد ختم على سمعي وبصري بالتراب سمعت رغم هذا إشاعات عن الحرب ؛ سمعت العندليب ؛ شعرت بهروع زرافات من الناس وهم يتجمعون هنا وهناك بحثاً عن حضارة كأسراب الطير المهاجرة وهي تبتغي الصيف ؛ سبق لي أن رأيت نسوة يحملن أباريق حمراء على ضفاف النيل . استيقظت في جنينة ، على ضربة في قفا رقبتي ، على قبلة ساخنة ، قبلة جيني ؛ أنا أتذكر كل هذا كما يتذكر المرء صيحات مختلطة وأعمدة متساقطة وحزم من الأشعة حمر وسود في حريق ما ليلي مدمر مشبوب . إني أنام وأفيق على الدوام . مرة أنام ؛ مرة أفيق . أرى إبريق الشاي الساطع ؛ أرى الواجهات الزجاجية حاشدة بشطائر اللحوم المصفرة ؛ والرجال بمعاطف مكورة يجلسون على مقاعد غير ذات ظهر في المطعم ؛ وأرى كذلك ما وراءهم . إنها وصمة كُويت على جسدي المرتجف بقضيبٍ من حديدٍ يحمّر ناراً يحمله رجل مقنّع . إني أرى هذا المطعم إزاء أجنحةً الماضي المكتضة ، الخافقة ، للطيور الملونة الرياش ، المطوية الجوانح . لذا فشفتاي مزمومتان ، وسحنتي ذات

شحوب مريض ؛ مظهري يبعث على الاشمئزاز ولا يلاقي الاستحسان إذ أصب الكراهية والحقد على برنارد ونيفيل ، اللذين يتسكعان تحت السنديان ؛ يرثان المقاعد الوثيرة ؛ اللذين يسدلان ستائرهما لكي يسقط ضياء المصباح على كتبهم .

«سوزان ، أحترمها ، لأنها تجلس في مكانها تخيط . تخيط تحت مصباح هادئ في بيت يهس القمح قريباً من النافذة فيضفي عليّ أمناً . ذلك أنني أضعفهم جميعاً ، أصغرهم سناً جميعاً . أنا طفل ينظر إلى قدميه وإلى الأنفاق الصغيرة التي حفرها الجدول في الحصى . هذا حلزون ، أقول ؛ هذه ورقة . إني أبتهج سروراً بالحلازين ؛ أبتهج سروراً بالورقة . إني دائماً الأصغر سناً ، الأكثر براءة ، الأكثر صدقاً . أنتم جميعاً محميّون . أنا عار . حينما تمر النادلة وهي ترمي بجدائلها المظفورة ، فإنها توزع عليكم الفاكهة والحلوى بلا تردد ، كأنها أخت . فأنتم أشقاؤها . أما حين أنهض أنا ، وأنفض الفتات عن صدري ، فإني أدس لها إكرامية كبيرة تحت صحني ، لكي لا تعثر عليها إلا بعد ذهابي ، ولكي لا يطالني ازدراؤها ، وهي تتناول عطيتي ضاحكة ، حتى أخرج مبتعداً عن الباب الدوار .

قالت سوزان «الآن ترفع الريح الستارة ، فتغدو الآن الأواني والدوارق والحصران والمعقد الرث المثقوب واضحة للعيان . شرائط الظلال المعتادة الباهتة تتناثر على ورق الجدران . تغريد الطيور الجماعي انتهى ,إلا طير واحد فقط يغرد الآن قريباً من غرف النوم . سأرتدي جواربي وأذهب بهدوء من أمام أبواب غرف النوم ، فأنزل وأعبر المطبخ ، وأخرج إلى الحديقة وأمشي من أمام البيت الزجاجي إلى الحقل . لم يزل الصباح باكراً . غبش الضباب يخيم على الأرض البليلة . النهار خامد وجامد كأنه بردة من كتان . لكنه سيرق ؛ سيدفأ . في هذه الساعة ، هذه الساعة التي لم تزل

twitter @baghdad_library

مبكرة أحسب أنني أنا الحقل ، أنا العنبر ، أنا الأشجار ؛ أسراب الطيور ملكي ، وهذا الأرنب الصغير الذي وثب في اللحظة الأخيرة حين كدت أدوس عليه . طير مالك الحزين ملكي وقد فتح جناحيه الكبيرين كسلاً ؛ والبقرة تفرقع فتضع قدماً قبل أخرى وتعلس ؛ والسنونو الطائش يخر إلى الأرض ؛ والحمرة الباهتة في السماء ؛ والاخضرار حين يتلاشى الاحمرار ؛ والصمت والجرس ؛ وصيحة الرجل الذي يجلب خيول الجر للعربة من الحقول - كلها ملكي .

«أنا لا يمكنني أن أكون موزعة ، أو مبعدة . أرسلوني إلى المدرسة ؛ أرسلوني إلى سويسرا لإكمال دراستي . أنا أكره الأرضية المطاطية ؛ أكره أشجار التوت والجبال . فلألق بنفسي الآن على هذه الأرض المسطحة تحت سماء شاحبة حيث تجري الغيوم ببطء . عربة الجر تغدو أكبر تدريجياً وهي تأتي في الطريق . الأغنام تتجمع في وسط الحقل . الطيور تتجمع في وسط الطريق -إنها ليست بحاجة إلى أن تطير بعد . دخان الخشب يتصاعد . وينجلي عن الفجر الجمود . ويتململ النهار . اللون يعود . النهار يموج أصفر اللون بحاصلاته كلها . الأرض تنشدّ بقوة من تحتي .

«لكن من أنا ، هذه التي تنحني على هذه البوابة وترقب كلبها الصياد يشمشم في دائرة؟ أظن أحياناً (أنا لم أبلغ العشرين بعد) أنني لست امرأة ، بل أنا الضياء الذي يسقط على هذه البوابة ، على هذه الأرض . أظن أحياناً أني أنا الفصول ، وكانون وأيار وتشرين ؛ والطين والضباب والفجر . لا يمكنني أن أُقذف هنا وهناك ، أو أن أعوم في تيار الحياة بلطف ، أو أن أختلط بالآخرين . مع هذا فالآن ، وأنا أنحني هنا إلى أن تنطبع البوابة على ذراعي ، أشعر بالوقر الذي تكوّن في جنيف . إن شيئاً ما قد تكوّن ، في المدرسة ، في سويسرا ، شيئاً صلباً . إنه ليس التنهدات والضحك ؛ ليس العبارات الأخاذة والمبدعة ؛ ليس ما تبديه رودا ، وهي

تنظر إلينا عند مرورها بنا ، من وصالٍ غريب ، ونحن نتلفت إليها ؛ لا ولا تراقص جيني في مشيتها بكل ما أوتيت من جسم . إن الذي أعطيه ما هو إلا جله . أنا لا يمكنني أن أعوم في تيار الحياة بلطف ، عند الاختلاط بالآخرين . أَحب شيء إليّ نظرات الرعاة الذين أصادفهم في الطريق ، نظرات الغجريات وهن بقرب عربة الجر في خندق يرضعن أطفالهن كما سأرضع أنا أطفالي . ذلك أنه في منتصف النهار الحار حين يطن النحل حول ورد الخطمي سيأتي حبيبي . سيقف تحت شجرة الأرز . وعلى كلمته الواحدة سأجيب بكلمتي الواحدة . إن الذي تكوّن فيّ سأعطيه إليه . سألد أطفالاً ؛ وأستخدم نادلات يخدمن بمآزرهن ؛ وأستخدم رجالاً يعملون بالمذراة ؛ سيكون عندي مطبخ حيث يأتون بكل حَمَل مريض في سلة ليتدفأ ، وحيث تتدلى اللحوم المعلقة وتسطع قلائد البصل . سأكون كأمي ، صامتة بمئزر أزرق وهي تغلق الخزانات .

«إني جائعة الآن . سأنادي كلبي الصياد . أنا أفكر بقشرة الكعك المحلى والخبز والزبدة والصحون البيض في غرفة مشمسة . سأعود عبر الحقول . سأمشي هذا الدرب المعشب بخطوات قوية ، متساوية ، مرة أدور سريعاً لتجنب المخاضة ، مرة أقفز بخفة إلى أكمة . خرزات من البلل تتكون على ثوبي الخشن ؛ حذائي يغدو مرناً وقاتماً . الجمود ولّى عن النهار ؛ النهار مضلّل بالرمادي والأخضر والعنبري . ولم تعد الطيور تستقر على الطريق العام السريع .

«إني أعود ، كما تعود قطة ، أو ذئب فراؤه أشيب بالصقيع ، وأخفافها غلّظتها الأرض الفظة . إني أتقحم زروع اللهانة ، وأهصر أوراقها بقدمي فتجعجع ويسيح ماؤها . إني أجلس بانتظار وقع أقدام أبي إذ يشحط قدميه في الممر وهو يضغط بأصابعه على شيء من العشب البري . أنا أصب كوباً بعد كوبٍ إذ تنتصب الأزهار غير المتفتحة على المائدة بين أواني المربى

twitter @baghdad_library

وأقراص الخبز والزبدة . إننا صامتون .

«وأذهب في ما بعد الخزانة لأتناول أكياس الزبيب المترع بملمسها الرطب ؛ وأرفع الدقيق الثقيل إلى منضدة المطبخ النظيفة جداً . فأعجن العجين ؛ أسطّحه وأنا أغرز يديّ في ثناياه الدافئة . ثم أدع الماء البارد يجري مجرى المروحة من خلال أصابعي . النار تئز ، الذباب يطن . كل ما لدي من زبيب ورز ، من أكياس فضية وأكياس زرق ، يودع في الخزانة ويغلق عليه . اللحم يوضع في الفرن ؛ الخبز يتعالى قمة رخوة تحت المنديل النظيف . وأسير عصراً إلى النهر . العالم كله يتوالد . الذباب يتنقل بين الأعشاب . الأزهار محملة باللقاح . الأوز يعوم في التيار بانتظام . السحب ، دافئة الآن وترقطها الشمس ، تجري فوق الهضاب ، فتلقي ذهباً في الماء وذهباً على أعناق الأوز . البقرات تتهاوى في الحقل وتعلس . إني أتقرّى خلال الحشائش الكمأة ذات القبة البيضاء ؛ أقصم ساقها فألتقط زهرة الأوركيد البنفسجية التي تنمو بجنبها وأضع الزهرة بجنب الكمأة والتربة في جذورها ، وهكذا أعود إلى البيت لأغلي إبريق الماء لأبي بين الورود التي احمرّت لتوها على مائدة الشاي .

«لكن المساء يحل والمصابيح تضاء . وحين يحل المساء وتضاء المصابيح يوقد نورها ناراً صفراء في اللبلاب . إني أجلس مع عدة خياطتي بجنب المنضدة . أفكر بجيني ؛ برودا ؛ وأسمع قعقعة العجلات على الدرب المعبد إذ تتهادى خيول الحقل عائدة إلى أمكنتها ؛ وأسمع حركة المرور تهدر في ريح الأصيل . أنا أنظر إلى الأوراق المرتعشة في الجنينة المعتمة وأفكر (إنهم يرقصون في لندن ، وجيني تقبّل لويس)» .

قالت جيني «ما أغرب أن ينام الناس ، أن يطفئ الناس الأضواء ويصعدون إلى غرفهم . لقد خلعوا ملابسهم ، وارتدوا جلابيب النوم البيض . ليس ثمة ضياء في أي بيت من هذه البيوت . ثمة سلسلة من

المداخن كالخيط على صفحة السماء ؛ ومصباح واحد أو مصباحان من مصابيح الشارع يشتعلان ، كما تشتعل المصابيح حين لا يحتاجها أحد . الشوارع تخلو إلا من الفقراء وهم في عجلة من أمرهم . ما من أحدٍ يجيء أو يروح في هذا الشارع ؛ النهار انتهى . بضعة أفراد من الشرطة يقفون في المنعطفات . ثم سجا الليل . وأشعر أني ألتمع في الظلام . الحرير على ركبتي . ساقاي الحريريتان تحتكان حكاً ناعماً . فصوص قلادتي تستقر باردةً على جيدي . قدماي تضيقان بالحذاء . إني أجلس منتصبةً لكي لا يمس شعري ظهر المقعد . إني مكلّلة بأجمل حلّة ، إني مهيّأة . هذا هو التوقف الموقت ؛ هذه هي اللحظة المظلمة . عازفو الكمان رفعوا أقواسهم .

«الآن تقف السيارة على مهل . شريط من الرصيف أضيء . الباب ينفتح وينغلق . الناس يصلون ؛ إنهم لا يتكلمون ؛ يدخلون مسرعين . ويسمع هسيس للمعاطف تتساقط في الردهة . هذا هو الاستهلال ، هذه هي البداية . إني أرنو ، أسترق النظر ، أهرع بالدخول . كل شيء فيّ مرتبٌ تماماً ومهيّأ . شعري منسرحٌ قوساً واحداً . شفتاي حمراوان جداً . إني جاهزة للانضمام إلى رجال ونساء من أترابي على السلالم . فأمر بهم ، مكشوفةً لتحديقهم ، كما هم مكشوفون لتحديقي . وكالبروق ننظر لكننا لا نلين ولا نظهر علامات التعرف . أجسادنا تتواصل . هذا هو ما تدعوني إليه طبيعتي . هذا عالمي . كل شيء مقرر وجاهز ؛ الخدم يقفون أمامي ، يأخذون اسمي ، اسمي الطريّ ، المجهول ، ويقذفونه منادين به ,فأدخل .

«هنا مقاعد مذهبة في غرف خالية ، تنتظر الداخلين ، وأزهار أرقّ وأرقى مما في الطبيعة من أزهار ، تنتشر خضراء ، تنتشر بيضاء ، على الجدران . وعلى منضدةٍ صغيرة واحدة كتاب مجلد واحد . هذا هو الذي تخيلته ؛ هذا هو الذيً تنبأت به . أنا من أهل البيت هنا . أدوس على سجاد كثيف بشكل طبيعي . أتهاوى على أرض صقيلة بسهولة ويسر ،

twitter @baghdad_library

فأبدأ بالتفتح ، في هذا الشذى ، في هذا البريق ، كنبتة السرخس تتفتح أوراقها الملتفة . وأقف . أتحرى هذا العالم . أنظر إلى مجموعات من مجهولين . وبين النسوة المزدهيات بثيابٍ من سندسٍ واستبرق تموج بألواحٍ خضرٍ وحمر تقف منتصبة أجساد الرجال . هؤلاء بثياب سود وبيض ؛ إنهم مخددون تحت ثيابهم بأخاديد غدران عميقة . فأحس مرة أخرى بما انعكس من صور على زجاج النافذة في النفق ؛ الصور تتحرك . الشخوص السود والبيض لرجالٍ مجهولين ينظرون فيّ عندما أنحني إلى الأمام ؛ وعندما أستدير لأنظر إلى رسم ما هم أيضاً يستديرون . أياديهم تمتد خافقة إلى أربطتهم . ويلمّسون صدورهم ومناديل الجيوب . إنهم فتية . وهم يتوقون إلى خلق انطباعٍ حسن . فأحس أنا بألفِ ألفِ قدرةٍ تنبعث فيّ . أنا ماكرة ، مرحة ، واهنة ، حزينة ، بالتتابع . أنا متجذرة في مكاني ، لكنني أفيض على ما حولي فأقول لهذا (تعال إليّ) إذ أفيض من هذا الجانب وكلي بهجة ، وأقول لذاك (مكانك) وأنا أترجرج بالاكتئاب . أحدهم ينفصل عن موقعه حيث يقف تحت الخزانة الزجاجية . فيقترب مني . يتجه نحوي . هذه أشد اللحظات إثارة مما خبرت في حياتي كلها . قلبي يخفق . جسدي يهتز . إني كنبتة في النهر يمر التيار من حولي ، فأفيض في هذا الجانب ، وأفيض من ذلك ، لكني متجذرة في مكاني ، حتى يأتي هو إليّ . فأقول ، (تعالَ إليّ ، تعال) . والقادم شاحب فاحم الشعر وحزين ، وخيالي . أما أنا فماكرة وفياضة ونزقة ؛ ذلك أنه حزين وخيالي . وهو هنا ؛ يقف عل جانبي .

«وبهزة بسيطة الآن انقطعت جذوري عن مكانها كما تنقطع دودة رخوية صخرية عن صخرتها ؛ لقد شغفني هذا الرجل حباً ؛ أطاشني . فاستسلم كلانا لهذا الطوفان الوئيد . نحن نموج في هذه الموسيقى الوانية . صخور تقطع مجرى الرقص ؛ الموسيقى تصر الآذان ، ترجف الأبدان . لقد

جُرفنا الآن ونحن نموج إلى هذا الشيء الضخم ؛ إنه يمسكنا معاً ؛ فلا نستطيع خلاصاً من حيطانه المتعرجة ، المتثاقلة ، الباغتة ، المحيطة بنا إحاطة تامة . إن جسدينا ، جسده الصلب ، جسدي الفياض ، منصهران معاً في جسد الشيء ؛ إنه يمسكنا معاً ؛ وعندئذ يستطيل ، في طيات صقيلة ، متعجرة ، فيهزنا فيه هزاً . فجأة تنقطع الألحان . دمي يجري ولكن جسدي ساكن . الغرفة تمر أمام عينيّ ، فتقف بلا حراك .

«تعال ، إذن ، لنمضي على غير هدى ، فنحوم في طريقنا إلى المقاعد المذهبة . جسدي أقوى مما ظننت . رأسي أشد دواراً مما افترضت . إني لا أعبأ بأي شيء في الدنيا . لا أعبأ بأحد خلا هذا الرجل الذي لا أعرف اسمه . ألسنا مقبولين ، أيها القمر؟ ألسنا رائعين ونحن نجلس معاً هنا ، أنا بالحرير ، وهو بالأسود والأبيض؟ ثم أن لأترابي أن ينظروا فيّ الآن . وأنا أبادلكم النظر ، أيها الرجال والنساء . أنا واحدة منكم . هذا هو عالمي . إني الآن أتناول هذا القدح الطويل فأمسكه من خصره المثقف وأرشف . للنبيذ مذاق عنيف يقلص الأنسجة في البدن ، فتطرف عيناي وأنا أشرب . الشذا والزهور ، البريق والحرارة ، قُطرت هنا إلى سائل أصفر ، متقد . هناك خلف عظام كتفي شيء جاف ، مفتّح العين ، يُطبق برفق ، ويهدهد نفسه تدريجياً إلى النوم . هذه هي النشوة ؛ هذا هو الانفراج . إن الوتر في حنجرتي يخفض صوته . الكلمات تتجمهر وتتكتل وتدافع إحداها الأخرى . أما أية كلمة تظهر فأمر عديم الشأن . إنها جميعاً تتزاحم وتشق طريقها بالمناكب . الكلمة المنفردة تزاوج الكلمة المستوحدة فتطيشان وتتكاثران . أما الذي أقوله أنا فأمر عديم الشأن . إن جملة واحدة تتزاحم كأنها طير خافق ، تعبر المساحة الفارغة بيننا . لقد ولجتْ الدفء في روح أخرى ، ولجت خلوتها الحميمة ، إننا معاً ، في الأعالي ، على ممر في جبال الألب . الرجل يقف حزيناً على قمة الطريق . وأنا أنحني . فألتقط زهرة

twitter @baghdad_library

زرقاء ، وأضعها ، وأنا واقفة على أصابع قدمي لأطاله ، في عروة سترته . هاك! هذه هي لحظة وجدي . وقد انتهت الآن .

«ويداهمني الآن الخمول وعدم الاكتراث . الآخرون يمرون بنا سراعاً . لقد فقدنا الإحساس بجسدينا وهما يتحدان تحت المائدة . أنا أحب أيضاً الرجال الشقر ، زرق العيون . الباب ينفتح . يستمر بالانفتاح . ويخالجني الظن بأن الباب ما أن ينفتح هذه المرة حتى تتغير حياتي بأسرها . فمن القادم؟ ليس سوى النادل يأتي بالكؤوس . هذا رجل مسن -لن أكون معه سوى طفلة . هذه سيدة عظيمة - معها ينبغي لي أن أتصنع . ثمة فتيات بعمري ، وتجاههن أشعر بالسيوف يشهرها عداء نبيل . ذلك أنهن أترابي . أنا من أهل بيت هذا العالم . فيه مخاطرتي ، وفيه مغامرتي . الباب ينفتح . فأقول لهذا الداخل ، وأنا أترجرج ذهباً من رأسي إلى أخمص قدمي : (تعال ، أناشدك أن تأتي ، فيأتي إليّ)» .

قالت رودا «سأتقرب من ورائهم قليلاً قليلاً ، كأني أرى أحداً أعرفه . لكني لا أعرف أحداً . إني سأجر الستارة جراً سريعاً وأنظر إلى القمر . مهب النسيان سيطفئ هياجي . الباب ينفتح ؛ النمر يثب . الباب ينفتح ؛ الفزع يتدفق . فزع على فزع ، يطاردني . فلأقم سراً بزيارة الكنوز التي وضعتها جانباً . برك من ماء تستقر في الطرف الآخر من العالم ، تنعكس فيها أعمدة الرخام . السنونو يغمس جناحه في برك قاتمة . لكن الباب ينفتح هنا والناس يدخلون ؛ إنهم يجيئون نحوي . يتصنعون ابتسامات باهتة لتمويه قسوتهم وعدم اكتراثهم ، فيطبقون عليّ . السنونو يغمس أجنحته ؛ القمر يجري خلال البحار الزرق وحيداً . يجب أن آخذ بيده ؛ يجب أن أجيب . إنما بماذا أجيب؟ إني أُصد فأقف متحرقةً في هذا الجسد الناشز ، غير اللائق ، لأتلقّى حزماً من عدم اكتراثه وازدرائه ، أنا التي تتوق إلى أعمدة الرخام وبرك الماء في الطرف الآخر من العالم حيث يغمس السنونو أجنحته .

«الليل أرخى سدوله فانتشر فوق المداخن . إني أرى من النافذة قطة لا تبالي بشيء ، لا يغمرها ضياء ، ولا يقيدها حرير ، حرةً قادرة على التوقف ، وعلى التمدد ، ثم على الحركة مرة أخرى . إني أكره تفاصيل الحياة الفردية كلها . لكنني مشدودة هنا لكي أصغي . ثمة ضغط عظيم يقع على كاهلي . لا أستطيع أن أتحرك إلا إذا زحزحت عني وقر القرون . ألفَ ألف من السهام تمزقني . ويمزقني الازدراء والاستخفاف . إني ، أنا التي بوسعي أن أتصدى للعاصفة بصدري وأدع البرَدَ يخنق أنفاسي جذلاً ، أقف هنا بلا حراك ، معرضة للأنواء . النمر يثب . ألسنة بسياطها تهوي عليّ . ألسنة متحركة ، لا تنقطع ، تهتز فوقي . يجب أن أراوغ لأصدهم بالأكاذيب . هل من تميمة ضد هذه الكارثة؟ هل من وجه أستطيع أن أتكلفه ليستقر بارداً على هذه الحرارة؟ إني أفكر بأسماء على صناديق ؛ بأمهات من ركبهنّ الواسعة تتنزل الذيول ؛ معشبةً تنحدر منها الهضاب السامقة من شمال ويمين . إني أصرخ : خبئوني ، وأصيح : أنعموا عليّ بالحماية ، ذلك أنني الأصغر سناً ، الأكثر عرياً منكم جميعاً . جيني تجري كنورس على موجة ، توزع نظراتها بحذق هنا وهناك ، تقول هذا الشيء وتقول ذاك ، بصدق . أما أنا فأكذب ، أنا أراوغ .

«ولوحدي أهزهز طاستي ؛ أنا سيدة أسطول سفني . لكني هنا ، إذ أبرم الخصل من الستارة المطرزة في نافذة مضيفتي ، أنقسم إلى قطع منفصلة ، ولا أعود واحدة . فما هي إذن المعرفة التي لدى جيني عندما ترقص ؛ ما هي إذن الثقة التي لدى سوزان إذ هي ، منحنية تحت ضوء المصباح ، عندما تدخل خيط القطن الأبيض في سُمِّ الخياط؟ إنهن يقلن نعم ؛ ويقلن لا ؛ يضربن المنضدة بقبضات أيديهن ضرباً رناناً . أما أنا فيساورني الشك ، وتنتابني الرعشة ؛ إني أرى شجرة الشوك تهز ظلها في الصحراء .

twitter @baghdad_library

«الآن سأسير ، كأن لدي هدفاً يلوح لي ، فاخترق الغرفة ، إلى الشرفة ، وأقف تحت الظلة . إني أرى السماء ترفل رقيقة بالرياش ، لما فيها من تألق مفاجئ يبثه القمر . أرى كذلك سياج الميدان ، وشخصان غير ذي وجهين ينحنيان كما تنحني التماثيل إزاء السماء . يوجد ، إذن ، عالم فيه حصانة ضد التغيير . حين مررت بغرفة الجلوس هذه وهي تخفق بألسنة حداد تسلقني ، فأتلعثم ، وأكذب ، وجدت وجوهاً ليست ذات قسمات ، ويكسوها الجمال . العشاق متقرفصين تحت شجرة الدُّلب . الشرطي يحرس في منعطف . رجل يمر . يوجد إذن عالم فيه حصانة ضد التغيير . لكنني ، وأنا أقف على أطراف أصابعي على شفا النار فتكويني شواظها وأخاف من فتحة الباب ووثبة النمر ، أشعر أنني أجبن من أن أستطيع تأليف جملة واحدة فقط . ما أقوله يفنّد على الدوام . وفي كل مرة ينفتح فيها الباب يقاطع كلامي . أنا لم أبلغ الحادية والعشرين بعد . وسأهشَّم . وأكون موضع استهزاء طوال حياتي . سيُزج بي بين هؤلاء الرجال والنساء ، بوجوههم المتشنجة ، بألسنتهم الكاذبة ، فأُرمى كقطعة من فلين في بحر هائج . إني في كل مرة ينفتح فيها الباب يُقذف بي بعيداً كمزقة من طحلب . إني أنا الرغوة التي تنجرف وتملأ أعلى حوافي الصخور بالبياض ؛ أنا كذلك فتاة ، ها هنا في هذه الغرفة» .

الشمس ، ما أن أشرقت ، حتى لم تعد تجلس على بساط أخضر وترمي بنظرة حانقة من خلال جواهر من ماء ، فكشفت عن وجهها ونظرت مباشرة من فوق الأمواج . والأمواج تسقط بوقع منتظم . تسقط بصوت كارتجاج حوافر الخيل على الأرض المعشبة الخضراء . إن رشاشها يتصاعد كتقاذف الرماح والسيوف فوق رؤوس الفرسان . إنها تجرف الساحل بماء هو بزرقة الحديد مزركشاً بالماس . وتروح وتجيء بحيوية وفحولة كماكنة قوية تقذف قوتها خارجاً فداخلاً باستمرار . الشمس تسقط على حقول القمح والغابات . الأنهار أضحت زرقاء متعددة الطيات ، والمروج التي تنحدر حتى حافة الماء غدت خضراء كريش الطير ينفش رياشه برقة . الروابي ، متموجة ومحكمة ، تبدو مربوطة بسيور ، كعضو الجسم منسوجاً بعضل ؛ والغابات التي تنتصب على جنباتها بكبرياء صارت كاللبدة المقصوصة ، القصيرة ، على عنق جواد .

في الجنينة حيث تقوم الأشجار كثيفةً فوق ألواح الزهور وبرك الماء والبيوت الزجاجية ، تغرد الطيور في أشعة الشمس الحارة ، كلاً على انفراد . طير يغرد تحت نافذة غرفة النوم ؛ وآخر على أعلى غصن في شجيرة الليلاك ، وثالث على حافة الجدار . كلٌّ يغني عالي النغم ، بتوله ، وبحماس ، كأنه يفجر النشيد من باطنه ، حتى ولو شتّت أغنية

twitter @baghdad_library

طير آخر بنشاز فظ . إن عيونها المدورة تنتفخ بالبريق ؛ ومخالبها تطبق على الغصن أو على السياج . إنها تغرد للهواء وللشمس ، عارية بلا مأوى ، ترفل بالحسن برياشها الجديدة ، رياش معرّقة كالأصداف أو مزرّدة كالحراشف البراقة ، مخططة ها هنا بأزرقٍ فاتح ، مخضبة ها هناك بالذهب ، أو موخوطة بريشة براقة واحدة . إنها تغرد فكأن ضغط الصباح يحثها على التغريد حثاً . إنها تقفز كأن حد الكينونة قد استدق فلا بد أن يَقطع ، لا بد أن يَفصم ، نعومة الضياء الأخضر الزرقاوي ، ورطوبة التراب البليل ؛ أبخرة المطبخ الدهنية ؛ روائح لحوم الضان والبقر الساخنة ؛ بذخ المعجنات والفاكهة ؛ القشور والفضلات الرطبة يرميها سطل المطبخ ، فينضح منها بخار وئيد على ركام القمامة . والطيور تخر على كل ما هو مشبع بالماء ، ومبقع بالرطوبة ، وملتوٍ بللاً ، تخر جافة المناقير ، قاسية وباغتة . إنها تخر فجأة من غصن الليلاك أو من السياج . إنها ترصد حلزوناً فتقرع بصدفته على حجر . تقرعها بغضبٍ وبانتظام حتى تنفلق الصدفة فينضح من الصدع شيء قيحي . إنها تدفق وتتعالى متساقطة في طيران شاهق إلى الفضاء ، تزقزق بنغمات قصيرة ، حادة ، وتحط على الأغصان العليا من شجرة ، فترسل نظرها إلى الأوراق والأبراج في الأسفل ، إلى الريف أبيض بزهر البراعم ويفيض بالعشب ، وإلى البحر الذي يقرع كطبلٍ يستدعي كتيبة من جنود يعتمرون عمائم ذات رياش . بين حين وحين تنطلق أغاريد الطيور معاً بنغمات سريعة كغدير جبلي تتلاحم تياراته ، وما أن تلتقي مياهه حتى تزبد وترغو فتتمازج ، ثم تعجل لتصب في القناة نفسها ، وتمر بالأوراق العريضة نفسها . ولكن ثمة صخرة ؛ المياه تنفصل .

الشمس تسقط بأسافين حادة إلى داخل الغرفة . وأيما شيء يمسّه الضياء يوهب وجوداً غلوائياً . فصحن الطعام بحيرةً بيضاء . والسكين

خنجراً من ثلج . وفجأة تكشف الأقداح عن نفسها وقد أبانتها أشعة الضياء . المناضد والمقاعد تنبعث إلى السطح كأنها كانت غارقة تحت الماء فانبعثت ، مكسوّة بشاشة ملونة كالنضارة على قشرة فاكهة ناضجة . العروق البادية على تزجيج صحون الفخار وحبيبات الخشب ، وألياف الحصير ، تضحى محفورة حفراً دقيقاً . كل شيء لا ظل له . الدورق يبلغ درجة من الاخضرار حتى لكأن الفوّهة قد امتصها قمع بقوته الشديدة فالتصقت به كحيوان رخوي يلتصق بالصخر . عندئذ تتخذ الأشكال كتلة لها وحافة حولها . هنا سرّة في كرسي ؛ هناك جرم لخزانة . وما أن يتزايد الضياء حتى تساق أسراب من الظلال أمامه فتتراكب وتتدلى في طيات متعددة الظفائر ، متثنيةً متكسرة في الخلف .

twitter @baghdad_library

قال برنارد «ما أجمل لندن ، ما أغربها ، وهي تمتد أمامي ، متلألئة ، متعددة النتوءات ، متعددة القباب ، تحت الضباب . إنها ، وقد قامت على حراستها عدادات الغاز ومداخن المصانع ، تهجع نائمة إذ نتقرب منها . ها هي تضم جموع الناس إلى صدرها . الصياح كله ، الهرج كله ، محاط بالصمت . روما نفسها لا تبدو أكثر جلالاً . لكننا نتوجه نحوها . إن وسن الأمهات مضطرب فيها . سلسلة تكسوها البيوت تنبعث من الضباب . المصانع ، الكاتدرائيات ، القباب الزجاجية ، المعاهد ، والمسارح ، تقوم منتصبة . القطار المبكر القادم من الشمال يُقذف عليها كأنه صاروخ . إننا نسحب الستارة عند مرورنا . وجوه فارغة مترقبة تحدق بنا إذ نقعقع ونمرق بين المحطات . الرجال يقبضون على جرائدهم بشدة ، إذ تضربهم ريحنا ، فيتصورون الموت . لكننا نمضي هادرين . نحن على وشك الانفجار في جنبات المدينة كقنبرة في جنب حيوان مهيب ، ضخم ، ولود . لندن تتهامس وتغمغم ؛ إنها تنتظرنا .

«على أني إذ أقف ناظراً من نافذة القطار ، أشعر بصورة غريبة ، وبشكل يدعو للاقتناع ، أنني بسبب سعادتي العظيمة (كوني أعلنت خطوبتي) أصير جزءاً من هذه السرعة ، من هذا الصاروخ الذي يُقذف على المدينة . أنا مخدّر ، فلا أحس بضرورة التحمل والقبول والاستكانة . بوسعي أن أقول : يا سيدي العزيز ، لِمَ تتخبط ، فتنزل حقيبتك وتدس فيها

قبع رأسك الذي اعتمرته طوال الليل؟ ما من شيء يمكن أن نفعله سيخدم غرضنا . فمن فوقنا يتولى كل شيء حضانة الإجماع الرائع تمهيداً للتفقيس . إننا نكبَّر ونوقَّر ونصبغ بصبغة التماثل كأننا جناح رمادي تنشره أوزة ذريعة الحجم (هذا صباح رائع إنما لا لون له) لأننا ليس لدينا سوى رغبة واحدة – أن نصل إلى المحطة . أنا لا أريد أن يتوقف القطار بصوت مكمود . لا أريد أن ينقطع الوصال الذي شدنا ونحن نجلس قبالة بعضنا طوال الليل . لا أريد أن أشعر بأن الكراهية والمناحرة قد استأنفتا سطوتهما ؛ ولا أن أشعر برغبات أخرى مختلفة . إن تجمعنا في القطار المسرع ، ونحن جلوس معاً تحدونا أمنية واحدة هي الوصول إلى محطة يوستن ، كان أمراً مقبولاً رحبنا به . لكن مهلاً! لقد انتهى الأمر . فقد حققنا رغبتنا . القطار يأخذنا إلى رصيف المحطة . العجالة والبلبلة ورغبة الجميع بالخروج من الباب إلى المصعد قبل الآخرين كلها مشاعر تفرض فرضاً جلياً . لكنني لا أرغب بأن أكون أول الخارجين من الباب لأستأنف عبء الحياة الفردية . إني ، ومنذ الاثنين ، حين قبلت بي الفتاة زوجاً ، مشحون الأعصاب بحس الهوية ، أنا الذي لا يمكنني أن أرى فرشاة أسنان في كأس إلا قلت : (هذه فرشاتي) ، أرغب الآن بأن أرخي يدي وأتخلى عن مقتنياتي ، لا أبغي إلا الوقوف هنا في الشارع ، من دون مشاركة بشيء ؛ وأرقب الحافلات ، بلا رغبة ؛ بلا حسد ؛ أما لو كان لعقلي مضاء لكنت وقفت بفضول لا حدود له مستفهماً عن المصير الإنساني . لكن عقلي لا مضاء له . لقد بلغت هدفي . وتم قبولي . أنا لا أريد شيئاً .

«ما أن طُرحت مترعاً كطفل ينثني عن ثدي أمه ، حتى صرت حراً لأغرق في هذه الحياة العامة ، الكلية الوجود ، غرقاً عميقاً ، في ما يمر من شؤون الدنيا . (فلأسجل هنا كم من الأمور تعتمد على سراويل المرء ؛ إن الإنسان الذكي تعيقه السراويل الرثة كل الإعاقة) . ويلاحظ المرء تردداً

twitter @baghdad_library

غـريبـاً عند باب المصـعـد . أمن هنا ، أم من هناك ، أم من طريق ثالث؟ عندئذ تؤكد النزعة الفردية ذاتها فتتضح بجلاء . الآخرون انطلقوا ذاهبين . كلهم يلجئهم إلى هذا وطر يريدون قضاءه . إن شأناً من الشؤون التافهة ، كالحفاظ على موعد ، أو شراء قبعة ، تفصل هذه الكائنات الإنسانية التي كانت متحدة حيناً ما . أما أنا فلا هدف لديّ . لا طموح لديّ . سأبيح لنفسي الانجراف مع الهوى العام . إن ظاهر عقلي يجاري ما يجري كأنه جدول باهت اللون يعكس ما يمر من شؤون الدنيا . إني لا أستطيع أن أتذكر حياتي الماضية ، أو أن أتذكر شكل أنفي ، أو لون عينيّ ، أو رأيي بنفسي ما هو بشكل عام؟ أما في لحظات الطوارئ ، عند موقع للعبور ، أو انعطاف لشارع ، ففي إبّانها فقط تنبعث رغبتي في الحفاظ على جسدي فتستولي عليّ وتوقفني ، هنا ، أمام هذه الحافلة . إننا نصرّ ، كما يبدو ، على العيش . من ثم تحل اللامبالاة . هدير حركة المرور ، ومرور الوجوه المتماثلة الملامح ، من هنا ومن هناك ، تخدّرني حدّ الحلم ؛ تمحو القسمات من الوجوه . قد يمشي الناس من خلالي . ثم ، ما هي هذه اللحظة من الزمن ، ما هو هذا اليوم بالذات الذي أجد نفسي فيه مأخوذاً على يدي؟ إن ضجيج حركة المرور قد يكون من أي نوع -حفيف أشجار في الغابة أو زئير وحوش في البرية . لقد رجع الزمن سريعاً بوصة أو بوصتين مرتداً على عقبيه ؛ أما تقدمنا القصير الأمد فقد ألغي . إني أظن أيضاً أن أجسادنا هي في حقيقة الأمر عارية . نحن لا نغطي عوراتنا إلا بملابس مزرّرة ، وعلى نحو شفاف ؛ فتحت هذه الأرصفة ثمة أصداف وعظام وصمت .

«بيد أن الحق هو أن حلمي ، تقدمي المتردد كشخصٍ ينجرف تحت مجرى الماء ، إنما يقاطَع ، يمزق ، يوخز وينتف بانفعالات ، فورية وغير جوهرية ، من الفضول ، والجشع ، والشهوة . انفعالات عديمة المسؤولية كما في النوم . (إني أحسد تلك الحقيبة . . . إلخ) . ولكني أرغب بالغوص في

الأشياء ؛ أرغب بالذهاب إلى الأعماق الحقة ؛ بأن أمارس أحياناً امتيازي بألا أفعل شيئاً على الدوام ، بل أن استكشف ؛ بأن أسمع أصوات غامضة ، سلفية ، من غصون تسقسق ، ومن حيوانات منقرضة ؛ بأن أطلق العنان لشهوات مستحيلة تروم احتضان العالم بأسره بأحضان التفهم – مستحيلة على الذين يفعلون . ألست إذ أمشي ، مرتجفاً تصحبني ذبذبات متنوعة غريبة من التعاطف ، أجدني ما أن أرخي حبالي التي تشدني بمرسى الكينونة الخاصة ، حتى تحدوني تلك الذبذبات إلى أن أحتضن هذه الأسراب المستغرقة من الناس ، هؤلاء المحدقين والجوّالة ، هؤلاء الصبيان السعاة والفتيات الخُلّس والهاربات ، اللاتي يتجاهلن مصيرهن المحتوم ، فينظرن في واجهات المخازن؟ لكنني مدرك لمرورنا السريع الزوال .

«بيد أن الحق هو أنني لا أستطيع إنكار حس بأن الحياة بالنسبة إليّ هي الآن مطوّلة على نحو غامض . أ لأنني قد أنجب أطفالاً ، قد أقذف بالذراري على مدى أوسع ، إلى ما بعد هذا الجيل ، هذا الجمع من السكان المحاط بمصير مطبق محتوم ، وهم يتدافعون بالمناكب متبارين في منافسة لا نهاية لها على طول الشارع؟ إن بناتي سيأتين إلى هنا ، في مواسم صيف أخرى ؛ أبنائي سيحرثون حقولاً جديدة . لذا فلسنا سوى قطرات من مطر ، سرعان ما تجففها الريح ؛ إننا نجعل الجنائن تموج والغابات تهدر ؛ ونأتي مختلفين دائماً وأبداً . هذا يساعد إذن على تفسير ثقتي ، استقراري المركزي ، وهو في ما عدا ذلك استقرار أخرق بشكل فظيع وأنا أتصدى لمجرى هذه الجادة المزدحمة ، أشق لنفسي على الدوام ممراً بين أبدان الناس ، منتهزاً لحظات آمنة للعبور . ليس هذا غروراً ؛ ذلك أنني خال من الطموح ؛ أنا لا أتذكر مواهبي الخاصة ، أو خواصّي ، أو العلاقات ا لفارقة التي أحملها على شخصي ؛ عيناي ، أنفي ، أو فمي . إني لست ، في هذه اللحظة ، أنا نفسي .

twitter @baghdad_library

«ولكن مهلاً ، فالأمر يعود . إن المرء لا يستطيع إزالة تلك الرائحة الملحة . إنها تنفذ من خلال صدع ما في البناء - الأمر هو هوية الإنسان . إني لست جزءاً من الشارع - كلا ، إني أرقب الشارع . لذلك ، فالمرء ينفصم . خذ مثلاً ، ففي ذلك الشارع الخلفي ثمة فتاة تنتظر ؛ تنتظر من؟ قصة رومانسية . وعلى جدار ذلك الدكان عُلقت رافعة صغيرة ، فلماذا عُلقت تلك الرافعة هناك؟ تخيلت سيدة مزرورقة منتفخة ، مطبقة على ما حولها ، وهي تُحمل من مركبة تجرها الخيول من قبل زوج يتصبب عرقاً . قصة مضحكة مبكية . بمعنى أنني أسك الألفاظ على سليقتي ، أنفخ الفقاعات في هذا الشيء أو ذاك . وما أن أمحو هذه الملاحظات فورياً حتى أفيض بشرح نفسي ، وأقوم بتوضيح نفسي وتمييزها ، وما أن أصغى إلى الصوت الذي يقول لي وأنا أسير (مهلك! دوِّن شيئاً عن هذا الذي تراه!) حتى أتصور نفسي مدعوة ، في ليلة ما من ليالي الشتاء ، للإتيان بمعنى لكل مشاهداتي -لرسم خيط يمتد من شيء إلى آخر ، لوضع موجز يجمل كل شيء . لكن مناجاة النفس في الشوارع الخلفية سرعان ما يصيبها الكلل والملل والخطل . أنا بحاجة إلى مستمعين . هذا هو سقوطي . هذا يوهن مضاء القول الفصل ويحول دونه . إني لا أستطيع أن أجلس في مطعم وأطلب نفس الكأس يوماً بعد يوم وأُشرب نفسي كلياً في محلول واحد -محلول هذه الحياة . إني أصنع جملتي وأنطلق بها إلى غرفة ما مؤثثة لتضاء الجملة بعشرات الشموع . إني بحاجة إلى عيون تسلط عليّ لكي تستخرج هذه الرياش . ولكي أكون نفسي (إني ألاحظ) فأنا بحاجة إلى ضياء عيون الآخرين ، ولذا لا أستطيع أن أكون واثقاً كل الوثوق ما هي ذاتي . إن الطبعات الأصلية من الناس ، من مثل لويس ورودا ، توجد بالتمام في الوحدة . هؤلاء يستاؤون من الضياء ويستنكرون تكرار الطبعات . وهم إذا رسمت صورهم ووجوههم مطرقة إلى الأرض قذفوا بها

إلى الحقل . الثلوج تتراكم على كلمات لويس تراكماً كثيفاً . كلماته تصدر منضغطة ، مكثفة ، وصابرة .

«إني أرغب إذن ، بعد هذا الوسن ، بأن أتلألأ ، كماسةٍ تشعشع في نور وجوه الأصدقاء . لقد استكشفت الإقليم غير المشمس الذي تنعدم فيه الهوية . إنه أرض غريبة . وسمعت في لحظة مهادنتي ، في لحظة رضائي الماحق ، أنفاس الموج في شهيقها وزفيرها وهي تمتد إلى ما وراء هذه الدائرة من الضياء البراق ؛ إلى ما وراء هذا القرع من الغضب المجنون . إني لم أحض إلا بلحظة واحدة من السلام الفاره . لعل هذا هو السعادة . والآن أعود أدراجي بتأثير انفعالات واخزة ؛ بتأثير الفضول ، والجشع (إني جائع) والرغبة التي لا تقاوم بأن أكون أنا نفسي . إني أفكر بمن أستطيع أن أقول لهم شيئاً : لويس ، نيفيل ، سوزان ، جيني ، ورودا . فمعهم أكون متعدد الجوانب . إنهم يستنقذونني من الظلام . سنلتقي هذه الليلة ، فالحمد لله . الحمد لله ، فلن أكون لوحدي . سنتناول العشاء معاً . سنودع برسيفال ، فهو ذاهب إلى الهند . الميعاد لم يزل بعيداً ، لكني أحس أصلاً بوجود أولئك الممهدين لما سيأتي من أحداث ، أولئك المرافقين للمواكب على صهوات الجياد ، ألا وهم أصدقائي كما أتخيلهم في غيابهم . إني أرى لويس قُدّ من حجر بقسمات منحوتة ؛ ونيفيل ، قاطع الرأي دقيقاً ؛ وسوزان بعينين كأنهما من بلور ؛ وجيني ترقص كاللهيب ، محمومة ، ساخنة ، فوق أرضٍ يابسة ؛ ورودا حورية النافورة فهي بليلة على الدوام . هذه صور خيالية مفرطة – هذه تلفيقات ، وهي تصورات عن أصدقائي كما أتخيلهم في غيابهم ، تصورات مضحكة مبكية مفرطة في المبالغات ، مشوهة ، وتتهاوى عند تمحيصها وتطبيقها على واقع الحال . مع هذا فهؤلاء الأصدقاء يوقظوني من سباتي . ينفخون هذه الأبخرة . إني بدأت أضيق ذرعاً بالوحدة – بدأت أشعر بسُجُفها تتدلى من حولي حانقة ، لا توحي

twitter @baghdad_library

بالعافية . ما أروع أن أرمي بالأخيلة جانباً فأعود إلى الفعل! أي شخص سيفي بالمرام . أنا لست المطالِب الملحاح . الكناس سيفي بالمرام ؛ ساعي البريد سيفي بالمرام ؛ النادل في هذا المطعم الفرنسي ؛ والأفضل من كل هؤلاء صاحب المطعم الطيب ، وكأن طيبته مخصصة للمرء بالذات . إنه يخلط السلطة بيديه لزبون ذي امتياز . فمن هو الزبون ذو الامتياز؟ ولماذا؟ وما الذي يقوله للسيدة ذات الأقراط ؛ هل هي صديقة له أم زبونة في المطعم؟ إني أشعر على الفور ، وأنا أجلس إلى مائدة من الموائد ، بالضوضاء الصادرة عن البلبلة ، وعدم الوثوق ، والإمكانية المتاحة ، والتكهن بما هو متوقع . الأخيلة تتكاثر فورياً . إني محرج من خصوبة خيالي . أستطيع أن أصف كل مقعد ومائدة وطاعم هنا وصفاً وفيراً ، حراً . رأسي يطن هنا وهناك بغلالته من الكلمات المناسبة لكل شيء . الكلام ، حتى مع الساقي بشأن النبيذ ، يحدث انفجاراً . فإذا بالصاروخ يتصاعد . حبيباته الذهبية تتساقط على تربة خيالي الغنية ، فتخصبها . ويا للطبيعة المباغتة لهذا الانفجار - هذا هو جذل المطارحة في الحديث . أنا ، وقد اختلطت بنادلٍ إيطالي مجهول - من أكون؟ لا استقرار في هذا العالم . من ذا الذي يعرف المعنى الكامن في الأشياء؟ من ذا الذي يتنبأ بكلمة جواب؟ إنها شيء يطير فوق أعالي الأشجار . أما الحديث عن المعرفة فلا جدوى منه . كل شيء تجريب ومغامرة . إننا نمزج أنفسنا على الدوام بكميات أخرى مجهولة . ما الذي سيحدث؟ لا أدري . لكني وأنا أضع كأسي على المائدة أتذكر شيئاً : لقد عقدت خطوبتي لكي أتزوج . وسأتناول العشاء هذه الليلة مع أصدقائي . أنا برنارد بالذات» .

قال نيفيل «إنها الآن الثامنة إلا خمس دقائق . لقد جئت مبكراً ، اتخذت مكاني على المائدة قبل الوقت بخمس دقائق لكي أتذوق كل لحظة من لحظات الانتظار والتوقع ؛ لكي أرى الباب ينفتح فأقول : هل هو

برسيفال؟ كلا ؛ إنه ليس برسيفال . ثمة سرور معتل في قولي : كلا ، إنه ليس برسيفال . لقد رأيت الباب ينفتح وينغلق عشر مرات إلى الآن ؛ في كل مرة يزداد التوتر حدةً . هذا هو المكان الذي إليه سيأتي . هذه هي المائدة التي إليها سيجلس . هنا سيكون جسده الفعلي ، وإن كان هذا في ما يبدو غير قابل للتصديق . إن هذه المائدة ، هذه المقاعد ؛ هذه المزهرية المعدنية بأزهارها الحمر الثلاث ، يعتريها كلها نحول استثنائي فائق . أما الغرفة ، بأبوابها الدوارة ، بموائدها المركومة بالفاكهة واللحوم الباردة ، فتكتسي منذ الآن بمظهر مرتعش ، غير حقيقي ، هو مظهر المكان الذي ينتظر المرء فيه متوقعاً حدوث شيء ما . الأشياء ترتعش كأنها لم تبلغ بعد حالة الكينونة . الفراغ على غطاء المائدة الأبيض تحبه العين . العداء ؛ واللامبالاة من الآخرين الذين يتناولون عشاءهم هنا ، هما مما تنقبض له النفس . أحدنا ينظر إلى الآخر ، فيكتشف أن أحدنا لا يعرف الآخر ، فنحملق ، وننصرف . مثل هذه النظرات سياط . إني أشعر أن قسوة الناس أجمعين وما في العالم من عدم اكتراث يكمن في هؤلاء . فإذا لم يات برسيفال فلن أطيق الاحتمال . سأذهب . مع هذا لا بد أن أحداً يراه الآن . لا بد أنه في سيارة ما ؛ لا بد أنه يمر بدكانٍ ما . لكأنه يضخ في هذه الحجرة هذا الضياء الواخز ، هذه القوة الشديدة الكينونة ، حتى أن الأشياء لتفقد استعمالاتها الاعتيادية – هذه السكين هي عبارة عن ومضة ضياء ، لا شيئاً للقص . إن الوضع الاعتيادي قد ألغي .

«الباب ينفتح ، لكن برسيفال لا يأتي . ها هو لويس يبدي تردداً هناك . هذا هو بمزيجه العجيب من الثقة والحياء . إنه ينظر في المرآة عند دخوله ؛ يلمس شعره ؛ إنه غير راضٍ عن مظهره .

ويقول : (أنا دوق كبير –آخر السلالة العريقة) . إنه قارص ، شكوك ، متسلط ، صعب (أنا أقارنه بيرسيفال) . وفي الوقت عينه هو مخيف ، ذلك

twitter @baghdad_library

أن ثمة ضحك في عينيه . لقد رآني . ها هو هنا» .

قال لويس «ها هي سوزان ، إنها لا ترانا . وهي لم تلبس ملابس السهرة لأنها تحتقر عبثية لندن . إنها تقف هنيهة عند الباب الدوار ، تنظر من حولها ككائنٍ يعشيه ضياء المصباح . إنها تتحرك الآن . وحركاتها تسترق الخطى وإنْ كانت حركات واثقة (وهذا حتى في ما بين الموائد والمقاعد) كما هي حركات الوحش البري . لكأنها تجد طريقها بالغريزة وهي تجوب بين هذه الموائد الصغيرة ، لا تمس أحداً ، متجاهلة الخدم ، مع هذا تأتي مباشرة إلى مائدتنا في الزاوية . وحين ترانا (نيفيل وأنا) يتخذ وجهها طابعاً من الوثوق مفزعاً ، فكأنها قد نالت ما تريد . إنك لو أحببتك سوزان فأنت إذن هالك بخازوق من منقار طير حاد ، لم تُدق بمسمار في باب مخزن الغلال . مع هذا ثمة لحظات أتمنى أنا فيها أن يرميني منقار بنصله ، ثم أسمّر على باب مخزن الغلال ، بالتأكيد ، وإلى الأبد .

«رودا أتت الآن ، لا أدري من أين ، وقد تسللت بيننا ونحن ساهون . لا بد أنها سلكت درب العذاب ، وهي تختبئ مرة وراء نادل ومرة وراء عمود قشيب ، لكي تؤجل صدمة التعرف عليها أطول مدة ممكنة ، ولكي تأمن على نفسها لحظة أخرى حتى تهز تويجاتها في طاستها من الماء . إننا نوقظها . نعذبها . وهي توجس خيفةً منا ، تزدرينا ، ولكنها تتمايل فزعاً عند مجيئها إلينا باستخذاء وذلك لأن هناك على الدوام إسماً ما ، وجهاً ما ، يلقي بريقاً يضيء لها طريقها ويمكنها من تجديد أحلامها» .

قال نيفيل «الباب ينفتح ، وباستمرار ، مع هذا فهو لا يأتي» .

قالت سوزان «ها هي جيني . إنها تقف عند الباب . لكأن كل شيء يتوقف عن الحركة . النادل يقف . الجالسون إلى مائدة العشاء قرب الباب ينظرون . لكأنها تُمركز كل شيء ؛ المناضد ، الأبواب ، النوافذ ، السقوف ، تطلق أشعتها كأشعةٍ تحيط بالنجمة وسط زجاج نافذة مهشم . إنها تصل

بالأشياء إلى نقطة محددة ، إلى نظام . إنها الآن ترانا ، فتتحرك ، وإذا بالأشعة كلها تترجرج وتفيض وتتمايل من فوقنا ، لتأتي بأمواج جديدة من الانفعالات . إننا نتبدل . لويس يضع يده على رباطه . نيفيل ، الذي يجلس منتظراً بتوتر ملتاع ، يعدّل بانفعال الشوكات التي أمامه . رودا تراها بدهشة ، كأنها رأت ناراً تستعر على أفقٍ ما بعيد . أما أنا ، وإن كنت أركم عقلي بعشبٍ رطب ، بحقول بليلة ، بصوت المطر على السقف وهبّات الريح التي تضرب البيت في الشتاء ، وبذا أصون روحي من خطر هذه المرأة ، فأحس باستهزائها يدب من حولي ، أحس بضحكها يلوي ألسنته النارية من حولي ولا يتوانى عن أن يشعل ثوبي الرث ، وأظافري المقصوصة قصيراً التي أخفيها في الحال تحت غطاء المائدة» .

قال نيفيل «إنه لم يأت . الباب ينفتح وهو لا يأتي . هذا برنارد . إنه إذ يخلع معطفه يُظهر ، بالطبع ، القميص الأزرق تحته أبطيه . من ثم فإنه ، على خلافنا جميعاً ، يدخل من دون أن يفتح باباً ، من دون أن يعرف أنه يدخل غرفة مليئة بالغرباء . إنه لا ينظر في المرآة . شعره أشعث ، لكنه لا يدري . إنه لا يدرك بأننا نختلف عنه ، أو أن هذه المائدة هي هدفه . وهو يبدي تردداً في طريقه إلى هنا . من هذه؟ يسأل نفسه ، فهو على شبه معرفة بامرأة بمعطف الفراء مما يُرتدى في الأوبرا . إنه على شبه معرفة بالجميع ؛ ولا يعرف أحداً (أنا أقارنه ببيرسيفال) . أما الآن ، وقد أحس بوجودنا ، فإنه يلوّح بتحية كريمة ؛ وينقض علينا بنوع من اللطف ، بنوع من محبة الإنسانية (وقد شطبت تفكهاً) لعبثيتها ، كما يشعر الآخرون أصلاً ، لولا بيرسيفال ، الذي يحوّل كل هذا إلى بخار ، ولسان حال الجميع يقول : الآن هو وقت احتفالنا؟ الآن نحن معاً . ولكن من دون بيرسيفال ليس ثمة صلادة . ما نحن إلا خيال الظل ، طيوف جوفاء تجري على نحوٍ غبشي دونما شيء من ورائها .

twitter @baghdad_library

قالت رودا «الباب الدوار يستمر بالانفتاح . الغرباء يستمرون بالدخول ، أناسٌ لن نراهم مرة أخرى قط ، أناسٌ يمرون بنا لماماً على نحو مستقبح مظهرين حنقهم ، عدم اكتراثهم ، والإحساس بعالم يستمر من دوننا . إننا لا نستطيع أن نغرق ، لا نستطيع أن ننسى وجوهناً . حتى أنا وأنا لا وجه لي ، أنا التي لا أقدِّم ولا أؤخر (سوزان وجيني تبدلان ، حين تدخلان ، الأجساد والوجوه) أرتعش حين أدخل ، لا أحس بالانتماء ، وبلا مرسى في أي مكان ، غير متماسكة القوى ، غير قادرة على تكوين أي شيء ، سواء كان فزعاً أو استمرارية أو جداراً تتحرك أمامه هذه الأجساد . ما هذا إلا من جراء نيفيل وتعاسته . إن رائحة تعاسته النفاذة تشتت كياني . ما من شيء يمكن أن يستقر ؛ ما من شيء يمكن أن يرسب . في كل مرة ينفتح الباب فإنه ينظر نظرة ثابتة إلى المائدة - لا يجرؤ أن يرفع عينيه - ثم ينظر ثانية واحدة ويقول : (إنه لم يأت) لكن ها هو هنا» .

قال نيفيل «الآن شجرتي تزهر . قلبي يطمئن . ما أحسه من انقباض قد انفرج . المعوقات زالت جميعاً . عهد الفوضى انتهى . لقد تم فرض النظام . السكاكين تقطع مرة أخرى» .

قالت جيني «ها هو بيرسيفال . إنه لم يلبس لباس السهرة» .

قال بيرنارد «ها هو بيرسيفال ، يمسد شعره ، لا كبرياءً (إنه لا ينظر في المرآة) بل لاسترضاء إله الحشمة . بيرسيفال رجل تقليدي ؛ إنه بطل . الصبيان يركضون خلفه في الملعب . يتمخطون إذ يتمخط ، ولكن بشكل غير ناجح ، ذلك لأنه بيرسيفال . الآن ، وقد أوشك على مغادرتنا ، للذهاب إلى الهند ، فإن كل هذه التوافه تتجمع . إنه بطل ، إي نعم ، وهذا لا ينكر ، وحين يأخذ مقعده بجنب سوزان ، التي يحبها ، فقد توِّجت المناسبة . نحن الذين نزعق كأبناء آوى ونعض كعوب بعضنا بعضاً

نتخذ الآن الطابع الرصين والواثق كجنودٍ بحضرة رئيسهم . نحن الذين فرقنا شبابنا (أكبرنا لم يبلغ بعد الخامسة والعشرين) ، نحن الذين غرّدنا كطيورٍ وآلهةٍ فغنى كل منا أغنيته وقرعنا بأنانية الشباب العنيدة والمتوحشة صَدَفَةً حلزوننا حتى تصدعت (أنا مخطوب) ، أو حططنا على انفراد خارج نافذة لغرفة نوم وغنينا أغاني الحب ، والشهرة والتجارب المنفردة الأخرى العزيزة جداً على الطير الغر ذي الخصلة الصفراء على منقاره ، نحن الآن نقترب من بعضنا ؛ وإذ تجرجر أقدامنا مقتربين في محطّنا بهذا المطعم حيث تتباين اهتمامات كل واحد منا عن اهتمامات الآخر ، وحركة المرور التي لا تنقطع تهزأ بنا بما تلهينا به عما نحن فيه ، والباب الذي يفتح على الدوام قفصه الزجاجي يغرينا بما لا يعد ولا يحصى من المغويات ويهيل على ثقتنا بأنفسنا الإهانات والجروح - نجلس معاً هنا ، فنحب بعضنا بعضاً ونؤمن بقدرتنا على المصابرة والاحتمال» .

قال لويس «الآن فلنخرج من ظلام الوحدة» .

قال نيفيل «الآن فلنقل ، بشكل قاسٍ ومباشر ، ما في خواطرنا . فعزلتنا انتهت ، كذلك استعدادنا . أيام المكر الحافلة بالسرية والتستر ، الكشف عما في النفس على درجات السلالم ، لحظات الفزع والوجد ، كلها انتهت» .

قال برنارد «رفعت السيدة كونتسابل اسفنجتها فانثال علينا الدفء . اكتسينا بهذا الرداء المتغير ، ذي الشعور ، من اللحم والدم» .

قالت سوزان «صباغ الأحذية الصبي ضاجع الفتاة الغسالة في حديقة المطبخ بين ملابس الغسيل المنشورة على الحبال» .

قالت رودا «أنفاس الريح كانت كنمرٍ يلهث» .

قال نيفيل «الرجل ينطرح في البالوعة شاحباً مزرّقاً وقد جُزت رقبته . وعند صعودي إلى الطابق الأعلى لم أستطع رفع قدمي إزاء شجرة التفاح

twitter @baghdad_library

التي لا تسكن وأوراقها الفضية متصلبة» .

قالت جيني «الورقة ترقص في السياج المزهر من دون أن ينفخها أحد» .

قال لويس «في الزاوية التي تشويها الشمس تسبح التويجات في أعماق من الخضرة» .

قال برنارد «في قرية إيلفيدون يكنس البستانيون بمكانسهم الكبيرة ، والمرأة تجلس إلى منضدة تكتب» .

قال لويس «من كراة الخيوط هذه المكورة كل التكوير نسحب الآن كل شعيرة ، فنتذكر ، حين نلتقي» .

قال برنارد «ثم جاءت سيارة الأجرة إلى الباب ، وقد أنزلنا قبعاتنا العالية الجديدة على عيوننا نضغطها بشدة لنخفي دموعنا التي لا تنم عن رجولة ، ومضينا خلال الشوارع حيث نظرت إلينا حتى خادمات البيوت ، وأسماؤنا مصبوغة بحروف بيضاء على صناديقنا معلنة للعالم كله أننا في طريقنا إلى المدرسة مصطحبين صناديقنا وفيها العدد اللازم من الجوارب والملابس الداخلية ، وقد طرزت عليها أمهاتنا في الليالي السابقة الحروف الأولى من أسمائنا . انفصال ثانٍ عن جسد أمنا» .

قالت جيني «الآنسة لامبرت والآنسة كلتنغ والآنسة بارد ، سيدات إحداهن كالطود العظيم ، بكشاكش الرقبة البيضاء ، سيدات مبهمات بلون الحجر ، تتحرك أصابعهن بخواتم الأحجار الكريمة كشموع بكر رقيقة ، كيراعات معتمة ، فوق صفحات اللغة الفرنسية والجغرافيةً والحساب ، وهن يقمن بالتدريس ؛ وكان هناك خرائط ، ولوحات من جوخ أخضر وصفوف من الأحذية على رف» .

قالت سوزان «الأجراس تدق في مواعيدها ، والخادمات يتشاجرن ويتضاحكن . المقاعد تسحب إلى الداخل وتسحب إلى الخارج على أرضية

المطاط . ولكنْ ثمة منظر أزرق يظهر من غرفة عالية ، منظر ناءٍ لحقلٍ لم يتلوث بفساد هذا الوجود غير الواقعي ، الجاري على نسق واحد» .

قالت رودا «من رؤوسنا تساقطت البراقع . إننا نمسك بالأزهار وأوراقها الخضر تسقسق في ظفائرها» .

قال لويس «لقد تغيرنا ، فغدونا نستعصي على التعرف . وما أن تعرضنا لكل هذه المؤثرات المختلفة حتى ظهر ما فينا (ذلك أننا جميعاً مختلفون كل الاختلاف) على نحو متقطع ، وبشكل بقع عنيفة ، تفصلها فجوات فارغة ، ظهر إلى السطح كأن محلولاً حامضياً سقط في الصحن بصورة غير متساوية . أنا هذا ، نيفيل ذاك ، رودا مختلفة أيضاً ، وبرنارد أيضاً» .

قال نيفيل «ثم انسلت الزوارق خلال أغصان شاحبة الصبغة ، أما برنارد ، وهو يتقدم على شاكلته العفوية ومن خلفه أعماق من الخضرة ، ومن بيوتات ذات أساس عريق جداً ، فقد ارتمى كتلة واحدة على الأرض بجانبي . وبفورة عاطفية -فورة لا الرياح أكثر منها عصفاً ، ولا البرق أشد فجاءة- تناولت قصيدتي ، رميت بقصيدتي ، صفقت من خلفي الباب» .

قال لويس «أما أنا ، فبعد ابتعادي ، جلست في مكتبي ومزقت تاريخ الأيام من التقويم ، وأعلنت لعالم سماسرة السفن وبائعي القمح والمحاسبين القانونيين أن يوم الجمعة العاشر من الشهر أو الثلاثاء الثامن عشر منه قد أهلّ على حي العمال في مدينة لندن» .

قالت جيني «أما نحن ، رودا وأنا ، فكلتانا انحنت عارية الصدر بثوبها البراق ، مكشوفة الجيد إلا من بضعة أحجار كريمة تعشش على طوقٍ بارد ، وصافحت الأيادي ، وتناولت مبتسمةً أداماً من صحن» .

قالت رودا «النمر وثب ، والسنونو غمس أجنحته في برك مظلمة على الطرف الآخر من العالم» .

twitter @baghdad_library

قال برنارد «لكننا ، هنا والآن ، معاً ، جئنا معاً ، في وقتٍ بعينه إلى هذا المكان بعينه . استدرجتنا إلى هذا الوصال عاطفة ما عميقة ، مشتركة . هل ندعوها ، للسهولة ، بـ (الحب)؟ هل نقول (حب بيرسيفال) لأن بيرسيفال ذاهب إلى الهند؟

«كلا ، إن الحب اسم أصغر مما ينبغي ، اسم أضيق مما ينبغي . إننا لا نستطيع أن نربط عمق مشاعرنا وانتشارها بهذه العلاقة البالغة الصغر . لقد جئنا معاً (من الشمال ، من الجنوب ، من مزرعة سوزان ، من مؤسسة أعمال لويس) لنقوم بشيء واحد ، غير باقٍ -فما الذي يبقى؟- لكنه يُرى بعيون متعددة في آنٍ واحد ,هناك قرنفلة حمراء واحدة في تلك المزهرية . زهرة واحدة لكنها الآن ، ونحن نجلس هنا منتظرين ، سباعية الجوانب ، عديدة التوويجات ، حمراء ، داكنة الحمرة ، أرجوانية الظلال ، صلبة بأوراق فضية الصبغة - زهرة تامة تسهم فيها كل عينٍ بسهمها بالذات» .

قال نيفيل «بعد النيران النزقة ، وملل الشباب السحيق الغور ، سقط الضياء على أشياء حقيقية الآن . ها هي أمامنا سكاكين وأشواك . إن العالم معروض بما فيه علينا ، ونحن أيضاً ، حتى نستطيع أن نتحدث» .

قال لويس «إننا نختلف ، وقد يكون اختلافنا أعمق من التفسير . لكن فلنحاول تفسيره . فقد مسّدت شعري حين دخلت ، راجياً أن أبدو مثلكم . لكن لا أستطيع ، ذلك أنني لست منفرداً وتاماً مثلما أنتم كذلك . فقد عشت أصلاً ألف ألف حياة . في كل يوم أنبش - أنقب . فأعثر على بقايا من نفسي مطمورة في الرمال مما صنعته النساء قبل آلاف السنين ، حينما سمعت أغانٍ قرب النيل وسمعت الوحش المغلول يدك الأرض . إن الذي ترونه بجنبكم ، هذا الرجل ، لويس هذا ؛ ليس سوى تراب الفحم ونفاية الشيء الذي كان رائعاً حيناً من الدهر . أنا كنت أميراً عربياً ؛ انظروا إلى إشاراتي الطليقة . كنت شاعراً عظيماً في أيام اليزابيث .

كنت دوقاً في بلاط لويس الرابع عشر . إني مغرور جداً ، واثق جداً ؛ ورغبة لديّ لا حدود لها بأن على النساء أن يتنهدن تعاطفاً . لم أتناول غدائي اليوم عسى أن تحسبني سوزان شديد الهزال وعسى أن تسعفني جيني ببلسم عطفها المثالي . لكني إذ أعجب بسوزان وبيرسيفال ، أكره الآخرين ، لأنني إنما من أجلهم أقوم بهذه الألاعيب ، ممسّداً شعري ، مخفياً لكنتي . أنا القرد الصغير الذي يثرثر من أجل جوزة ، وأنتن النساء الزريّات ، تحملن أكياساً براقة من الكعك الفاسد ؛ إني كذلك النمر المحبوس في قفص ، وأنتم الحراس بقضبان محمية حمر . أعني ، أني أشرس منكم وأقوى ، مع هذا فالطيف الذي يظهر فوق الأرض بعد أجيال من التفاهة سيزول فزعاً لئلا تضحكون مني ، أشرس وأقوى في ركوب الريح ضد عواصف السخام ، وفي بذل الجهد لصنع حلقة فولاذية من قصائد الشعر الواضح تربط بصلات الوصل النوارس والنساء ذوات الأسنان النخرة ، أبراج الكنائس والقبعات العريضة المتحركة كما أراها حين أتناول غذائي وأسند ديوان شاعري - هل هو لوقريطس- على مملحة بجانبها قائمة الطعام الملطخة بالمرق» .

قالت جيني «لكنك لن تكرهني قط . إذ ما أن تراني ، وإن عبر غرفة مليئة بالمقاعد الذهبية والسفراء ، إلا جئت إليّ عبر الغرفة تبتغي عطفي . حين دخلتُ الآن سكن كل شيء في نسق ما . الخدم توقفوا ، الطاعمون رفعوا شوكاتهم ممسكين بها . كانت سمتي هي سمة الاستعداد لما سيحدث . وحين جلستُ وضعت أنت يدك على رباطك وأخفيتها تحت المائدة . أما أنا فلا أخفي شيئاً . إني مهيأة . في كل مرة ينفتح الباب أصيح : (هل من مزيد!) لكني مخيلتي تدور حول الأجساد . أنا لا أستطيع أن أتخيل شيئاً في ما وراء الدائرة التي يرسمها جسدي . إن جسدي يمضي أمامي ، كقنديل في درب مظلم ، فيخرج الأشياء واحداً

twitter @baghdad_library

بعد الآخر من الظلام إلى حلقة النور . إني أصيبك بالدوار ؛ أجعلك توقن أن هذا هو كل ما هنالك» .

قال نيفيل «لكنكِ حيث وقفت في الباب فقد فرضت السكون ، وأنت تطلبين الإعجاب ، وفي هذا إعاقة كبيرة لحرية المطارحة في الحديث . أنت تقفين في الباب فتجعلينا نلاحظك . ولكن ما من أحد منكم رآني أجيء . وقد جئت مبكراً ؛ جئت مسرعاً ، وبشكل مباشر ، إلى هنا ، لأجلس بجنب الشخص الذي أحب . في حياتي إسراع لا وجود له في حياتكم . إني كالسلوقي وراء الرائحة . أتصيّد من الفجر إلى الغسق . لا شيء له معنى لي سواء طلب الكمال خلال الرمال ، أو الشهرة ، أو المال . سأحصل على ثروات ؛ وأحوز على شهرة . لكنني لن أحظى قط بما أريد ، لأنني يعوزني الحسن الجسدي والشجاعة التي تصحبه . سرعة عقلي أشدّ كثيراً مما يحتمله جسدي . وأنا أخيب قبل أن أبلغ الهدف فأرتمي كتلة واحدة ، كئيباً ، وقد أثير الاشمئزاز . وفي الملمات أثير الشفقة ، ولا أثير المحبة . لذلك فإني أقاسي كثيراً . لكنني لا أقاسي لكي أجعل من نفسي شيئاً يسر الناظرين كما يفعل لويس . وإحساسي بالحقيقة الواقعة هو أرهف من أن يتيح لي هذه الألاعيب الخادعة ، هذه الذرائع المصطنعة . إني أرى كل شيء -خلا شيء واحد - بوضوح تام . هذا ما أدخره . هذا ما يضفي على شقائي إثارة دائمة . هذا ما يجعلني أملي على الغير الكلام حتى حين أكون صامتاً . وبما أني مخدوع من ناحية واحدة ، بما أن الفرد يتغير دائماً ، وإن لا تتغير الرغبة ، وبما أني لا أعرف في الصباح من سأجالس في المساء ، فإني لست راكداً قط ؛ أنا أنهض من أسوأ كوارثي ، فأستدير ، وأتغير . الحصى يرتد ساقطاً إذا أصاب جسدي المزرد ، القوي ، المتطاول . في هذا السعي سأبلغ شيخوختي» .

قالت رودا «لو أنني أستطيع الاعتقاد بأنني سأبلغ شيخوختي في

السعي والتغير ، لتخلصت من خوفي : أنّ لا شيء يبقى . إن اللحظة الواحدة لا تؤدي إلى الأخرى . الباب ينفتح والنمر يثب . لم يرني أحد منكم وأنا أدخل . درت حول المقاعد لأتجنب تعاسة الوثب . إني أخاف منكم جميعاً . أخاف من صدمة الانفعال التي تثب عليّ ، لأني لا أستطيع معالجتها كما تفعلون - لا أستطيع أن أجعل اللحظة الواحدة تندمج بالتي تليها . جميع اللحظات هي بالنسبة إليّ لحظات عنيفة ، جميعها منفصلة عن بعضها ؛ فإذا هويت تحت الصدمة الناجمة عن وثبة اللحظة فستتجمعون من فوقي ، تمزقونني إرباً . أنا لا أجد هدفاً أمامي . لا أعرف كيف أصل دقيقة بدقيقة وساعة بساعة ، فأذيبها بقوةٍ ما طبيعية إلى أن تتألف منها الكتلة التامة الكاملة التي لا تتجزأ التي تسمونها الحياة . ولأنكم لا تجدون هدفاً أمامكم - أهو شخص ما لمجالسته ، أم هو فكرة ما ، أم هو جمالكم؟ لا أدري - فإن أيامكم وساعاتكم تمر كأغصان شجر الغاب وكالخضرة الناعمة في دروب الغاب أمام السلوقيّ الذي يتعقب الأثر . لكنْ ليس ثمة أثر فرد ، ليس ثمة جسد فرد لأتعقبه . وأنا لا وجه لديّ . أنا كالرغوة التي تجري على الشاطئ أو كضوء القمر الذي يسقط كالسهم هنا على علبة صفيح ، هناك على عنقود من نبات البحر أو على عظمة أو على زورق متآكل . إني أتخبط في كهوف ، وأرف كورقة على أروقة لا تنتهي ، وعليّ أن أضغط يدي على الجدار لكي لا أسقط .

«وبما أني أرغب بالدرجة الأولى بأن أحظى بمثوى فإني أتصنع ، إذ أصعد إلى الطابق الثاني متلكئة خلف جيني وسوزان ، بأنني أجد هدفاً أمامي . أسحب جواربي لارتدائها كما أراها تسحب منهما . إني أنتظركما تتكلمان ثم أتكلم مثلكما . لقد استدرجت إلى هنا عبر لندن إلى موقع بعينه ، إلى مكان بعينه ، لا لكي أراكَ أنتَ أو أنتِ أو أنتِ ، ولكن لكي أوقد ناري من ضرامكم العام أنتم الذين يعيشون عيشة التمام ، من دون

twitter @baghdad_library

تجزئة ، وبلا هم له تعبأون» .

قالت سوزان «حين دخلت قاعة الطعام هذه الليلة وقفتُ ، وتلصصت من حولي كحيوان عيناه بقرب الأرض . رائحة السجاد والأثاث والنكهة السائدة تثير اشمئزازي . أنا أحب أن أسير في الحقول وحدي ، أو أقف عند بوابة وأراقب كلبي الصياد يشمشم في دائرة ، فأسأل : أين الأرنب؟ أحب أن أكون مع أناس يقرصون العشبة البرية بأيديهم ، ويبصقون في النار ، ويجرجرون أقدامهم في ممرات طويلة بأخفافهم كوالدي . الأقوال الوحيدة التي أفهمها هي صيحات الحب والكراهية والغضب والألم . هذا الكلام هو تعرية امرأة عجوز يبدو لباسها وكأنه جزء منها ، أما الآن ، ونحن نتكلم فإنها تزرق من تحت الثوب ، ولها فخذان متغضِّنان ونهدان متهطلان . وحين تسكتون تعودون إلى جملكم . أنا لن أمتلك شيئاً قط سوى السعادة الطبيعية . ولسوف ترضيني . سآوي إلى سريري متعبة . سأستلقي كالحقل يدر حاصلاته بالتعاقب ؛ وفي الصيف يتراقص الحر من فوقي ؛ أما في الشتاء فتصدّ عني البرد . لكن الحر والبرد سيتتابعان طبيعياً سواء شئتُ أم أبيت . أطفالي سيكونون عوناً لي على الاستمرار ؛ شقّهم لأسنانهم ، بكاؤهم ، ذهابهم إلى المدرسة وعودتهم منها ستكون كأمواج البحر من تحتي . من يوم سيخلو من حركته . إني سأفرع على صهوات فصول السنة إلى أعلى منً أيّ أحدٍ منكم . سأمتلك أكثر من جيني ، أكثر من رودا ، حين تأزف منيتي . ولكن ، إذ تتعدد ألوانكم وتظهر غمازة الحسن على خدودكم ألف ألف مرة وأنتم تبتسمون لأفكار الغير وضحكهم ، أكون أنا متجهمة ، وقد لوّحتني الأعاصير ، واحتقن لوني كلياً ، وسيزري بي وَلَهُ الأمومة البهيمي الجميل فلا يبقى عليّ سوى الجلد . إني سأدفع بحظوظ أطفالي إلى الأمام من دون أن أبالي بشيء . سأكره الذين يرون أخطاءهم . سأنحني بضَعَةٍ لمساعدتهم . سأجعلهم

يفصلونني عنكم بجدارٍ سميك ، عنكَ أنتَ وعنكِ أنتِ . كذلك ، فأنا تمزقني الغيرة . إني أكره جيني لأنها تريني أن يدي حمراوان وأن أظافري منقصمة . وأحب بضراوة شديدة حتى أنها لتهلكني حين يظهر من أحب ، أن بوسعه بإطلاقه عبارة واحدة أن يفر . إنه يفر ، أما أنا فأُترك متمسكة بخيط يتسلل في ما بين الأوراق على أعالي الشجر . أنا لا أفهم العبارات» .

قال بيرنارد «لو كنت ولدتُ من دون أن أعرف أن الكلمة الواحدة تتبع الأخرى ، فمن يدري ، لعلي كنت سأصير أي شيء . وكما هو الحال ، وإذ أجد التسلسل في كل مكان ، فإني لا أستطيع تحمل ضغط الوحدة . فحين لا أستطيع رؤية الكلمات تنثني كأنها حلقات الدخان من حولي فإني أكون في الظلام -أكون لا شيء . حين أكون وحدي استسلم للخمول ، وأقول لنفسي مبتسماً وأنا أنبش تراب الفحم من خلال قضبان الموقد : إن السيدة موفات ستأتي . ستأتي وتكنس كل شيء . حين يكون لويس وحده فإنه يبصر بقوة نافذة تثير الدهشة . ثم يكتب كلمات ستبقى من بعدنا جميعاً . رودا تحب أن تكون وحدها . إنها تخافنا لأننا نمزق الحس بالكينونة الذي يكون على أشده في الوحدة - ألا ترون كيف تمسك بشوكتها- وخوفها هو سلاحها ضدنا . لكني لا أعود إلى الوجود إلا حين يقول عامل الأنابيب ، أو تاجر الخيول ، أو كائناً من يكون ، شيئاً يثيرني . فما أروعه عندئذٍ دخان عبارتي وهو يتعالى ويهبط ، يتماوج زاهياً ويتساقط ، على سرطان البحر الأحمر والفاكهة الصفراء ، فيظفرها في جمالٍ واحد . لكن لاحظوا العبارة ما أشدها بهرجة - ومن أي مراوغات وأكاذيب راسخة صنعت . وهكذا فإن شخصيتي مكوّنة جزئياً من الحافز الذي يقدمه الغير ، فهي ليست شخصيتي ، على خلاف حالكم . ثمة سجية ما فتاكة ، عرق ما من الفضة تائه وشاذ ، يوهنها . من هنا الحقيقة

twitter @baghdad_library

التي دأبت تغضب نيفيل في المدرسة ، حتى أنني تركته . ذهبت مع الصبيان المتبجحين ذوي القبعات الصغيرة وعلامات الدلالة وهم يستقلون المركبات الكبيرة - بعضهم موجود هنا الليلة ، وهم يتناولون عشاءهم معاً ، وقد ارتدوا الحلل اللائقة بالمناسبة . قبل أن يذهبوا على أكمل ما يكون الوفاق إلى قاعة الموسيقى ؛ إني أحبهم . ذلك لأنهم يعيدونني إلى وجودي باليقين نفسه الذي به تعيدونني أنتم إليه . من هنا ، كذلك ، فإنكم حين أترككم ويتحرك القطار تشعرون أن الذاهب ليس القطار ، بل أنا ، بيرنارد ، الذي لا يعبأ ، الذي لا يشعر ، الذي ليس لديه بطاقة ، والذي ربما أضاع محفظة نقوده . إن سوزان ، وهي تحدق بالخيط الذي ينسل في ما بين أوراق شجر الزان ، تصيح : (لقد ذهب! لقد جفاني!) ذلك أنه ليس هناك من شيء يمسك به . إني أُخلق ويُعاد خلقي باستمرار . إن شتى الأنواع من الناس يحصلون مني على شتى الأنواع من الكلمات .

«لذا فهو ليس شخصاً واحداً بل هم خمسون أريد مجالستهم الليلة . لكني أنا الوحيد من بينكم الذي يتصرف بحريته كما في بيته وبكل ارتياح من دون رفع الكلفة . أنا لست فظاً ، أنا لست متنفجاً . فإذا انكشف جناحي لضغط المجتمع فغالباً ما أفلح بما لديّ من ذرابة اللسان في أن أضع شيئاً صعباً قيد التداول . انظروا إلى ألاعيبي البسيطة ، تظفر من لا شيء بثانية واحدة ، فإذا بها مسلية . إني لست من ذوي الكنوز - ولن أترك سوى خزانة من الملابس القديمة حين أموت - وأكاد لا أكترث بما في الحياة من خيلاء تافهة والتي أورثت لويس كثيراً من العذاب . لكني ضحيت بالكثير . إني بما فيّ من عروق الحديد والفضة وخصل الطين المشاع لا أستطيع ضم يدي بقبضة حازمة مما يُحكم ضمه هؤلاء الذين لا يعتمدون على حافز . إني غير قادر على تحديات لويس ورودا وبطولاتهما . إني لن أفلح قط ، حتى في الكلام ، بوضع عبارة بالغة الكمال . لكني

سأكون قد ساهمت من أجل اللحظة العابرة بأكثر من أي واحد منكم ؛ سأذهب إلى مزيدٍ من القاعات ، إلى مزيد من قاعات مختلفة ، أكثر من أي واحدٍ منكم . ولكن ، ولأن ثمة شيء يأتي من الخارج لا من الباطن فإني سوف أنسى ؛ حين يسكت صوتي لن تتذكروني ، خلا كصدى لصوت ظفرَ الثمارَ عباراتٍ حيناً من الدهر» .

قالت رودا «انظروا وانصتوا . انظروا كيف يغدو الضياء أكثر ثراءً ، ثانية بعد ثانية ، ويجثم الإزهار والنضج في كل مكان ؛ أما عيوننا فتبدو ، إذ تدور في أطراف هذه القاعة بكل موائدها ، كأنها تتقحم سُجفاً من الألوان شتى ، حمراً وعنبرية مع شياتٍ غريبة مبهمة تنسدل خلفها كغلالات ، فيذوب هذا اللون بذاك» .

قالت جيني «نعم ، إن حواسنا قد رَحُبت . والأغشية وشبكات الأعصاب التي تستقر بيضاء وراخية ، قد أترعت نفسها وانتشرت فطغت من حولنا كأنها عروق ، لتجعل الهواء شيئاً ملموساً وتقنص في باطنها أصواتاً نائية لم تسمع من قبل» .

قال لويس «هدير لندن يملأ الأرجاء من حولنا . السيارات ، الشاحنات ، الحافلات تمر وتكر باستمرار . كلها تندمج في عجلة واحدة دوارة من صوتٍ وحيد . كل الأصوات المنفصلة – من عجلات وأجراس ، من صيحات السكارى والمعربدين – تمخض في صوتٍ واحدٍ دائري وبزرقة الحديد . ثم تصفر صفّارة ما . وعند ذاك تلوذ الشواطئ بعيداً ، وتتسطح المداخن ، وتدلف السفينة إلى البحر الفسيح» .

قال نيفيل «بيرسيفال ذاهب ، ونحن نجلس هنا ، محوّطين تضيئنا الأنوار ، وتكسونا الألوان ؛ كل الأشياء – الأيدي ، الستائر ، السكاكين والأشواك ، الأناس الآخرون من الجالسين للعشاء – تتداخل ببعضها . إننا مسوّرون هنا . لكن الهند تقع في الخارج» .

twitter @baghdad_library

قال بيرنارد «إني أرى الهند . أرى الساحل المنخفض ، الطويل ؛ أرى الدروب المتعرجة من طين داسته الأقدام وهي تتعرج بين هياكل العبادة الخربة ؛ أرى الأبنية الموشاة بالذهب والمشيدة حصوناً وعليها طابع الهشاشة والتفسخ كأنها أقيمت مؤقتاً وعلى عجل في معرض ما من المعارض الشرقية . إني أرى ثورين يجران مركبة واطئة في الطريق الملوّح بالشمس . المركبة تتأرجح بلا سيطرة من طرف إلى طرف . ثم تنطمس إحدى عجلاتها في أخدود ، فيتجمع حولها فوراً عدد لا يحصى من الأهالي مئتزرين لحد الخاصرة ، وهم يثرثرون منفعلين . لكنهم لا يفعلون شيئاً . الزمن يبدو لا نهاية له ، والطموح عبث في عبث . على جميعهم يرين إحساس بعدم الجدوى من الجهد الإنساني . ثمة روائح غريبة فاسدة . وفي حفرة من الحفر يستمر رجل شيخ بمضغ المسواك ويواصل تأمّل سرّته . لكن ، مهلاً ، فإن بيرسيفال يتقدم ؛ بيرسيفال يمتطي فرساً نهشها الذباب ، ويرتدي خوذة الوقاية من الشمس . وبتطبيقه للمقاييس الغربية ، وباستعماله للغلة العنيفة التي هي طبيعية فيه ، وُضعت عربة الثيران في مسارها الصحيح بأقل من خمس دقائق . المسألة الشرقية قد حُلّت . ويمضي بيرسيفال على صهوة الفرس وحشود الناس تتكأكأ عليه ، فتنظر إليه كأنه إله ، وهو حقاً كذلك» .

قالت رودا «إذا كان بيرسيفال رجلاً مجهولاً ، ينطوي على سر أو لا ينطوي على سر ، فالأمر سيان ، فهو كحجر سقط في بركة يتجمع فيها صغار السمك . وكصغار السمك فإننا ، وقد كنا ننطلق إلى هذه الجهة وإلى تلك ، انطلقنا جميعاً حوله حين أتى . وكصغار السمك وعلى وعي بوجود حجر كبير ، فإننا نتماوج وندوِّم بقناعة راضية . الراحة تحوم فوقنا . الذهب يجري في دمائنا . القلب ينبض على اطراد منتظم بحالة من الصفاء والثقة ، والنشوة بطيب العيش والهيام بالخير ؛ فإذا بتلك الأصقاع

القصية من الأرض أمامنا - ظلال باهتة على أقصى الأفق ، الهند مثلاً ، تقوم أمام بصائرنا . إن العالم الذي كان ذاوياً يتماسك ؛ والأقاليم النائية تُستنقذ من الظلام ؛ إننا نرى دروباً طينية ، غابات ملتوية ، وجموعاً من الناس ، والنسر يقتات على جثة ما منتفخة فكأن كل هذا هو في مدى نظرنا ، كأنه جزء من إقليمنا الفخور والرائع ، مذ أن بيرسيفال ، وهو يمتطي وحيداً فرساً ينهشها الذباب ، يتقدم في درب منعزل ، وقد ضرب خيمته بين الأشجار الكالحة ، وجلس وحيداً ، ينظر إلى الجبال الضخام» .

قال لويس «إنه بيرسيفال يجلس صامتاً كما كان يجلس بين العشب الذي يداعب الجسم حين يقسم النسيم الغيوم ثم تتشكل مرة أخرى ، بيرسيفال الذي يجعلنا ندرك أن محاولاتنا عندما نقول : (أنا كذا وأنا كيت) والتي نقوم بها حينما نتجمع كأننا أجزاء منفصلة لبدن واحد ولروح واحدة ، هي محاولات زائفة . إن شيئاً ما قد تُرك خوفاً . شيئاً ما قد عُدِّل غروراً . لقد جربنا إظهار الفوارق . وانطلاقاً من رغبتنا بأن نكون منفصلين فقد أكّدنا أخطاءنا ، وأكدنا ما يهمنا . ولكن ثمة سلسلة تدور من حولنا وتدور ، في حلقة بزرقة الحديد في الأسفل» .

قالت سوزان «إنها الكراهية ، إنه الحب . وذلك هو التيار الغاضب الأسود كالفخم الذي يدير رؤوسنا إذا نظرنا إليه . إننا نقف على نتوء جبلي هنا ، ولكن إذا نظرنا إلى الأسفل نصاب بالدوار» .

قالت جيني «إنه الحب ، إنه الكراهية ، كراهية كالتي تشعر بها سوزان نحوي لأني قبّلت لويس مرة في الحديقة ؛ لأني وأنا أملك ما أملكه من عُدة ، أجعلها تقول لنفسها حين أدخل : (إن يديّ حمراوان) ، فتخفيهما . لكن كراهيتنا لا تكاد تتميز عن حبنا» .

قال نيفيل «مع هذا فإن هذه المياه الهادرة ، والتي عليها نقيم منصاتنا المخبولة هي أكثر استقراراً من الصيحات الطائشة ، الضعيفة ، التافهة ، التي

twitter @baghdad_library

نتفوه بها إذ ننهض ونحن نحاول الكلام ؛ إذ نفكر ونتمشدق بهذه الأقوال الزائفة : (أنا كذا ؛ وأنا كيت!) . الكلام زائف .

«لكني آكل . وبالتدريج أفقد وأنا آكل معرفتي كلها بالصفات الخصوصية . إني أغدو مثقلاً بالطعام . إن هذه اللقم اللذيذة من شرائح لحم البط ، وقد ركمت بما يليق من الخضروات ، لقم تتبع إحداها الأخرى في تعاقب باذخ من الدفء ، والثقل والحلاوة والمرارة ، عند مرورها بلهاتي ، فإلى مريئي ، فمعدتي ، لقم وازنت جسدي . إني أشعر بالسكون ، بالجاذبية ، بالسيطرة . كل شيء صلد الآن . إن لهاتي تتطلب بالسليقة الآن الحلاوة والخفة وتتوقعهما ، تريد شيئاً سكرياً وسريع التلاشي ، ثم النبيذ البارد ، وهو يتلبس على شعيرات الأعصاب المتناهية الدقة فإذا هي ترتعش في سقف حلقي فتجعله (وأنا أشرب) كهفاً مقبباً ، أخضر بأوراق الكروم ، مسكيّ الشذا ، مصبوغاً بلون العناب . الآن بوسعي أن أنظر باتزان في قناة الطاحونة وهي ترغو في الأسفل . بأي اسم خاص ندعوها؟ فلتتكلم رودا ، التي أرى وجهها ينعكس مضبباً في المرآة قبالتي ؛ رودا التي أفسدت عليها تأملها حين كانت تهز تويجاتها في طاسة بنية اللون ، وأنا أسألها عن سكين الجيب التي سرقها بيرنارد . الحب ليس دوّامة مائية بالنسبة إليها . إنها لا تصاب بالدوار حين تنظر إلى الأسفل . إنها تنظر بعيداً من فوق رؤوسنا ، إلى ما وراء الهند» .

قالت رودا «أجل ، فمن بين أكتافكم ، ومن فوق رؤوسكم ، أنظر إلى الطبيعة في منظر من مناظرها ، أنظر إلى تجويف تنحدر فيه الهضاب العالية المتعددة الأكتاف كأنها أجنحة طيور منطوية . هناك ، على الساحل ، على التربة الصلبة المشبعة بجذور الأعشاب ، ثمة أكمات ، قاتمة الأوراق ، وفي ظلمتها أرى شكلاً ، أبيض ، لكنه ليس حجراً ، يتحرك ، ولعله حي . لكنه ليس أنتَ ، ليس أنتِ ، ولا أنتِ ؛ ليس بيرسيفال أو سوزان أو جيني أو

نيفيل أو لويس . حين تستقر الذراع البيضاء على الركبة يكون الشكل مثلثاً ؛ إنه مرة شكل منتصب - عمود قائم ؛ ومرة نافورة ، تتساقط مياهها . إنه لا يشير بعلامة من العلامات ، ولا يومئ مستدعياً ، ولا يرانا . وخلفه يهدر البحر . إنه ليس في متناولنا . مع هذا فإنني أغامر هناك . أذهب هناك لأروي فراغي ، لأطيل لياليّ فأحشدها حشداً بالأحلام . ولثانية واحدة حتى في هذا الوقت الآن ، حتى هنا ، أبلغ مطلبي فأقول (لا تجواب بعد الآن . كل شيء آخر هو تجريب وتخيل . هنا النهاية) . لكنّ هذا الحج ، ولحظات الانطلاق ، تبدأ دائماً بحضوركم ، من هذه المائدة ، من هذه الأضواء ، من بيرسيفال وسوزان ، هنا والآن . إني أرى دائماً البستان من فوق رؤوسكم ، من بين أكتافكم ، أو من نافذةٍ ما حين أعبر القاعة في حفلة من الحفلات وأقف فأنظر إلى الشارع» .

قال نيفيل «وماذا عن خُفّيه؟ عن صوته في الطابق الأرضي في الردهة؟ وعن رؤيتنا له وهو لا يرانا؟ فننتظر وهو لا يأتي . الوقت يتأخر . لقد نسي . إنه مع شخص آخر . إنه خائن ، وحبه لا يعني شيئاً . من ثم يبدأ العذاب -من ثم يبدأ اليأس الذي لا يطاق! ثم ينفتح الباب . إنه هنا» .

قال جيني «وإذ أنا أترجرج ذهباً ، أقول له : (تعال) ، فيأتي ؛ إنه يعبر الردهة إلى حيث أجلس ، وفستاني كغلالة تتطاير من حولي على الكرسي المذهب . إن أيادينا تتلامس وجسدينا يشتعلان ناراً . الكرسي ، الكوب ، المائدة ، - لا شيء إلا وهو مضاء . كل شيء يرتعش ، كل شيء يتقد ، كل شيء يشتعل كل الاشتعال» .

(قال لويس «أنظري يا رودا ، فقد أمسوا من مخلوقات الليل ، وقد انتشوا جذلاً . عيونهم كاليراعات وهي تتحرك بسرعة خارقة حتى أنها تبدو بلا حراك» .

twitter @baghdad_library

قالت رودا «أبواقٌ تنطلق . أوراق تتفتح ؛ الوعول تدوّي في الدغل . ثمة رقص وقرع طبول كرقص العراة برماحهم وقرعهم للطبول» .

قال لويس «كرقص المتوحشين حول النار في الخلاء . إنهم متوحشون . إنهم قساة . إنهم يرقصون في حلقة ، يرفرفون أكياس الهواء . اللهيب يتواثب فوق وجوههم المصبوغة ، فوق جلود الفهود والأطراف الدامية التي خلعت من الجسد الحي» .

قالت رودا «إن لهيب الاحتفال يتصاعد عالياً . الموكب الكبير يمر ، فيرمي بالأغصان الخضر والغصون المزهرة . قرونهم تنفث دخاناً أزرق ؛ جلودهم مرقطة بالأحمر والأصفر في ضياء المصباح الكشاف . إنهم يقذفون البنفسج . إنهم يغمرون المعشوق بظفائر الأزهار وبأوراق الغار ، هناك في حلقة الأرض المعشبة حيث تنحدر الهضاب الشاهقة الجوانب . الموكب يمر . عندما يمر فإننا يا لويس نعي السقوط ، ونتنبأ بالانحطاط . الظلُّ يميل . إننا نحن المتآمرين ، وقد انسحبنا معاً لنتكئ على أصٍ بارد ذي عروة ، نلاحظ اللهب الأرجواني وهو يفيض إلى الأسفل» .

قال لويس «الموت منسوج بالبنفسج ، موت وثم موت» .)

قالت جيني «ما اشد كبرياءنا ونحن نجلس هنا ، نحن الذين لم نبلغ بعد الخامسة والعشرين! الأشجار تزهر في الخارج ؛ النساء يتلكأن في الخارج ؛ المركبات تستدير وتغذ السير في الخارج . إننا وقد خرجنا من سبل الشباب الموقتة ، من مجاهل الشباب وألقه الذي يعشي الأبصار ، ننظر إلى الأمام مهيّأين لما قد يأتي (الباب ينفتح ، الباب يستمر في الانفتاح) . كل شيء حقيقي ؛ كل شيء متين من دون ظل أو وهم . الجمال يعلو جباهنا . جمالي ، جمال سوزان . إن جسدنا بدمه ولحمه متين وهادئ . فوارقنا واضحة وضوح ظلال الصخور في وضح ضياء الشمس . وبجنبنا تستقر كريوات الخبز المحمصة ، صلبة وصفراء الطلاء ؛ غطاء المائدة أبيض ؛

وأيادينا تستقر مثنيّة بعض الشيء ، جاهزة للتقلص . أيام وأيام ستأتي في مستقبلنا . أيام الشتاء وأيام الصيف ؛ إننالم ننهل من كنزنا إلا قليلاً . الثمرة الآن مترعة تحت الورقة . الغرفة عسجدية ، وأنا أقول له : تعال .»

قال لويس «إنه ذو أذنين حمراوين ، ورائحة اللحم جاثمة في شركٍ رطب إذ يتناول كتبة الحي المالي بُلغتهم وقوفاً في المقاصف» .

قال نيفيل «إننا ، وزمنٌ أمامنا لا نهاية له ، نسأل ماذا عسانا نفعل؟ هل نتسكع في شارع بوند ، ننظر هنا وهناك ، ولعلنا نشتري قلماً من أقلام الحبر لأنه أخضر اللون ، أو نسأل بكم الخاتم ذو الشذرة الزرقاء؟ أم ترانا نجلس في غرفنا ونرقب الفحم يغدو قرمزياً؟ هل نمد أيدينا إلى الكتب فنقرأ مقطعاً هنا ومقطعاً هناك؟ هل نصرخ ضاحكين بلا سبب؟ هل نغذّ السير في مروج زاهرة ونظفر القلائد من شقائق النعمان؟ هل نستفسر متى يتحرك القطار التالي إلى بلدة هبرايديز ونحجز قمرة فيه؟ إن كلّ شيءٍ آت» .

قال بيرنارد «هذا بالنسبة إليكم ، لكنني البارحة ارتطمت وأنا أسير بصندوق بريد . البارحة عقدت خطوبتي للزواج» .

قالت سوزان «ما أغرب ركام السكر بجنب صحوننا . كذلك قشور الكمثّرى المرقطة ، والإطارات الفخمة حول المرايا . إني لم أرها سابقاً . كل شيء جاهز الآن ؛ كل شيء محدّد . بيرنارد مخطوب . إن شيئاً ما لا رجوع عنه قد حدث . ثمة دائرة أطبقت على الماء ؛ وثمة قيداً فُرض علينا . إننا لن نتحرك بحرية مرة أخرى» .

قال لويس «لمدة لحظة واحدة فقط . فقبل أن ينكسر القيد ، قبل أن تعود الفوضى ، ها نحن مثبّتين ، ها نحن مكشوفين ، ها نحن منحصرين بين شقي السندان .

«أما الآن فالدائرة تنكسر . أما الآن فالتيار يفيض . ونحن ندفق دفقاً

twitter @baghdad_library

أسرع مما سبق . والعواصف ، وهي تنتظر هناك في الطحالب القاتمة التي تنمو في القاع ، تنطلق فتضربنا بأمواجها . الألم والغيرة ، الحسد والشهوة ، وشيء أعمق منها جميعاً ، شيء أقوى من الحب وأشد خفاء . إن صوت الفعل يتكلم . أنصتي يا رودا ، (ذلك أننا أبرمنا أمراً في الخفاء) ، إلى صوت الفعل العرضي ، السريع ، المثير ، إلى صوت الكلاب السلوقية تعقب الأثر . إنهم يتكلمون الآن دون أن يعبأوا بإنهاء جملهم . إنهم يتكلمون لغة قصيرة الجمل كالتي يستعملها العشاق . ثمة وحش متسلط يأخذ بخناقهم . شعيرات الأعصاب تنغر في أفخاذهم . قلوبهم تخفق في صدورهم . سوزان تدعك منديلها . عينا جيني تشتعلان ناراً» .

قالت رودا «إنهم مصونون من إشارة تتعقبهم ومن تسقط العيون تتلصص عليهم . ما أسهلها الطريقة التي بها يلتفتون وبها يرمقون ؛ ما أروعها الأوضاع التي يتخذونها من الحيوية والكبرياء! ما أبهاها الحياة التي تشع من عيني جيني ؛ ما أحدّها وأشملها نظرة سوزان وهي تبحث عن الحشرات في الجذور! إن شعرهم يلتمع برّاقاً . عيونهم تتقد كأنها عيون الحيوان تتسلل بين الأوراق في أثر الفريسة . الدائرة تكسرت . لقد مُزِّقنا كل ممزّق» .

قال بيرنارد «لكن ما هي إلا فترة وجيزة ، وجيزة جداً ، حتى يخبو ابتهاج الأنا فيه . ما هي إلا فترة وجيزة جداً حتى ينتهي أجل الشعور بالهوية النهمة ، وتتخم شهية السعادة ، وتبشم . الحجارة رسبت ؛ الأجل انتهى . وينتشر من حولي هامش واسع من عدم الاكتراث . الآن تتفتح في عينيّ ألف عينٍ مستطلعة . ولمن يشاء الآن أن يقتل بيرنارد ، الذي عقد خطوبته للزواج ، على ألا يمس هذا الهامش من الإقليم المجهول ، هذه الغابة من العالم المجهول . إني أسأل (همساً من باب اللياقة) لِمَ تتناول نساء معاً العشاء لوحدهن هناك؟ من هنّ؟ وما الذي جاء بهن في هذه الأمسية

بالذات إلى هذا الموقع بعينه؟ إن الفتى الجالس في الركن هو من الريف ، كما يستنتج من طريقته العصبية التي بها يضع يده على قفا رأسه بين حين وحين . إنه متضّرع ، وتوّاق جداً للاستجابة بصورة مناسبة للطف مضيّفه ، صديق أبيه ، بحيث أنه لا يكاد يتمتع الآن بما سيتمتع به كثيراً في حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف صباح غد . رأيت كذلك تلك السيدة التي جمّلت نفسها ثلاث مرات إبّان محادثة تستغرقها - لعلها عن الحب ، لعلها عن تعاسة صديق عزيز . كأنها تقول في نفسها (ما لها حالة وجهي!) فتُخرج علبة المساحيق وتطمس بها اعتلاجات القلب الإنساني . ولكن تبقى معضلة الرجل الوحيد ذي العوينات بلا حل ؛ ومعلضة السيدة المسنة التي تحتسي الشمبانيا وحدها . فأتساءل : من هم هؤلاء المجهولون ، وما شأنهم . إن بوسعي أن أؤلف عشرات الحكايات عما قال الرجل ، عما قالت المرأة - بوسعي أن أرى عشرات الصور . ولكن ، ما الحكايات؟ ما هي إلا ألاعيب أعبث بها ، فقاعات أنفخها ، حلقات تمر إحداها من خلال الأخرى . وأحياناً يساورني شك هل هناك حكايات؟ ما هي حكايتي؟ وحكاية رودا؟ وحكاية نيفيل؟ هناك حقائق ، فعلى سبيل المثال : (الشاب الوسيم بالحلة الرمادية ، الذي تتناقض رزانته مع ثرثرة الآخرين تناقضاً غريباً ، وهو ينفض الآن فتات الخبز من صداره ، ويؤشر إشارة خاصة تجمع معاً صفتي الأمر والكرم منادياً النادل الذي جاء تواً ثم عاد بعد لحظة مع قائمة الحساب وقد طويت بلياقة على صحن) . هذه هي الحقيقة ؛ هذا هو الواقع ، أما ما وراء كل ذلك فهو ظلام وتصور» .

قال لويس «والآن إذ نوشك مرة أخرى على الافتراق ، وقد دفعنا قائمة حسابنا ، فإن الدائرة التي في دمائنا ، وكانت قد انكسرت مراراً كسراً حاداً ، ذلك أننا مختلفون جداً ، تعود فتنغلق لتحطنا في حلقة . إن شيئاً ما قد تكوّن . أجل ، فإذ ننهض ونتخبط ، بشيء من الانفعال ، فإننا

twitter @baghdad_library

نبتهل ، وقد أمسكنا بأيدينا هذا الشعور المشترك قائلين : (لا تتحركوا ، لا تتيحوا للباب الدوار أن يمزّق إرباً الشيء الذي كوّناه ، والذي يكور نفسه هنا ، بين هذه الأضواء ، وهذه القشور ، وهذا الفتات المتناثر من الخبز ، وبين الناس يمرون . لا تتحركوا ، لا تذهبوا . أمسكوا بالشيء إلى الأبد» .

قالت جيني «فلنمسك بالشيء لحظة واحدة ؛ سواء كان الشيء حب أو كراهية ، أو أياً كان الاسم . فلنمسك بهذا الجوهر المكوّر الذي تكونت جدرانه من بيرسيفال ، من الشباب والجمال ، من شيء رسب عميقاً في باطننا حتى أننا لعلنا لن نستطيع قط أن نخلق مثل هذه اللحظة من رجل واحد مرة أخرى» .

قالت رودا «في الشيء غابات وبلاد نائية على الطرف الآخر من العالم ؛ بحار وأدغال ؛ نباح ابن آوى وضوء القمر يتساقط على قمة عالية حيث يرتفع الصقر سامقاً» .

قال نيفيل «في الشيء السعادة ، وهدوء الأشياء الاعتيادية . فيه مائدة ومقعد وكتاب وقاطعة ورق موضوعة بين الصفحات . وكذلك التويج يسقط من الوردة ، والضياء يرتعش إذ نجلس صامتين ، أو لعل ذلك يذكرنا بشيء تافه ، فنتكلم فجأة» .

قالت سوزان «في الشيء أيام الأسبوع ، الاثنين ، الثلاثاء ، الأربعاء ؛ فيه الخيول ذاهبة إلى الحقول ، والخيول عائدة من الحقول ، وطيور الغدفان ترتفع وتهبط ، وتحيط بأشجار الدردار ، سواء كان الشهر نيسان أو تشرين» .

قال بيرنارد «فيه ما سيأتي . هذه هي آخر القطرات وأشدها بريقاً وقد تركناها تسقط كزئبق سماوي في صلب اللحظة المتوسعة والرائعة التي خلقناها من بيرسيفال . إني أسأل ، وأنا أنفض فتات الخبز من صداري ، ما الذي هو آت؟ ما الذي هو في الخارج؟ لقد أثبتنا ، ونحن جلوس نأكل ، ونحن جلوس نتكلم ، بأن بوسعنا أن نضيف شيئاً إلى خزائن اللحظات .

إننا لسنا عبيداً مربوطين لنتلقى بلا انقطاع الضربات التافهة التي لا تحصى على ظهورنا المحنية . لسنا غنماً أيضاً ، نتبع سيداً . نحن خلاّقون . كما وأننا صنعنا شيئاً سينضم إلى المجاميع التي لا تحصى من الزمن الماضي . كذلك ، فإذ نرتدي قبعاتنا ونفتح الباب ، فنحن نخطو لا إلى الفوضى ، بل إلى عالم يمكن لقوتنا أن تخضعه وتجعله جزءاً من الدرب السرمدي المضاء .

«أنظر ، يا بيرسيفال ، أثناء مناداتهم على سيارة الأجرة ، إلى المشهد الذي سرعان ما ستفقده . الشارع صلب يصقله المخض من عجلات لا تعد ولا تحصى . الظُّلة الصفراء من حيويتنا الهائلة تتعلق فوق رؤوسنا كقماش يحترق . المسارح ، قاعات الموسيقى والمصابيح في البيوت الخاصة تصنع ذلك النور» .

قالت رودا «السحب العالية تجوب فوق سماءٍ كأنها في قتامها عظم حوتٍ مدهون» .

قال نيفيل «الآن يبدأ العذاب ؛ الآن ينشب الفزع مخالبه بي . الآن تأتي المركبة ؛ الآن يذهب بيرسيفال . ماذا نستطيع أن نفعل لكي نحتفظ به؟ كيف نردم الهوة بيننا؟ كيف ننفخ في النار حتى تتقد إلى الأبد؟ كيف نومئ للزمن الآتي كله بأننا نحن الذين نقف في الشارع ، في ضوء السراج ، أحببنا بيرسيفال؟ الآن ذهب بيرسيفال» .

twitter @baghdad_library

تعالت الشمس إلى سمتها الأعلى ، فلم تعد شمساً لا تراها العين إلا قليلاً ، ولا يدركها الحس إلا حدساً ، من إلماحات وإلماعات ، فكأنها فتاة تربعت على فراشٍ من بحرٍ أخضر وهي تزجج حاجبيها بجواهر مائية الكريوات فترسل رماحاً من نور بلوري الصبغة تتساقط وتبرق في الهواء المتقلب كالأسماك في وثوبها ، أو كالتماع وريقة عشب عند سقوطها . الآن تتقد الشمس بلا مواربة ولا مراء . إنها تضرب الرمل الصلب ، أما الصخور فتغدو أفراناً من حرارة حمراء ؛ إنها تفتش كل بركة فتقنص صغار السمك المختبئ في الصدع ، وتكشف عن العجلة الصدئة ، والعظم الأبيض ، أو تكشف عن الحذاء وقد فقد شداده منغرزاً ، أسود كالحديد ، في الرمال . إنها تعطي لكل شيء قدره من اللون ؛ ولكثبان الرمل تلألؤها المتعدد ، ولأعشاب البر خضرتها الوامضة ؛ أو أنها تسقط على المهمه القفر من الصحراء ، تبلوه الرياح هنا إلى أخاديد أو يُجرف هناك إلى علامات أثرٍ قفراء ، أو تتناثر هنالك أشجار الغاب الداكنة الخضرة قصاراً ، معاقةً النماء . إنها تضيء المسجد الصقيل الوشي ، والبيوت المكعبة الحجم الوردية والبيضاء اللون في القرية الجنوبية ، والنساء الطوال الأثداء يكللهن المشيب ، وقد جثون في قاع النهر يضربن الثياب المتغضنة على الأحجار . السفن بحركتها الكامدة الصوت وهي تمخر البحر ببطء ، تحدق بها حملقة

الشمس الثابتة ، فتضرب أشعتها من خلال المظلات الصفر ركاباً في غفوتهم أو مشيتهم على السطح وهم يظللون عيونهم بأيديهم بحثاً عن البر ، وقد حملتهم الباخرة حملاً رتيباً فوق الماء يوماً بعد يوم ، منحشرين بين جنبيها الزيتيين النابضين .

الشمس تضرب على القمم المكتضة بالروابي الجنوبية وتسطع في قيعان الأنهار العميقة ، الصخرية ، حيث يتقلّص الماء تحت الجسر الشاهق المعلق حتى أن الغسّالات وهن جاثيات على الأحجار الساخنة لا يسعهن تبليل غسيلهن إلا قليلاً ؛ والبغال النحيلة تشق طريقها بين الأحجار الرمادية المقعقعة وقد عُلّقت العدول على أكتافها الضيقة . وعند الظهيرة تُصيِّر حرارة الشمس الروابي رمادية فكأنها كُشطت ووُسمت في انفجار ، أما شمالاً ، في مواطن أكثر غيماً وأكثر مطراً ، فالروابي ، وقد صُقلت ألواحاً كما بظهر مسحاة ، يشع فيها ضياء كأن خفيراً يمضي في أعماقها من حجرة إلى حجرة حاملاً سراجاً أخضر . ومن خلال ذرات الهواء الأزرق - الرمادي تضرب الشمس الحقول الإنكليزية وتضيء مستنقعات وبركاً ، تضيء نورساً أبيض حطّ على وتد ، وظلالاً بطيئة الجري فوق غابات كثيفة وسنابل فتية وحقول تموج بالتبن . إنها تضرب على جدار البستان ، فإذ بكل نقرة وحبيبة في الطابوق مطلية بالفضة ، أرجوانية ، متقدّة لا تقوى على اللمس ، كأنها لو مُسّت لذابت هباء من غبار مفخور . التوت يتدلى على الجدار ، وهو يترجرج وينساب أحمر مصقولاً ؛ الأجاص ينتفخ خارجاً من أوراقه ، أما أوراق العشب كلها فقد ضُمت معاً في وهج أخضر منساب واحد . ظل الأشجار يخمد لونه ويتحول إلى بركة قاتمة عند الجذور . الضياء وهو ينهمر في طوفان يذيب الشجر المورق فيحيله إلى كثيب أخضر واحد .

twitter @baghdad_library

الطيور تشدو بأغانٍ ولهى ترسلها إلى أذن واحدة فقط ثم تتوقف . إنها وهي تزقزق وتسقسق تحمل قطعاً صغاراً من القش والحطب إلى العُقد القاتمة في الأغصان العالية من الأشجار . إنها تحط موشاةٍ وقرمزية في الحديقة ، حيث عناقيد الورد وأزهار البنفسج تنفض عنها الذهب والليلاك ، فالحديقة كلها الآن في الظهيرة إزهار وانصهار ، حتى أن الشقوق من تحت النباتات تكون خضراء اللون ، أرجوانية وزعفرانية إذ تضرب الشمس من خلال التويج الأحمر ، أو التويج الأصفر العريض ، أو أنها تتخطط بظلال غصنٍ أخضر كثيف .

والشمس ترسل أشعتها لتسقط مباشرةً على البيت فإذا بالجدران البيض تسطع بين النوافذ القاتمة . زجاج النوافذ ، وقد نسج كل النسج بأغصان خضر ، يحوي دوائر من ظلمة منيعة لا ينفذ منها النظر . ثمة أسافين مستدقة الحوافي من الضياء تستقر على رفرف النافذة فتكشف في داخل الغرفة عن صحون ذات حلقات زرق ، وأكواب ذات عرى مستديرة ، وتكشف عن الانتفاخ في دورق كبير ، وعن النقشة المخططة في السجاد ، وعن الزوايا والخطوط الهائلة للخزائن ورفوف الكتب . وفي ما وراء تكتل هذه الأشياء يتدلى حيزٌ من ظل قد يكون فيه شكل آخر يخفف من وقر الظل ، أو قد تلبث فيه أعماق أكثف من الظلام .

الأمواج تتكسر وتنشر مياهها سريعاً على الساحل . إنها تتكتل موجةً بعد أخرى ثم تهوي ؛ الرذاذ يرتمي راجعًا بقوة سقوطها . الأمواج أُشربت بزرقة داكنة خلا نقشة من ضياء ماسية التسنّن تترجرج على سطحها كما تترجرج صهوات الجياد العظام بالعضلات عند الجري . الأمواج تسقط ؛ ترتد وتسقط مرة أخرى ، كوقع أقدامٍ من وحش عظيم يدك الأرض .

قال نيفيل «إنه ميت . لقد سقط . كبا جواده . ألقي به أرضاً . الأشرعة كلها التفت فأصابتني في راسي . كل شيء قد انتهى . أنوار الدنيا انطفأت . هنالك تقف الشجرة التي لا أستطيع تجاوزها .

«آه ، ليتني أطوي هذه البرقية بين أصابعي - فأدع نور الدنيا يفيض عليّ مرة أخرى - ليتني أقول إن هذا لم يحدث! لكنْ لِمَ يدير المرء رأسه هنا وهناك؟ هذه هي الحقيقة . هذا هو الواقع . جواده عثر ؛ فألقي به أرضاً . الأشجار البراقة والأسيجة البيض تصاعدت في عينيه كالنافورة . ثمة دفق ؛ وطنين في أذنيه . ثم الصدمة ؛ العالم قد تهشم ؛ إنه يتنفس بصعوبة . ومات حيث سقط .

«عنابر وأيام صيف في الريف ، غرف حيث جلسنا - كلها تستقر الآن في العالم غير الواقعي الذي زال . زمني الماضي انبتَّ . جاؤا يركضون . حملوه إلى سرادق ، رجال بجزم الركوب ، رجال بخوذات واقية من الشمس ؛ مات بين رجال مجهولين . الوحدة والصمت غالباً ما أحاطا به . وغالباً ما تركني . كنت أقول حين يعود : (انظروا إلى أين يعود!) .

«النساء يجرجرن أقدامهن أمام النافذة كأن لم تحفر في الشارع هوة ، ولم تقم فيه شجرة ذات أوراق متصلبة لا نستطيع تجاوزها . إننا لنستحق إذن أن نعثر بأكوام تراب من صنع الدبيب . لقد ضُربت علينا المذلة إلى الأبد ، إذ نجرجر أقدامنا وقد أغمضنا عيوننا . لكن لِمَ عليّ أن أستسلم؟

twitter @baghdad_library

لماذا أحاول رفع قدمي لأرتقي السلّم؟ هذا هو المكان الذي أقف فيه ؛ هنا ، ممسكاً بالبرقية . إن الماضي ، وأيام الصيف وغرفاً فيها جلسنا كأنها ورقة محترقة ذات ثقوب حمر . لماذا لقاء الأصدقاء واستئناف العلاقات؟ لماذا الحديث والأكل وتكوين جماعات أخرى مع أناس آخرين؟ أنا منذ هذه اللحظة مستوحد . ما من أحد سيعرفني الآن . لديّ ثلاث رسائل ، قال في إحداها (إني على وشك أن ألعب لعبة رمي الحلقات على الأوتاد مع أحد كبار الضباط ، لذا ليس عندي من مزيد) ، وهكذا أنهى صداقتنا ، شاقاً طريقه بين الجمهور وهو يلّوح بيده . إن هذه المهزلة لا تستحق مزيداً من الاحتفال الرسمي . لكنْ لو أن أحدهم نطق بكلمة واحدة وقال : (مهلاً) ؛ لو شد حزام الجواد شداً أضيق بثلاثة ثقوب - لكان الرجل سينصف الناس خمسين عاماً وكان سيتربع على العرش ويمتطي فرسه وحيداً على رأس الجيش ويشجب طاغيةً من أعتى المستبدين ، ثم يعود إلينا .

«الآن أقول ثمة تكشيرة للاستهزاء بنا ، ثمة وسيلة لخداعنا . ثمة شيء يسخر منا وراء ظهورنا . ذلك الصبي كادت تزل قدمه وهو يقفز إلى الحافلة . بيرسيفال سقط ؛ فقُتل ؛ ودُفن ؛ وأنا أرقب الناس يمرّون ؛ يمسكون كل المسك بالقضبان الواقية في حافلات النقل ؛ مصممين على الحفاظ على حياتهم .

«إني لن أرفع قدمي لأصعد السلم . سأقف لحظة واحدة تحت الشجرة الهائجة التي لا تعرف السكون ، وحيداً مع الرجل الذي جُزّت رقبته ، وفي الطابق الأسفل تصفق الطاهية أبواب الفرن غلقاً وفتحاً . لن أصعد السلم . قدرنا محتوم ، كلنا جميعاً . النساء يجرجرن أقدامهن حاملات أكياس البقالة . الناس يستمرون بالمضيّ . مع هذا فإنك لن تدمرني . إننا لهذه اللحظة ، لهذه اللحظة الواحدة ، نكون معاً . إني أضمّك إليّ . تعال ، أيها

الألم ، تعال اقتَتْ عليّ . أنشب مخالبك في لحمي . مزقني إرباً . إني أجهش وأجهش بالبكاء» .

قال بيرنارد «هكذا تكون التشكيلة المستعصية على الفهم ، هكذا يكون تعقد الأشياء ، حتى أنني وأنا أنزل السلم لا أعرف الحزن من الفرح . إبنيّ قد ولد ؛ بيرسيفال قد مات . إني تمسكني عَمَدٌ ، وتحفني من كلا الطرفين عواطف مجردة ؛ لكنْ أيهما الحزن ، أيهما الفرح؟ أسال ولا أعرف جواباً سوى أنني بحاجة إلى صمت ، وإلى الوحدة ، وأن أخرج ، وأن أوفر ساعة واحدة لكي أنظر ما الذي حدث لعالمي ، وما الذي فعله الموت بعالمي .

«هذا إذن هو العالم الذي لن يراه بيرسيفال بعد الآن . فلأنظر . القصاب يسلّم اللحم للجيران ؛ شيخان يسيران متعثرين على الرصيف ؛ العصافير تحط . الماكنة تعمل إذن ؛ وأنا ألحظ الإيقاع ، النبض ، لكني ألحظه كشيء لا دور لي فيه ، مذ أنه لن يراه بعد الآن . (إنه يستلقي شاحباً ومضمّداً في غرفة ما) . الآن إذن سنحت فرصتي لكي أتحرّى الشيء المهم جداً ، ويجب عليّ أن أكون حذراً ، وألا أقول الكذب . إن شعوري بشأنه هو : لقد جلس هناك في مركز الدائرة . أنا لا أذهب الآن إلى تلك البقعة أبداً . المكان فارغ .

«إي نعم ، أستطيع أن أؤكد لكم ، أيها الرجال بقبعات اللباد والنساء حاملات السلال – أنكم فقدتم شيئاً كنتم ستجدونه ذا قيمة كبيرة لكم . لقد فقدتم قائداً كنتم ستتبعونه ؛ وإن إحداكن قد خسرت سعادة وأطفالاً . لقد مات ذاك الذي كان سيعطيكم هذا . إنه مستلقٍ على سرير من أسرة الجنود ، مضمّداً ، في مستشفى ما هندي حار في حين يجلس الحمالون القرفصاء على الأرض يحركون تلك المراوح – لا أتذكر بأي اسم يسمّونها . لكنّ ما قلته مهم ؛ قلتُ : (إنكم خارج الأمر تماماً) ، في حين تحط الحمائم

twitter @baghdad_library

على السطوح وابني قد وُلد ، فكان ذلك الأمر حقيقة واقعة . أتذكر ، وأنا صبي ، سمة انعزاله الغريبة . وأفضي قائلاً (عيناي تغرورقان بالدموع ثم تجفان) ، (لكن هذا أفضل مما كان يطمح أن يرجوه المرء) . قلت مخاطباً ما هو مطلق مجرد ، يواجهني بلا عيون في نهاية الجادة ، في السماء : (هل هذا هو أقصى ما تستطيع أن تفعله؟) إذن فقد انتصرنا . أنت قمت بأقصى ما تستطيع ، قلت ، مخاطباً ذلك الوجه الفارغ والقاسي من دون جدوى (فالرجل كان في الخامسة والعشرين وكان يجب أن يعيش ليبلغ الثمانين) . إني لن أهجع وأُبعد عني حياة الدعة بالبكاء . (هذه فقرة سأدخلها في دفتري ؛ الاحتقار للذين ينزلون بالناس موتاً لا معنى له) . كذلك ، فما أقوله مهم ؛ أن أتمكن من وضعه في مواقف تافهة وسخيفة ، بحيث لا يشعر بأنه رجل أخرق ، وقد امتطى حصاناً عظيماً . يجب أن أكون قادراً على القول : (إن اسم بيرسيفال(*) سخيف) . في الوقت عينه دعوني أقول لكم ، أيها الرجال والنساء ، المسرعين إلى محطة القطار الجوفي ، إنه كان عليكم احترامه ، كان عليكم الاصطفاف والسير من خلفه . ما أغرب أن يشق المرء طريقه بين صفوف الجماهير وهو يرى الحياة من خلال عيون جوفاء ، عيون مشتعلة .

«مع هذا فثمة إشارات ابتدأت أصلاً ، إيماءات صامتة ، محاولات تغريني بالعودة إلى سالف عهدي . حب الاستطلاع قد زال خلال فترة وجيزة ليس إلا . إن المرء لا يستطيع العيش خارج الماكنة لأكثر من نصف ساعة ربما . أنا ألاحظ أن الأجساد بدأت تبدو اعتيادية أصلاً ؛ أما ما وراءها فشيء مختلف - ألا وهو المنظور . إن ما وراء ذلك الإعلان المعلق

(*) بيرسيفال اسم فارس أفلح في مشاهدة كأس السيد المسيح المقدس الذي شرب به في العشاء الأخير حسب الأدبيات المسيحية . والكأس صار هدفاً للتنقيب عنه .

عن الجريدة هو المستشفى ؛ الغرفة الطويلة ورجال سود يسحبون حبالاً ؛ ومن ثم دفنوه . مع هذا وبما أن الجريدة تقول إن ممثلة شهيرة قد طُلِّقت ، فإني أسأل فوراً : من هي؟ مع ذلك لا أستطيع إخراج الدرهم من جيبي ؛ لا أستطيع شراء جريدة ؛ لا أستطيع معاناة المقاطعة بعد الآن .

«إني أسأل ، إن قُدِّر لي أن أراك مرة أخرى وأثبت عيوني على تلك الصلابة ، فأي شكلٍ سيتخذ وصالنا؟ لقد ذهبت أنت عبر الساحة ، أبعد فأبعد ، تسحب الخيطَ الذي بيننا أرفع فأرفع . لكنك موجود في مكانٍ ما . ثمة شيء منك يبقى . قاضٍ يبقى منك . بمعنى أنني إذا اكتشفت عرقاً جديداً في نفسي فسأعرضه عليك على انفراد . سأسألك : ما هو حكمك؟ أنت ستبقى الحَكم . لكن إلى متى؟ الأشياء ستمسي أصعب على التفسير : ستكون هناك أشياء جديدة ؛ منها إبني أصلاً . إني الآن في أوج تجربة بعينها . وستضمحل . إني أصلاً لم أعد أصرخ بإيمان : (يا للحظ!) الابتهاج ، طيران الحمائم في هبوطها ، انتهى . الفوضى ، التفاصيل ، نعود . لم أعد أندهش لأسماء مكتوبة على نوافذ الدكاكين . لا أحس بالتساؤل في نفسي : لِمَ تعجل؟ لِمَ تركب القطارات؟ السلسلة تعود ؛ شيء يقود إلى آخر – النظام المعتاد .

«نعم ، لكني لم أزل أستهجن النظام المعتاد . لن أبيح لنفسي أن أُكره على قبول التسلسل في الأمور . إني سأسير ؛ لن أغيّر إيقاع عقلي بالوقوف ، بالنظر ؛ سأسير . سأصعد هذه الدرجات إلى قاعة العرض وأضع نفسي أمام تأثير عقولٍ هي كعقلي تقع خارج السلسلة . لم يبق إلا وقت قليل للجواب على السؤال ؛ قواي تخور ؛ أغدو مشلولاً . ثمة صور هنا . مادونات باردات الأجساد تحيط بهن الأعمدة . فليوقفن النشاط المتواصل الذي تبديه باصرة العقل ، ويمنحن الراحة الأبدية للرأس المضمّد ، للرجال حملة الحبال ، حتى أجد شيئاً ما غير بصري في ما وراء المعروضات . ثمة

twitter @baghdad_library

حدائق هنا ؛ وفينوس بين أزهارها ؛ هنا ثمة قديسون ومادونات زرقاوات . ومن دواعي الرحمة أن هذه الصور لا تشير أية إشارة إلى شيء ؛ إنها لا تلكز لتسترعي الانتباه ؛ ولا تؤشر . وبذا فإنها توسع إدراكي لبيرسيفال وتعيده إليّ على نحوٍ مختلف . إني أتذكر جماله . فقلت : (انظروا ، إلى أين يعود!) .

«إن الخطوط والألوان تكاد تقنعني بأني أنا كذلك يمكن أن أكون من أرباب البطولة ، وبأني ، أنا الذي تواتيني الجمل بسهولة ويسر ، سرعان ما أُغوى ، وأعشق ما يأتي لاحقاً ، ولا أستطيع أن أهز قبضة يدي مهدداً ، لكني أتذبذب على وهنٍ وأنا أؤلف الجمل حسب ظروفي . والآن ، ومن خلال وهني ذاته ، أسترجع ما كان بالنسبة إليّ : نقيضي . إنه ، لكونه صادقاً بالسليقة ، لم ير الغرض من هذه المبالغات ، وكان يحدوه حس طبيعي بالتوافق ، بل كان حقاً سيداً عظيماً من سادة فن العيش بحيث يبدو وكأنه كان قد عاش طويلاً ، وكأنه كان قد بث السكينة من حوله ، لا بل حتى اللامبالاة ، ولصالحه بالتأكيد ، باستثناء ما كان يتمتع به كذلك من شفقة عظيمة . إني إذ أجد طفلاً يلعب -أو أقضي أمسية صيف- أو أشاهد أبواباً تنفتح وتنغلق ، وستظل تنفتح وتنغلق ، أرى من خلالها مشاهد تبكيني . ذلك أنها لا يمكن الإفصاح عنها . من هنا وحدتنا ؛ من هنا انفرادنا القفر . إني أتلفت إلى ذلك الموقع في عقلي فأجده فارغاً . وهني يورثني الكآبة . لم يعد هو موجوداً ليتصدى لوهني .

«انظروا إذن إلى هذه المادونا الزرقاء ، مخضّبة بالدموع . هذه هي صلاة جنازتي . ليس لدينا مراسم احتفالية ، بل ترانيم جنائزية خاصة ، ولا نتوصل إلى نتائج بل نحس بانفعالات عنيفة ، منفصلة عن بعضها . ما من شيء مما قيل يناسب قضيتنا . إننا نجلس في القاعة الإيطالية في المتحف الوطني فنلتقط شظايا متفرقة من الصور ويساورني شك هل أن

تيتيان قد شعر حقاً بهذا الفأر وهو يقرض . إن الرسامين يحيون حياة الاستغراق النظامي ، وهم منغمسون بضربات ريشتهم فيضيفون ضربة إلى ضربة . إنهم ليسوا كالشعراء - أكباش فداء ؛ إنهم ليسوا مشدودين إلى صخرة . من هنا الصمت ، والتسامي . مع هذا فلا بد أن ذلك اللون القرمزي كان قد اشتعل في حوصلة تيتيان . لا شك أنه ارتفع مع الذراعين العظيمين وهما يمسكان بقرن الخصب الأسطوري ، وهوى معهما ، إبّان ذلك الهبوط . لكن الصمت يثقل كاهلي - كذلك تضرّع العين الأبدي . الضغط متقطع ومخنوق . أنا لا أميّز الأشياء إلا قليلاً جداً وبغموض تام . زر الجرس يُكبس عليه فلا أرن ، لا ولا تصدر عني صيحات ناشزة لا مناسبة لها . ثمة بهاء يثير سروري بجموح طائش ؛ اللون القرمزي المتموج على البطانة الخضراء ؛ إيقاع الأعمدة المتسلسلة ؛ الضياء البرتقالي خلف العناقيد السود المنتصبة على أشجار الزيتون . سهام من الانفعالات تنطلق من صلبي ، ولكن بلا نظام .

«مع هذا فإن شيئاً ما يضاف إلى تفسيري . شيئاً ما يكمن دفيناً في الأعماق . ظننت لحظة واحدة أنني أدركه وأمسك به . لكنني أسرع إلى دفنه ؛ فليتكاثر ، مختفياً في أقاصي عقلي ليخصب ذات يوم . ربما أمسك به ، بعد عمر طويل ، مسكاً مهلهلاً ، في لحظة من لحظات الإلهام ، أما الآن فالفكرة تتفتت في يدي . والأفكار ما أن تتكور مرةً في تكوين تام حتى تتفتت ألف مرة . إنها تتفتت ؛ وتتساقط عليّ . (إنها تبقى بعد زوال الخطوط والألوان ، لذا . . .) .

«إني أتثاءب . أنا متخم بالانفعالات . منهك بالتوتر وبالوقت الطويل جداً - خمس وعشرون دقيقة ، نصف ساعة - الذي التزمت فيه بالبقاء وحيداً خارج الماكنة . إني أغدو متخدراً ؛ أغدو متصلباً . كيف لي أن أطرد هذا الخدر عني ، الخدر الذي يشين قلبي الودود؟ ثمة آخرون يشقون - ملأ

twitter @baghdad_library

من الناس يشقى . نيفيل يشقى . إنه أحب بيرسيفال . لكني لا أستطيع بعد الآن احتمال الغلو ، إني أريد أحداً معه أضحك ، معه أتثاءب ، ومعه أتذكر كيف أنه حكّ رأسه ؛ أحداً كان يرتاح له ويكنّ له وداً (ليست سوزان ، التي أحبّها ، بل بالأحرى جيني) . في غرفتها بوسعي كذلك أن أقدم فروض التوبة . بوسعي أن أسألها : هل حدّثك عن رفضي له حين طلب مني الذهاب إلى هامبتون كورت في ذلك اليوم؟ تلك هي الأفكار التي توقظني من نومي فأهب من العذاب في منتصف الليل - تلك هي الجرائم التي سيقدم عنها المرء فروض التوبة حاسر الرأس في أسواق العالم ؛ إن المرء لم يذهب إلى هامبتون كورت في ذلك اليوم .

«لكني الآن أريد حياةً من حولي ، كتباً وزخارفَ ، أريد الأصوات المعتادة من باعة ينادون ، عليها أوسِّد رأسي بعد هذا الإنهاك ، وأغمض عينيّ بعد هذا الإلهام . سأذهب من فوري ، إذن ، فأنزل السلم ، وأنادي على أول سيارة أجرة وأذهب إلى جيني» .

قالت رودا «ها هي المخاضة ، وأنا لا أستطيع عبورها . إني أسمع حجر الرحى الكبير يتدحرج على قيد بوصة واحدة من رأسي . إن ريحها يهدر في وجهي . جميع أشكال الحياة الملموسة قد خذلتني . وما لم أمتد وألمس شيئاً صلباً فسوف أُلقى في الأروقة الأزلية إلى الأبد . ما الذي أستطيع ، إذن ، أن ألمسه؟ اية آجرة؟ أية حجارة؟ وبذلك أستل نفسي عبر الهوة السحيقة وصولاً إلى جسدي بسلام .

«إن الظل قد سقط الآن والضياء الأرجواني يميل إلى الانحدار . الشخص الذي رفل بالجمال يطمّه الخراب الآن . الشخص الذي وقف في الأيكة حيث تنحدر الهضاب السحيقة الجوانب يسقط مهشماً ، كما قلت لهم حينما قالوا إنهم يعشقون صوته على السلم ، ويعشقون حذاءه القديم ولحظات الوصل .

«سأسير الآن في شارع أكسفورد وأنا أتصور عالماً شقه البرق ؛ سأنظر إلى أشجار البلوط المتصدعة وقد احمرت فيها البقعة التي سقط منها الغصن الزاهر . سأذهب إلى شارع أكسفورد وأشتري جوراباً لحفلة ما . سأقوم بالأشياء المعتادة تحت لمعة البرق . وعلى الأرض الجرداء سأقطف أزهار البنفسج وأحزمها معاً وأقدمها إلى بيرسيفال ، شيئاً يعطى إليه مني . انظروا الآن إلى ما أعطاه بيرسيفال لي . انظروا إلى الشارع الآن وقد مات بيرسيفال . البيوت رقيقة الأسس حتى لتُنفخ هباء بنسمة هواء . هوجاء وعشوائية تجري السيارات وتهدر وتطاردنا حتى الموت ككلاب السلوقي في أثر الدم . إني وحيدة في عالم معادٍ . الوجه الإنساني شنيع . إن هذا يعجبني . أنا أريد الشهرة والعنف وأريدً أن أُرمى كحجارة على الصخور . أحب مداخن المصانع والرافعات والشاحنات . أحب مرور الوجوه المتعاقبة ، وجوه شائهة ، عديمة الاكتراث . لقد سئمت الحسن ؛ سئمت الخلود إلى النفس . إني أمخر عباب بحارٍ هائجة وسأغرق وما من أحدٍ ينقذني .

«إن بيرسيفال قد قدمً لي بموته هذه الهدية ، وكشف لي عن هذا الهول المفزع ، فتركني لأقاسي هذا الهوان - وجوه ووجوه ، كأطباق الحساء يقدمها غسّالو الصحون ؛ وجوه فظة ، جشعة ، عارضة ؛ وجوه تنظر في نوافذ المخازن والرزم تتدلى من الأيادي ، وجوه تغمز غمزات التغنج ، وتمسس كل شيء فتحطمه وتترك وراءها حتى حبنا ملوثاً ، وقد مسته الآن بأصابعها القذرة .

«ها هو الدكان الذي فيه يبيعون الجورابات . بوسعي أن أعتقد بأن الجمال بغيض تارة أخرى . همسات الجمال تجوب هذه الدروب ، خلال هذه الكشاكش ، فتبث أنفاسها بين سلال الشرائط الملونة . ثمة إذن أجواف دافئة تخدد قلب الصخب ؛ خمائل صمت حيث نستطيع اللجوء تحت جنح الجمال هرباً من الحقيقة التي أشتهيها . الألم يتوقف إذ تسحب

twitter @baghdad_library

فتاة بصمت مجراً فينزلق منفتحاً . من ثم تتكلم الفتاة ؛ إن صوتها يوقظني . فأهرع إلى الأعماق بين الطحالب فأرى الحسد ، والغيرة ، والبغضاء والازدراء تمرق كسرطان البحر على الرمال إذ تتكلم الفتاة . هؤلاء هم صحابنا . سأدفع قائمة حسابي وأتناول رزمتي .

«هذا هو شارع أوكسفورد . هنا كراهية وغيرة وعجالة وعدم اكتراث مُخضت ترغو في شبيه الحياة الطائش . هؤلاء هم صحابنا . فلننظر إلى أصدقائنا الذين نجالسهم ونؤاكلهم . أنا أفكر بلويس ، وهو يقرأ عمود الرياضة في جريدة مسائية ، خائفاً من التسخيف ؛ إنه متنفّج . إنه يقول ، وهو ينظر إلى الناس يمرون ، بأنه سيقودنا كالراعي لو اتبعناه . ولو سلمنا قيادنا له فإنه سيعيدنا إلى النظام . هكذا سيخفف من ميتة بيرسيفال بصورة ترضيه ، وهو ينظر نظرة ثاقبة من فوق المملحة ، مروراً بالبيوت ، في السماء . أما بيرنارد فيرتمي ، في هذه الأثناء ، محتقن العينين في مقعد ما وثير . وسيخرج دفتره ؛ فيدخل تحت حرف م : (عبارات لاستخدامها عند موت الأصدقاء) . وتأتي جيني ، وهي تخطو عبر الغرفة على رؤوس الأصابع كما في رقص الباليه ، وتحط على مسند مقعده وتسأل : (هل أحبني؟) (أكثر مما أحب سوزان؟) . أما سوزان ، وقد عقدت خطوبتها إلى مزارع في حقولها في الريف ، فستقف ثانيةً واحدة والبرقية أمامها ، وهي تحمل صحناً ؛ ومن ثم ، تصفق باب الفرن برقة من كعب حذائها . ويقف نيفيل محدقاً في النافذة من خلال دموعه ، فيرى ما أمامه من خلال الدموع ، ويسأل : (من يمر أمام النافذة؟) - (أي فتى بهيّ؟) . هذا هو رثائي لبيرسيفال ؛ زهور بنفسج ذاوية ، زهور بنفسج مسودّة .

«إلى أين سأذهب إذن؟ إلى متحف يحفظون فيه خواتم تحت علب زجاجية ، وفيه خزانات ، والفساتين التي ارتدتها ملكات؟ أم أذهب إلى قصر هامبتون كورت وأنظر إلى الجدران الحمر والباحات ، وإلى بهاء أشجار

الطقسوس المتجمعة قطعاناً وهي تكوّن إهرامات سود تكويناً متناظراً على العشب بين الزهور؟ هل سأسترد هنالك الجمال ، وأفرض النظام على روحي الهائجة ، روحي المهلهلة؟ لكنْ ما الذي يصنعه المرء في الوحدة؟ إني سأقف بمفردي على العشب الخالي ، وأقول : الغدفان تطير ؛ أحدهم يمر حاملاً كيساً ؛ ثمة بستاني مع عربة دفع . سأقف في صف الانتظار وأشم عرقاً ، ورائحة بفظاعة رائحة العرق ؛ وأعلّق مع الآخرين كقطعة من لحم بين قطع اللحم الأخرى .

«هنا قاعة يدفع فيها المرء نقوداً ويدخل ، حيث يسمع المرء أنغام الموسيقى بين أناس يغالبون النعاس جاؤوا إلى هنا بعد غداء في عصر حار . لقد أكلنا من لحم البقر والحلوى ما يكفينا لكي نعيش أسبوعاً دون أن نذوق طعاماً . لذلك فإننا نتعنقد كاليرقات على ظهر شيء ما يحملنا على الاستمرار . إننا محتشمون ، مهيبون - شعرنا الأبيض متموّج تحت قبعاتنا ؛ أحذيتنا رشيقة ؛ حقائبنا صغيرة ؛ خدودنا حليقة ؛ وهنا وهناك شارب عسكري ؛ ما من ذرة غبار أتيح لها أن تستقر على أجواخ ثيابنا . إننا ، إذ نترنح ونفتح برامج الحفل ، مع بضع كلمات ترحيب للأصدقاء ، نستقر جالسين كفقمات جنحت على الصخور ، كأجسام ثقيلة غير قادرة على أن تخوض لتصل إلى البحر ، آملين أن تأتينا موجة لترفعنا ، لكننا ثقال الوزن أكثر مما ينبغي ، وبيننا وبين البحر كثير جداً من الحطب اليابس . إننا نستلقي متخمين بالطعام ، متخدرين بالحرارة . عندئذٍ تأتي المرأة بثوبها الأخضر خضرة البحر ، وقد انتفخت ولكنها مغطاة بحرير زلج ، لإنقاذنا . إنها تمص شفتيها ، وتلبس لبوس التوتر ، وتنتفخ وتقذف بنفسها في اللحظة المناسبة كأنها رأت تفاحة ، أما صوتها فهو السهم الذي يرمي الحرف آه!

«إن فأساً قد شطرت شجرة حد اللباب ؛ اللباب حار ؛ صوت يرتعش في باطن اللحاء . (آه!) صاحت امرأة وهي تنادي عشيقها ، وتنحني من

twitter @baghdad_library

نافذتها في فينيسا . (آه ، آه!) صاحت ، ومرة أخرى صاحت (آه!) . لقد أعطتنا صيحة . لكنها مجرد صيحة . وما الصيحة؟ ثم جاء الرجال وهم بهيئة الخنافس مع آلات الكمان ؛ فانتظروا ؛ وتأنّوا ؛ وهزوا رؤوسهم ؛ ثم تحركت أقواسهم على الأوتار . وكانت هناك رجرجة وضحك كرقص أشجار الزيتون مع أوراقها الرمادية بألسنتها التي لا تعد ولا تحصى حين يثب البحر إلى الشاطئ وهو يقضم غصناً حيث تنحدر الهضاب المتعددة الجوانب .

«(مثل هذا) و(مثل هذا) و(مثل هذا) - لكن ما هو الشيء الذي يكمن تحت شبيه الشيء؟ الآن وقد فلع البرق الشجرة وسقط الغصن الزاهر وقدم لي بيرسيفال ، بمبيته ، هذه الهدية ، وجعلني أرى الشي . ثمة مربع ؛ ثمة مستطيل . اللاعبون يأخذون المربع ويضعونه على المستطيل . إنهم يضعونه ببالغ الدقة ؛ ويقيمون سكناً بالغ الكمال . لم يترك في الخارج إلا القليل جداً . الهيكل مرئي الآن ؛ الأوليات قد قيلت هنا ؛ إننا لسنا متباينين جداً ولا خسيسين جداً ؛ لقد صنعنا مستطيلات وأقمناها مربعات . هذا هو انتصارنا ؛ هذا هو عزاؤنا .

«إن حلاوة هذا الفيض القانع تجري على جدران عقلي ، وتحرر الفهم . فأقول : لا عجب بعد اليوم ؛ هذه هي النهاية . لقد أقيم المستطيل على المربع ؛ والبرج في الأعلى . لقد حملتنا الأحطاب إلى البحر . القائمون على أداء اللعبة يعودون مرة أخرى . لكنهم يمسحون وجوههم . وهم ليسوا الآن من ذوي الهندام الأنيق أو من ذوي الكياسة الفائقة . أنا سأذهب . سأدع هذه الظهيرة جانباً . سأحج . سأذهب إلى غرينيج . سأرتمي غير هيابة في قطارات الشوارع ، في حافلات الركاب . وإذ نتسكع في شارع ريجنت فأنا أصطدم بهذه المرأة وبذلك الرجل ، فالتصادم لا يؤذيني ولا يغضبني . ثمة مربع يقوم على مستطيل . هنا شوارع وضيعة تجري فيها

المساومة على الأسعار في أسواق الطرقات ، وتعرض فيها أنواع شتى من القضبان الحديدية والرتاجات والبراغي ، والناس يتجمهرون حذو الرصيف زرافات وهم يقرصون لحوم الطعام النَيْ بأصابع ثخينة . الهيكل مرئي ، لقد أقمنا سكناً .

«هذه هي ، إذن ، الأزهار التي تنمو بين حشائش الحقل الخشنة التي تطؤها الأبقار ، وقد قصمتها الريح ، وكادت تغدو شائهة ، بلا ثمار أو براعم . هذا ما آتي به ، حزمة أزهاري الرخيصة الثمن ، حزمة البنفسج الرخيصة الثمن أشتريها من شارع أوكسفورد مجذوذة الجذور . والآن أرى من نافذة الترام صواري السفن من بين المداخن ؛ ها هو النهر ؛ ها هي سفن تُبحر إلى الهند . سأسير بمحاذاة النهر . سأمشي على هذه السدّة ، حيث يقرأ شيخ ما جريدته في ملجأ زجاجي . سأمشي على هذه الشرفة وأرقب السفن تتهادى في المد . إحدى النساء تسير على سطح السفينة ، وكلب ينبح من حولها . ثوبها يتطاير ؛ شعرها يتطاير ؛ إنهم يعبرون البحر ؛ يتركوننا ؛ يختفون في هذا الأصيل الصيفي . الآن سأتخلّى أنا ؛ الآن سأنطلق متحررة من كل شيء . الآن سأحرر أخيراً الرغبة المكبوحة ، المرتعشة الصلب ، لكي تُلبّى ، لكي يُفضى بها . إننا سنخب معاً فوق هضاب صحراوية حيث يغمس السنونو أجنحته في برك قاتمة وتقوم الأعمدة بتمامها . إني أرمي إلى الموجة التي تتكسر على الشاطئ ، إلى الموجة التي تقذف بزبدها الأبيض على أقاصي زوايا الأرض ، أرمي بأزهاري من البنفسج ، عطيتي إلى بيرسيفال» .

twitter @baghdad_library

الشمس لم تعد معلقة في وسط السماء . ضوؤها مائل ، يسقط بانحدار . إنها تقنص حاشية من سحابة فتشعلها قطعة من ضياء ، وتحيلها جزيرة لاهبة لا تستقر عليها قدم . ثم سحابة أخرى يقتضيها الضياء ، تليها أخرى فأخرى ، حتى أن الأمواج في الأسفل قد أصابتها سهام بنصالها من الرياش المتقدة التي تمرق شاردة عبر الزرقة المرتعشة .

الأوراق القصوى من الشجرة نضرة في الشمس . إنها ترسل حفيفها بتصلب في النسيم العارض . الطيور تجلس ساكنة خلا أنها تدير رؤوسها بحدة من طرف إلى طرف . وتتوقف عن الإنشاد ، كأنها متخمة بالصوت ، كأن اكتمال الظهيرة قد بشمها . ذبابة اليعسوب تنتصب بلا حراك فوق قصبة ، ثم تنطلق بجسدها الأزرق بعيداً في الهواء . الطنين النائي في المدى البعيد كأنه يصدر عن الرعشة المنقطعة لأجنحة رقيقة ترفرف على الأفق . ماء النهر يمسك بالقصب كل المسك فكأن زجاجاً قد تصلب حوله ؛ ثم يهن الزجاج فينجرف الماء حول القصب المنحني . الأبقار ، متفكرة ، مطرقة الرؤوس ، تقف في الحقول وتحرك برهق قدماً ثم أخرى . وفي الجردل قرب البيت انقطعت قطرات الصنبور فكأن الجردل قد امتلأ ، ثم عادت قطرات منفصلة واحدة تلو أخرى على تعاقب .

النوافذ تُظهر بقعاً ضالة من نارٍ مشتعلة ، ويبين منها عضد من

غصن واحد ، ثم تنجلي عن حيّزها بقعة من صفاء نقي . الستارة تتدلى حمراء عند حافة النافذة ، وفي داخل الغرفة تسقط خناجر الضياء على المقاعد والمناضد فتحدث شروخاً في الطلاء . الدورق الأخضر ينتفخ ضخماً وشقه الأبيض مطولاً في جنبه . الضياء يطرد الظلمة فينتشر بين الزوايا وفوق مقابض الأبواب ؛ ولكنه يركم الظلام في كثبان غير مخلّقة الأشكال .

الأمواج تتكتل فتتقوس وتنحطم . وإذ بالأحجار والأحطاب تتناثر عالياً . إنها تنجرف حول الصخور ، والرذاذ يثب عالياً ، فيبلّ جدران كهف كانت يابسة ، ويترك في الداخل بركاً ، حيث جنحت سمكة تضرب بذيلها إذ تتراجع الموجة إلى البحر .

twitter @baghdad_library

قال لويس «وقعت إسمي عشرين مرة حتى الآن ؛ أنا ، ومرة أخرى ، فأخرى ، أنا . اسمي يستقر هناك واضحاً ، حاسماً ، لا لبس فيه . وأنا كذلك واضح المعالم ، جليّ ، لا لبس فيّ . ثم إن ميراثاً عظيماً من الخبرة قد تراكم فيّ . عشت ألف سنة . أنا مثل دودة شقت طريقها تأكل الخشب في شجرة بلوط قديمة . على أني الآن متكامل ؛ أنا الآن متماسك في هذا الصباح الرائع .

«الشمس تشع من سماء صافية . لكن الساعة الثانية عشرة لا تأتي لا بالمطر ولا بأشعة الشمس . إنها الساعة التي بها تجلب المس جونسون رسائلي في علبة من السلك . وعلى هذه الصحائف البيضاء أدمغ اسمي دمغاً ملزماً . همس الأوراق ، الماء يجري في الميازيب ، الخضار مبقع بزهور الداليا وزهور الزينيا ؛ أنا ، مرة دوق ، مرة أفلاطون ، رفيق سقراط ؛ المتشرد من رجال سمر ورجال صفر يهاجر شرقاً ، غرباً ، شمالاً ، وجنوباً ؛ الموكب الأزلي ، نسوة يسرن بحقائب الأوراق الجلدية في شارع ستراند Strand كما سرن حيناً من الدهر بالأباريق إلى النيل ؛ إن كل الأوراق المطوية والمرزومة كل الرزم لحياتي المتعددة الجوانب تُستدعى الآن في اسمي ؛ تنقش مجردة ودون شوائب على الصحيفة . مرة رجل كامل النماء ؛ مرة منتصب وقوفاً في الشمس أو المطر . يجب أن أرتمي ثقيلاً كفأس وأقطع شجرة البلوط بمحض وزني ، ذلك أني إذا انحرفت ، أنظر في هذه الجهة ،

أو في تلك الجهة ، فسأسقط كالثلج وابدَّد .

«إني شبه مغرم بالآلة الكاتبة والتلفون . وقد صهرت بالرسائل والبرقيات والأوامر المقضبة وإن مجاملة بالتلفون إلى باريس وبرلين ونيويورك ، حيواتي العديدة إلى حياة واحدة ؛ لقد ساعدت بكدّي وحسمي على وخط تلك الخطوط على الخارطة هناك والتي بواسطتها تنسج الأقسام المختلفة من العالم بعضها ببعض . إني أحب أن أدخل غرفتي في العاشرة بالضبط ؛ إني أحب الوهج الأرجواني للمهاغوني الغامق ؛ إني أحب المنضدة وحافتها الحادة ؛ والمجرات السلسة الحركة . إني أحب التلفون بشفته ممدودة لتلقي همسي ، والتاريخ على الجدار ؛ وسجل المواعيد . المستر برنتيس في الرابعة ؛ المستر آيريس في الرابعة والنصف بالضبط تماماً .

«إني أود أن يطلب مني المجيء إلى غرفة المستر بركارد وتقديم تقرير عن التزاماتنا للصين . إني أرجو أن أرث مقعداً وثيراً ذا مساند يد وسجادة تركية . إن كتفي يدير الدولاب ؛ إني أطوي الظلام أمامي ، ناشراً التجارة حيث كانت الفوضى في الأصقاع النائية من العالم . ولو أني واظبت ، صانعاً النظام من الفوضى ، فإني سأجد نفسي حيث وقف چاثام پتْ ، والسر روبرت بيل . وهكذا أقلع خصلاً معينة ، وأمحو تشويهات قديمة ؛ المرأة التي أعطتني علماً من أعلى شجرة الكرسمس ؛ لكنتي ؛ الضرب وتعذيبات أخرى ؛ الصبيان المتباهون ؛ أبي ، صيرفي في برسبن .

«لقد قرأت شاعري في مطعم ، وأصغيت وأنا أخوط قهوتي ، إلى الكتبة يراهنون وهم جلوس إلى الموائد الصغيرة ، وراقبت المرأة تتردد عند الكاونتر . إني قلت أنه ما من شيء ينبغي أن يكون غير ذي علاقة ، كأنه قطعة من ورق أسمر أُسقطت عرضاً على الأرض . إني قلت إن رحلاتهم يجب أن تكون ذات هدف منشود ؛ إنهم يجب أن يكسبوا أجرهم البالغ

twitter @baghdad_library

باونين ونصف في الأسبوع بإمرة سيد معظم ؛ إن يداً ما ، بردةً ما ، يجب أن تضمنا في المساء . وعندما أشفي هذه الكسور وأفهم هذه الفظاعات بحيث أنهم لا يحتاجون لا لعذرٍ ولا لاعتذار ، وكلاهما يبدد قوتنا ، فإني سأعيد للشارع وللمطعم ما فقدوه حينما واجهها تلك الأوقات الصعبة وانكسرا على تلك الشواطئ الصخرية . إني سأجمع بضع كلمات وأضرب حولنا حلقة مصبوبة من الحديد المطروق .

«لكنني الآن لا أملك لحظةً واحدة أوفرها . ليس ثمة راحة هنا ، ولا ظل تسقطه الأوراق الراعشة ، أو خميلة يستطيع المرء أن يعتكف فيها من الشمس ، أن يجلس مع عشيقةٍ في برودة الأصيل . إن وقر العالم على أكتافنا ؛ رؤية العالم هي من خلال عيوننا ؛ لو رمشنا أو نظرنا جانباً ، أو استدرنا لنؤشر بإصبعنا إلى ما قال أفلاطون أو نتذكر نابليون وفتوحاته ، فإننا نصيب العالم بجرح الانحراف . هذه هي الحياة ؛ المستر برنتيس في الرابعة ؛ المستر آيريس في الرابعة والنصف . إني أود أن أسمع الدق الناعم للمصعد والوقع الذي به يقف على طابقي والوطء الرجولي الثقيل لأقدام مسؤولة في الممر . وهكذا فبفضل مجهوداتنا المتحدة فإننا نبعث بالسفن إلى أقصى أجزاء الكرة الأرضية ؛ طافحة بالمرافق الصحية والأدوات الرياضية . إن وقر العالم على أكتافنا . هذه هي الحياة . لو أني ثابرت فسأرث مقعداً وسجادة ؛ مكاناً في ساري Surrey فيه بيوت زجاجية للنباتات ، وشجرة صنوبر نادرة ، ونبتة بطيخ أو شجرة مزهرة مما سيحسده التجار الآخرون .

«مع هذا فإنني لا أزال أحتفظ بغرفتي الصغيرة العليا . هناك أفتح كتابي الصغير المعتاد ؛ هناك أرقب المطر يتلألأ على الكاشي حتى يلتمع كمشمع الشرطي ؛ هناك أرى النوافذ المكسورة في بيوت الفقراء ؛ القطط النحيفة ؛ مومساً تنظر شزراً في مرآة مفطورة إذ هي ترتب وجهها تمهيداً

لركن الشارع ؛ هناك تأتي وردة أحياناً . ذلك لأننا عاشقان .

«بيرسيفال قد مات (مات في مصر ؛ مات في اليونان ؛ كل الميتات هي موتة واحدة) . سوزان لديها صغار ؛ نيفيل يرتقي سراعاً إلى مرتفعات جلية . الحياة تمر . الغيوم تتغيّر فوق بيوتنا على الدوام . إني أقوم بهذا ، أقوم بذاك ، ومرةً أخرى أقوم بهذا ثم بذاك . إننا إذ نلتقي ونفترق ، فنحن نستجمع أشكالاً مختلفة ، نخلق أنماطاً مختلفة . لكني إذا لم أسمِّر هذه الانطباعات على اللوحة ولم أخلق من الأشخاص المتعددين فيّ شخصاً واحداً ؛ إذا لم أخرج هنا والآن (بكلي) لا متفرقاً على شكل حزوز وبقع ، كأكاليل الثلج المتفرقة على الجبال البعيدة ؛ ولم أسأل المس جونسون إذ أمر بالمكتب عن السينمات وأتناول كوبي من الشاي وأقبل كذلك قطعتي المفضلة من البسكويت ، إني إذن سأسقط كالثلج وأتبدد .

«مع هذا فحين تحل الساعة السادسة وألمس طرف قبعتي بالتحية لحاجب البناية ، لكوني دائماً مسرف للغاية في مراسم المجاملات لرغبتي المفرطة بأن أكون مقبولاً ؛ وأناضل منحنياً للريح وقد زرّرت معطفي كاملاً ، وفكي مزرق وعيوني تجري بالماء ، وأرغب بأن تجلس كاتبة طابعة صغيرة على ركبتي تحتضنني ؛ وأحسب أن طبقي المفضل هو الكبدة وشرائح الخنزير ؛ وهكذا فإني حريّ بالتوجه متسكعاً إلى النهر ، إلى الشوارع الضيقة حيث الحانات المألوفة ، وظلال السفن في نهاية الشارع ، والنسوة يتشاجرن . لكني أقول لنفسي ، مسترجعاً رشدي ، المستر برنتيس في الرابعة ، المستر آيريس في الرابعة والنصف . إن الفأس يجب أن تسقط على اللوح ؛ شجرة البلوط يجب أن تقلع في الوسط . إن وقر العالم هو على كتفيّ . ها هو القلم والورقة ؛ وعلى الرسائل في السلة السلكية أوقع اسمي ، أنا ، أنا ، ومرة أخرى أنا» .

قالت سوزان «الصيف يأتي ، والشتاء . الفصول تمر . الكمثرى تنزع

twitter @baghdad_library

نفسها فتسقط من الشجرة . الورقة الميتة تستقر على حاشيتها . لكن البخار يحجب النافذة . إني أجلس بجنب النار أرقب الإناء يغلي . إني أرى شجرة الكمثرى من خلال البخار المحزّز على زجاج النافذة .

«إني أدندن مع نفسي : نامي ، نامي ، سيّان صيف أو شتاء ، سيان أيار أو تشرين ثان . أنا أغني نامي - أنا ، أغني الأنغام غير الشجية فلا أسمع موسيقى خلا موسيقى الريف حين يعوي كلب ، أو يرن جرس ، أو تصرج عجلات على الحصى . إني أغني أغنيتي بجنب النار كصَدفة قديمة توشوش على الشاطئ . إني أقول : نامي ، نامي ، منذرة بصوتي كل المقعقعين بصفائح الحليب ، المطلقين النار على الغدفان ، الرامين الأرانب ، أو الجالبين بأي شكل صدمة الدمار قريباً من هذا المهد الخوص ، المثقل بأطراف بدنٍ رخوة ، منثنية تحت لحافٍ وردي اللون .

«إني قد فقدت عدم اكتراثي ، وعيوني الفارغة ، عيوني العرموطية الشكل التي تنفذ في الجذور . إني لم أعد كانون أو أيار أو أي فصلٍ آخر ، بل إنني مغزولة بأجمعي خيطاً رفيعاً حول المهد ، أغلّف في شرنقة صنعت من دمي الأطراف الرقيقة لرضيعتي . إني أقول : نامي ، وأحس بباطني عنفاً ما يتدفق أشد وحشية وأعتم ظلمة ، بحيث أنني سأطرح أرضاً بضربة واحدة أي متطفل ، أي خطّاف ، يقتحم هذه الغرفة ويوقظ النائمة .

«إني أتهادى في الدار طيلة النهار بصديرية وخفين ، كأمي التي ماتت بالسرطان . إني لم أعد أعرف سواءً هو صيف أم هو شتاء ، من عشب المخاضة المائية أو زهرة الخلنج ؛ بل فقط أعرف من البخار على زجاج النافذة ، أو الجليد على زجاج النافذة . وحين تطلق القبّرة نبرة صوتها عالياً وتخر خلال الهواء كتفاحة تنفصل عن غصنها ، فإني أنحني ؛ أتحسس طفلتي . أني ، أنا التي دأبت على السير في غابات شجر الزان ألحظ ريشة طائر الزرياب تتحول زرقاء اللون إذ تسقط ، مارةً بالراعي وبالشريد ، والتي

تحدّق بالمرأة الجالسة القرفصاء قرب عربة منفطرة في حفرة ، صرت أتنقل من غرفة إلى غرفة وبيدي خرقة مسح الغبار . إني أقول : نامي ، متمنية أن يرخي النوم سدوله كغطاء من زغب الريش فيغطي هذه الأطراف الضعاف ؛ مطالبةً أن تغمد الحياة مخالبها وتطوّق بروقها وتمرّ ماضية ، فتصنع من بدني تجويفاً ، ملجأ دافئاً لطفلتي لكي تنام فيه . نامي ، أقول ، نامي . أو إني أذهب إلى النافذة ؛ إني أنظر إلى العش العالي لطير الغداف ؛ وإلى شجرة الكمثرى . وأفكر : (إن عيونه سوف ترى حينما تغمض عيني . إني سأذهب مختلطة بهم فيما وراء جسدي وسوف أرى الهند . إنه سيعود إلى الوطن ، آتياً بالجوائز لتوضع عند قدمي . إنه سيزيد من مقتنياتي) .

«لكني لا أنهض فجراً قط وأرى القطرات الأرجوانية في أوراق اللهانة ؛ والقطرات الحمراء في الورود . إنل لا أرقب الكلب الصياد يتشمشم في دائرة ، أو أستلقي في الليل أرقب أوراق الشجر تخبيء النجوم والنجوم تتحرك والأوراق تتدلى ثابتة . القصاب يأتي ؛ والحليب يجب أن يكون في الظل لئلا يحّمض .

«نامي ، أقول ، نامي ، إذ يغلي الإناء ويخرج نَفَسه أكثف أكثف وينبعث بنفثة واحدة من فتحته . هكذا تملأ الحياة عروقي . هكذا تصب الحياة في أطراف بدني . هكذا أساق إلى الأمام ، حتى يسعني أن أصرخ ، إذ أتنقل من الفجر إلى الغسق أفتح وأغلق . (لا مزيد . إني متخمة بالسعادة الطبيعية) . مع هذا فالمزيد سيأتي ، مزيد من الأطفال ؛ مزيد من المهود ، مزيد من السلال في المطبخ ولحوم الخنزير تنضج ؛ والبصل يتلألأ ؛ ومزيد من ألواح اللهانة والبطاطس . إني أُنفخ كورقة في الزوبعة ؛ مرة أتمسّح بالعشب البليل ، مرة متطايرة . إني متخمة بالسعادة الطبيعية ؛ وأتمنى أحياناً أن الإتراع سيذهب عني وأن ثقل البيت النائم يرتفع عني ، حين

twitter @baghdad_library

نجلس لنقرأ ، وأنا ألضم الخيط بثقب الإبرة . إن السراج يوقد ناراً في الزجاج المظلم . إن ناراً تشتعل في قلب اللبلاب . إني أرى شارعاً مضاء في الشجر الدائم الخضرة . إني أسمع أصوات المرور في خشخشة الريح في الممشى ، وأسمع أصواتاً متقطعة ، وضحكاً وجيني تصيح إذ ينفتح الباب : (تعالي ، تعالي!) .

«لكن ما من صوت يقطع صمت بيتنا ، حيث الحقول تتنهد قريباً من الباب . الريح تتسرب خلال أشجار الدردار ؛ فراشة ليل تصدم المصباح ؛ بقرة تخور ؛ ونأمه صوت تبدأ في العارضة الخشبية ، وأنا أدفع بخيطي خلال الإبرة وأغمغم : (نامي)» .

قالت جيني «الآن هي اللحظة . الآن قد التقينا ، واجتمعنا معاً . فلنتكلم ، فلنحكي حكايات . من هو؟ من هي؟ إني طُلّعة بصورة ذريعة ولا أدري ما الذي سيأتي ، لو أنك ، أنت الذي ألتقيته لأول مرة ، ستقول لي : «الحافلة تتحرك في الرابعة من بيكاديللي» ، فإنني لن أ بقى لأرمي ببعض الضروريات في علبة قبعات ، بل سآتي فوراً .

«فنجلس هنا تحت الأزهار المقصوصة ، على الأريكة بجنب الصورة . فلنزين شجرة الكرسمس بالوقائع ومرة أخرى بالوقائع . الناس سرعان ما ذهبوا ؛ فلتلحق بهم . ذلك الرجل هناك ، بجنب الدولاب ؛ أنت تقول إنه يعيش محاطاً بدوارق الصيني . اكسر دورقاً وستبدد ألف باون . وهو قد أحب فتاة في روما فتركته . من هنا الدوارق قديمة يعثر عليها في نُزل أو تنقّب حفراً من رمال الصحراء . وبما أن الجمال يجب أن يكسر يومياً ليبقى جميلاً ، وبما أن الرجل راكد الحركة ، فإن حياته تركد في بحر من الصيني . على أن الأمر غريب ؛ ذلك لأنه حيناً ما كشاب جلس على أرض رطبة وشرب شراب الرَم مع الجنود .

«إن المرء يجب أن يكون سريعاً ويضيف الوقائع برشاقة ، كالألعاب

تربط بشجرة ، مثبتاً إياها بحركة من إصبع . إنه ينحني ، يا له كيف ينحني ، حتى على شجرة زهر الأزاليا . إنه ينحني ولو لامرأة عجوز ، ترتدي أقراط الماس في أذنيها ، تجوب أطراف مزرعتها بعربة تجرها مهرة ، تصدر التوجيهات من ينبغي أن يعان ، أي شجرة يجب أن تقطع ، ومن ياتي غداً . (يجب أن أقول لك ، إني قد عشت حياتي ، كل هذه السنين ، وأنا الآن تجاوزت الثلاثين ، عشتها بخطر ، كعنزة جبلية تثب من شِعب إلى شعب ؛ إني لا أستقر طويلاً في أي مكان ؛ إني لا أربط نفسي بشخص واحد على وجه التخصيص ؛ لكنك ستكتشف أنني إذا رفعت ذراعي ، فإن شخصاً ما سينطلق من فوره وسيأتي) . وذلك الرجل قاضٍ ؛ وذلك الرجل مليونير ، وذلك الرجل ، ذو العوينات ، رمى مربيته في صدرها بسهم وهو في العاشرة من العمر . بعد ذلك امتطى الخيول عبر الصحراء مع قطعات عسكرية ، اشترك في ثورات ، والآن يجمع مادةً عن تاريخ أسرة أمه ، المقيمة من أمد طويل في نورفولك ، ذلك الرجل الصغير ذو الحنك الأزرق يده اليمنى مشلولة . لكن لماذا؟ لا ندري . أنت تهمس ، لياقةً ، أن تلك المرأة ، ذات الأقراط اللؤلؤية المتعددة الطبقات المتدلية من أذنيها ، كانت هي اللهب الصافي الذي أضاء حياة أحد ساستنا ؛ الآن ومنذ وفاته فإنها ترى أشباحاً ، تفتح الفال ، وقد تبنت شاباً بنيّ اللون والذي تدعوه المسيح . ذلك الرجل ذو الشوارب الهاطلة ، كأنه ضابط خيالية ، عاش حياة فاجرة على أقصى ما يكون الفجور (إنها كلها في مذكرات ما) إلى أن التقى ذات يوم شخصاً غريباً في قطار فردّه إلى الدين ما بين أدنبرة وكارلايل بقراءة «الكتاب المقدس» .

«وهكذا ، وببضع ثوانٍ ، فإننا نحل بتأنق وبراعة الرموز الهيروغليفية المكتوبة على وجوه الناس الآخرين . هنا ، في هذه الغرفة ، تُلقى الصَدفات المحكوكة والمعطوبة إلى الشاطئ . الباب يستمر بالانفتاح . الغرفة تمتلئ

twitter @baghdad_library

وتمتلئ بالمعرفة ، بالعذاب ، بأنواع عديدة من الطموح ، بالكثير من اللامبالاة ، وببعض اليأس . أنت تقول إننا فيما بيننا نستطيع أن نبني كاتدرائيات ، نملي سياسات ، نقضي على بشر بالموت ، وندير شؤون دوائر عامة متعددة . إن صندوق الخبرة المشترك عميق جداً . إن لدينا فيما بيننا عشرات من الأطفال من كلا الجنسين ، الذين نعلمهم ، نذهب لزيارتهم في المدرسة لإصابتهم بالحصبة ، وننشئهم لكي يرثوا بيوتنا . إننا بطريقة أو بأخرى نصنع هذا اليوم ، هذه الجمعة ، البعض بالذهاب إلى المحاكم ؛ آخرون بالذهاب إلى حي الأعمال ؛ آخرون بالذهاب إلى روضة الأطفال ؛ آخرون بالاستعراض وتشكيل رتل رباعي . إن ألف ألف يدٍ تخيط ، وترفع الآجر . الفعالية غير ذات نهاية . وغداً تبدأ مرة أخرى ؛ غداً نصنع السبت . البعض يأخذون قطاراً إلى فرنسا ؛ آخرون يأخذون سفينة إلى الهند . البعض لن يأتوا قط إلى هذه الغرفة مرة أخرى . أحدهم قد يموت هذه الليلة . وآخر ينجل طفلاً . منّا سينبعث كل نوعٍ من أنواع البناء والسياسة والمغامرة والصورة والشعر والطفل والمصنع . الحياة تمضي ؛ نحن نصنع الحياة . هكذا أنت تقول .

«لكننا نحن الذين نحيا بالجسد نبصر الأشياء بمخيلة الجسد بشكل تقريبي . إني أرى صخوراً في أشعة الشمس الساطعة . إني لا أستطيع أخذ هذه الوقائع إلى كهفٍ ما فأصنّف ، وأنا أظلل عيوني بيدي ، ألوانها الصفراء ، وألوانها الزرقاء ، وألوانها العنبرية ، إلى جوهرٍ واحد . إني لا أستطيع البقاء جالسة لأمد طويل . إني يجب أن أقفز وأذهب . الحافلة قد تتحرك من بيكاديللي . إني أُسقط كل هذه الوقائع - الماس ، الأيدي المشلولة ، الدوارق الصيني وبقية ما هنالك- كما يُسقط قرد جوزاً من براثنه العارية . إني لا أستطيع أن أخبرك إذا كانت الحياة هذا الشيء أو ذاك . إني سأمضي لأتقحّم داخلة بين الجمهور المتغاير العناصر . إني سأصدم ؛

سأقذف عالياً ، وأقذف سافلاً ، بين رجال ، كسفينة في البحر .

«ذلك أن جسدي الآن ، رفيقي ، والذي يبعث دائماً بإشاراته ، الـ (لا) السوداء الفظة ، والـ(تعال) الذهبية ، في سهام متلاحقة سريعة من المشاعر المثارة ، جسدي الآن يومئ مغرياً . إن أحداً ما يتحرك . هل رفعت ذراعي؟ هل نظرت؟ هل أن ملفعي الأصفر ذا النقط الحمراوية بلون الستروبيري يطفو ويؤشر؟ إنه الشخص قد انفصل عن الجدار . ان يتبّع . إني ألاحق خلال الغالة . كل شيء جذل النشوة ، كل شيء ليلي ، والببغاوات تمضي زاعقة خلال الأغصان . إن كل حواسي تقف منتصبة . الآن أشعر بخشونة النسيج للستارة التي أُدفع خلالها ؛ الآن أشعر بالسياج الحديدي البارد ولونه ذي البثور تحت راحة كفي . الآن يحطم المد البارد للظلام مياهه فوقي . إننا في الخارج . الليل ينفتح ؛ الليل يجوبه الفراش التائه ؛ الليل يخفي العشاق يطوفون ليغامروا . إني أشم وروداً ؛ إني أشم بنفسجاً ؛ إني أرى أحمر وأزرق اختفى لتوه . مرةً حصى تحت حذائي ؛ مرةً عشب . وترتفع ملتفة الظهور الطويلة للبيوت مذنبّة بالأضواء . لندن كلها قلقة بأضواء براقة . الآن فلنغن أغنية حبنا - تعال ، تعال ، تعال . الآن إشارتي الذهبية هي كذبابة يعسوب تطير متوترة . إني أغني كالعندليب ونغمه يزدحم في الممر الضيق جداً لحوصلته . الآن إني أسمع الانحطام والانتزاع للغصون وقرقعة قرون الوعول كما لو أن بهيمة الغاب كلها تصيد ، كلها تثب عالياً وتهوي غائرة بين الأشواك . إن واحداً قد شقني . إن واحداً قد انغرز عميقاً في باطني .

«والزهور والأوراق المخملية والتي أُوقفت برودتها في الماء تغسلني من جميع الأطراف ، وتكسوني ، مضمخة إياي لتصونني من البلى» .

قال نيفيل «لِمَ النظر إلى الساعة تدق على رف الموقد؟ الزمن يمضي ، أجل . ونحن يتقدم بنا العمر . لكن أن أجلس معك ، وحيداً معك ، هنا

twitter @baghdad_library

في لندن ، في هذه الغرفة المضاءة بنار الموقد ، أنت هناك ، أنا هنا ، هو كل شيء . العالم لا يعود صالحاً بعدُ وهو منهوب نهباً حتى أقصى ما فيه ، وكل مرتفعاته تُنزع عنها أزهارها وتجمع . انظر إلى ضوء النار يجري صاعداً ونازلاً في الخيط الذهبي للستارة . والثمرة التي يحيط بها الضوء تنحني مثقلة . إن ضوء النار يسقط على إبهام حذائك ، إنه يزوّد وجهك بحافة حمراء - أظنه ضوء النار وليس وجهك ؛ أظن أن هذه كتب على الجدار ، وهذه ستارة ، وهذا لعله مقعد وثير . لكن حين تأتي كل شيء يتغير . الأكواب وصحونها تغيّرت حين أتيت هذا الصباح . لا يمكن أن يساورني أي شك ، وأنا أفكر ملقياً بالجريدة جانباً ، أن حيواتنا الوضيعة ، على ما هي عليه من قبح ، لا تكتسي بالبهاء وتكتسب معنى إلا تحت عيون الحب .

«نهضتُ ، وقد أنهيت تناول فطوري . كان النهار بأسره أمامنا ، وإذ كان نهاراً رائعاً ، رقيقاً ، ملتبس النية هل يصحو أم يغيم ، فقد سرنا عبر المنتزه إلى السدة ، حذو الستراند إلى حي سان بول ، ثم إلى الدكان حيث اشتريت مظلة مطر ، وأنا أتكلم دائماً ، وأتوقف بين حين وحين لأنظر . لكن هل يمكن أن يستمر هذا؟ قلت لنفسي هذا ، عند أسدٍ من تماثيل الأسود في ميدان الطرف الأغر ، عند الأسد الذي يُرى مرة وإلى الأبد ؛ - وهكذا أعيد الزيارة لماضي حياتي ، مشهداً فمشهداً ؛ ها هي شجرة دردار ، وهناك يثوى بيرسيفال . إلى الأبد ، إلى الأبد ، وأقسمُ بذلك . عندئذٍ تسرب إليّ مارقاً الشك المعتاد . أمسكتُ بيدك بقوة . وتركتني . والنزول إلى قطار تحت الأرض كالموت . إننا نُقصى ، إننا نُفصل فصلاً بواسطة كل هذه الوجوه والريح الجوفاء التي تبدو وكأنها تزأر هناك على جلاميد الصخر الصحراوية . جلستُ محدقاً في غرفتي . وبحلول الخامسة عرفت أنك عديم الوفاء . التقطت التلفون وهو يرن ، بصوته السخيف في غرفتك الخيالية يدك قلبي دكاً ، حين انفتح الباب وأنت واقف فيه . كان ذلك اللقاء ، من

بين لقاءاتنا جميعاً ، هو اللقاء البالغ الكمال . لكن هذه اللقاءات ، هذه الافتراقات ، تحطمنا في النهاية .

«الآن هذه الغرفة تبدو لي مركزية ، شيئاً قد غُرف غرفاً من الليل الأزلي . الخطوط في الخارج تلتوي وتتقاطع ، لكنها تضمنا ضماً . هنا نحن نتمركز . هنا بوسعنا أن نكون صامتين ، أو أن نتكلم دون أن نرفع أصواتنا . نقول هل لاحظت ذاك الشيء وثم ذاك؟ قال الرجل ذاك الشيء ، وهو يعني . . . أنها المرأة ترددت ، وأنا أعتقد أنه عنى ارتابت . على كل حال ، إني سمعت أصواتاً ، جهشة بكاء على السلم في ساعة متأخرة من الليل . إنها نهاية علاقتهما . وهكذا فإننا نغزل حوالينا دون انقطاع شعيرات رفيعة وننشئ منظومة من المنظومات . أفلاطون وشكسبير داخلان في ذلك ، وكذلك أناس مغمورون تماماً ، أناس لا أهمية لهم على الإطلاق . إني أكره أولئك الذين يعلقون الصلبان على الجانب الأيسر في صدارهم . إني أكره المراسم والمناحات وجسد المسيح الحزين يرتجف بجنب جسد آخر حزين ومرتجف . كذلك الفخفخة واللامبالاة والتوكيد من أناس توكيداً موجهاً على الدوام نحو النقطة الخاطئة ، وهم يبدون الاقتراحات تحت ثريات بكامل ملابس السهرة ، معلقين على أكتافهم وصدورهم النجمات والأوسمة . لكن إنّ غصيناً في سياج من وشيع ، أو غروباً فوق حقل شتائي منبسط ، أو زيادة على هذا الطريقة التي بها تجلس امرأة عجوز ، وقد تخصّرت ، في باص ومعها سلتها - هذه أمور نومئ لها لكي يتطلع فيها الآخرون . يا له من تلطيف ذريع أن تتمكن من الإيماء لآخر لكي يتطلع . ثم ألا تتكلم . أن تتبع الدروب المظلمة للعقل وتدخل الماضي ، أن تزور كتباً ، أن تدفع بأغصانها جانباً فتقطف بعض الثمار . وأنت تتلقى ذلك وتعجب ، كما أتلقى أنا الحركات المهملة لجسدك وأعجب من يسرها ، من قوتها -كيف تفتح النوافذ على مصراعيها فتحاً قاذفاً وكيف أنك حاذق

twitter @baghdad_library

بيديك . ذلك أن عقلي ، وا أسفاه ، هو معاق بعض الشيء . إنه سرعان ما يتعب ؛ إني أسقط كئيباً- ربما مقززاً ، عند موضع الهدف .

«وا أسفاه! إني لا أستطيع ركوب حصان في الهند بخوذة واقية من الشمس والعودة إلى سقيفة . إني لا أستطيع أن أتقلب كما تفعلون ، مثل صبيان نصف عراة يرشون بعضهم بعضاً بخراطيم الماء . إني أريد هذه النار ، أريد هذا المقعد . إني أريد أحداً يجلس بجانبي بعد سعي النهار بما فيه من عذاب ، وإصغاءات ، وانتظارات ، وشكوك . إني بعد التخاصم والمصالحة أحتاج الخلوة الانفرادية - أن أكون وحيداً معك ,لأضع نهاية صحيحة لهذا الهرج والمرج . ذلك أنني في عاداتي أنيقاً أناقة القطة . إننا يجب أن نقف بوجه التبديد والتشويه للعالم ، بوجه غوغائه الدائر في دوامة باستمرار ملفوظاً كحمم البراكين وواطئاً بأقدامه ما أمامه . إن على المرء أن يدس قاطعة ورق ، حتى ، بكل دقة خلال صحائف الروايات ، ويربط حُزم الرسائل بأناقة بأشرطة حريرية خضراء ، ويكنس تراب الفحم بمكنسة موقد النار . إن كل شيء يجب فعله لشجب فظاعة التشويه . فلنقرأ كتّاباً هم بصرامة الرومان وفضيلتهم ؛ فلنبحث عن الكمال خلال الرمال . أجل ، لكني أحب أن أدس فضيلة وصرامة الرومان النبلاء تحت الضوء الأشهل لعينيك ، وتحت الأعشاب المتراقصة ونسائم الصيف والضحك والصياح لصبيان يلعبون - صبيان نصف عراة يرشون بعضهم بعضاً بخراطيم المياه على سطوح السفن . من هنا فإنني لست ، كلويس ، ساعياً متجرداً وراء الكمال من خلال الرمال . الألوان دائماً تصبغ الصحيفة ؛ الغيوم تمر فوقها . والشعر ، على ما أظن ، ما هو إلا صوتك وأنت تتكلم . إن ألصبياديس Alcibiades وأجاكس Ajax وهكتور وبيرسيفال هم كذلك أنت . إنهم أغرموا بركوب الخيل ، وخاطروا بإزدراء ، ولم يكونوا أيضاً من كبار القراء . لكنك أنت لست أجاكس أو بيرسيفال . إنهم لم

يكونوا يغضنون أنوفهم ويحكون جباههم بإيماءتك الدقيقة . إنما أنت أنت . ذلك هو ما يعزيني عن عوزي لأشياء عديدة - إني قبيح ، إني ضعيف - وعن وضاعة العالم ، وعن فرار عمر الشباب ووفاة بيرسيفال ، وعن الحقد والضغينة وأنواع لا تحصى من الحسد .

«لكن لو أنك يوماً ما لم تأت بعد الفطور ، لو أني رأيتك يوماً ما في مرآةٍ ما تبغي ربما شخصاً آخر ، لو أن التلفون رنّ ورنّ في غرفتك الفارغة ، فإنيٍ عندئذٍ ، وبعد عذابٍ لا يمكن أن يفصح عنه الكلام ، إني عندئذٍ - ذلك أنه ليسٍ لحماقة القلبٍ الإنساني من حدود - سأبتغي أنت آخرٍ ، أجد أنت آخر . في هذه الأثناء دعنا نلغي دقات ساعة الوقت بضربة واحدة . تعال اقترب مني أكثر» .

twitter @baghdad_library

الشمس الآن قد انحدرت مسافة أوطأ في السماء . وجزر السحاب قد تنامت في الكثافة وسحبت نفسها عبر الشمس بحيث أن الصخور غدت سوداء فجأة ، وفقد نبات البحر الراعش زرقته وغدا فضياً ، والظلال تتطاير كأقمشة رمادية فوق البحر . ولم تعد الأمواج لتزور البرك البعيدة وتبلغ الخط الأسود المنقّط الذي يمتد معلّماً دون انتظام على الساحل . الرمال لؤلؤية البياض ، مصقولة ولامعة .

طيور تخر وتدور عالياً في الفضاء . بعضها تسّابق في طيات الريح وتستدير وتشج خلالها كما لو أنها بدن واحد قُطِّعت إلى ألف جذاذة . طيور تسقط كشبكة تنزل على أعالي الشجر . هنا طير واحد يتخذ طريقه منفرداً موجهاً جنحه نحو المستنقع فيقف وحيداً على وتد أبيض يفتح أجنحته ويضمها .

بعض تويجات سقطت في الجنينة . إنها تستقر بهيئة الصدفات على الأرض . الورقة الميتة لم تعد تقف على حافتها ، بل إنها قد نُفخت ، مرة تجري ، مرة تتوقف ، لُصق أحد السيقان . وخلال كل الأزهار تمر ذات الموجة من الضياء برفيف وتوهج مباغتين كما لو أن زعنفة قد قطعت العشب الأخضر لبحيرة . . بين آن وآن فإن هبة مستوية وحاذقة تطير الأوراق ، المركومة طيات ، عالياً وسافلاً ، ومن ثم وإذ خفقت الريح ، فإن كل ورقة عشب قد استردت هويتها . والأزهار ،

وهي تشعل دوائرها البراقة بالشمس ، تقذف جانباً ضياء الشمس إذ تهزها الريح ، وعندئذٍ فإن رؤساً هي من الثقل بحيث لا تنهض ثانية تنحني قليلاً .

شمس العصر سخّنت الحقول ، وصبّت الزرقة في الظلال وحمّرت القمح . إن طلاءً عميقاً قد وُضع كصبغة لامعة فوق الحقول . وإن عربةً ، حصاناً ، سرباً من غدفان- كائناً ما كان الذي يتحرك فيه يكتسي من أطرافه بالذهب . وإذا حركت بقرةٌ ساقاً فإنها تحرك رجرجةً من الذهب الأحمر ، وتبدو قرونها مبطّنة بالضياء . وأغصان القمح المصقولة الشعيرات تستقر على الوشيع ، نُفضت من العربة الرثة القادمة من المروج قصيرة الأرجل وبدائية المظهر . والسحب المكورة الرؤوس ما تضاءلت قط تنداح ، وحفظت على كل ذرةٍ تكورها . الآن تمرّ ، فقد قنصت قرية بأسرها في رمية شبكتها ، وإذا مرّت ، فإنها أتاحت لها أن تفلت مرةً أخرى . وبعيداً على الأفق ، وبين ملايين الحبيبات من الغبار الرمادي - الأزرق ، تشتعل زجاجة واحدة ، أو تقيم الخط المنفرد لتيلة واحدة أو شجرة واحدة .

إن الستائر الحمراء والكتائب البيض تخفق داخلة خارجة ترفرف على حافة النافذة ، والضياء الذي دخل بالرفرفات وبأعماق غير متساوية فيه شيء من صبغة بنية ، وبعض الانسياح إذ يهب خلال الستائر الخافقة في نفثات . إنه هنا يغمّق بنيٌّ دولاب ، هناك يغمق حمرة مقعد ، هنا يجعل النافذة تتماوج بجنب الإناء الأخضر .

إن كل شيء للحظة يتماوج وينثني بغموض وتردد ، كما لو أن فراشة عظيمة تطوف في الغرفة قد ألقت ظلالاً على الصلادة الذريعة للمقاعد والمناضد بأجنحة عائمة .

twitter @baghdad_library

قال بيرنارد «والزمن يدع قطرته تسقط . القطرة التي تألفت على سطح الروح سقطت . وعلى سطح العقل يدع الزمن ، وهو يتألف ، قطرته تسقط . في الأسبوع الماضي ، إذ وقفت أحلق ، سقطت القطرة . إني ، واقفاً والموسى بيدي ، أدركت فجأت الطبيعة العارضة المحضة لعملي (هذه هي القطرة تتألف) وهنأت يدي ، ساخراً ، لمواصلتها العمل . احلق ، احلق ، احلق ، قلت . استمر بالحلاقة . القطرة سقطت . وطيلة عمل النهار ، في فترات ، ذهب عقلي إلى مكان فارغ ، سائلاً : (ما الذي فُقد؟ ما الذي انتهى؟) وتمتمت : (انتهى وانقضى ، انتهى وانقضى ، معزياً نفسي بالكلمات . الناس لاحظوا فراغ وجهي وعبث محادثتي . إن الكلمات الأخيرة من جملتي تتضاءل بالتدريج . وإذ زرّرت معطفي لأذهب إلى البيت فإني قلت على نحوٍ درامي أشد : (إني فقدت شبابي) .

«إنه لمن الطريف ، فيً كل أزمة ، كيف أن عبارة ما والتي لا تلائم الحال تصر على أن تنقذ الوضع - تلك هي عقوبة العيش في حضارة قديمة مع دفتر . هذه القطرة تسقط لا علاقة لها بفقدي لشبابي . هذه القطرة تسقط هي زمن يتناقص إلى حد ما . الزمن ، الذي هو مرعى مشمس مغطى بضياء متراقص ، الزمن الذي هو منتشر كحقل في الظهيرة ، يمسي متدلياً . الزمن يتناقص إلى حدٍ ما . وكقطرة تسقط من كاس مثقل ببعض الترسب ، يسقط الزمن . هذه هي الدورات الحقيقية ، هذه هي الأحداث

الحقيقية . عندئذٍ وكما لو أن كل نورانية الفضاء قد سحبت فإني أرى حتى القاع السحيق . إني أرى ما تغطي العادة . إني أستلقي كسولاً في الفراش لأيام . إني أتعشى في الخارج وأفغر فاهي كسمكة قد . إني لا أعبأ بأن أنهي جملي ، وإنّ أعمالي ، وهي عادة غير دقيقة للغاية ، تكتسب دقة آلية . بهذه المناسبة ، وإذ أنا أمر بمكتب ، دخلت واشتريت ، بطل رباطة الجأش لشخص آلي ، بطاقة إلى روما .

«الآن إني أجلس على كرسي حجري في هذه الحدائق استعرض المدينة الأزلية ، وإذا بالرجل الصغير الذي كان يحلق في لندن قبل خمسة أيام يبدو أصلاً مثل كومة من ملابس عتيقة . لندن أيضاً قد تهاوت . لندن تتألف من مصانع خربة وبضع عدادات غاز . وفي عين الوقت فإني لا علاقة لي بهذا المهرجان . إني أرى القساوسة مكتسين بأوشحتهم البنفسجية وأرى المربيات الفاتنات ؛ إني لا ألاحظ سوى المظاهر الخارجية . إني أجلس هنا كمتماثل للشفاء يبلّ من مرض ، كرجل بسيط جداً لا يعرف سوى كلمات ذات مقطع واحد . (الشمس حارة) . أقول : (الريح باردة) . إني أشعر بنفسي محمولاً أدور كحشرة في أعلى الأرض وبوسعي أن أقسم بأنني ، إذ أجلس هنا ، أشعر بصلابتها ، بحركتها الدائرة . إني لا رغبة عندي في الذهاب بالاتجاه المعاكس لاتجاه الأرض . ولو أستطيع إطالة هذا الشعور لستٍّ بوصات أخرى لمسست ، كما ينبئني هاجسي ، إقليماً ما عجيباً غريباً . لكن خراطيمي محدودة جداً . إني لا أرغب قط بإطالة هذه الحالات من الانفصال ؛ إني أكرهها ؛ إني كذلك أزدريها . إني لا أرغب أن أكون شخصاً يجلس لخمسين سنة في نفس المكان يفكر بصرته . إني أرغب أن أُربط إلى عربة ، عربة مخضرات ، التي تقعقع على حجارة الطريق .

«والحقيقة هي أني لست أحد أولئك الذين يجدون ارتياحهم القانع

twitter @baghdad_library

في شخص واحد ، أو في المطلق . الغرفة الخاصة تضجرني ، كذلك السماء . إن كياني لا يتلألأ إلا حين تتعرض كل جوانبي لأناس عديدين . دعهم يخيبوا وأنا مليء بالثغرات ، أتلاشى كقصاصة محروقة . إني أقول : يا مسز ما فات ، يا مسز ما فات ، تعالي واكنسيه جميعاً . إن أشياء قد سقطت مني . لقد جاوزت بعض الرغبات ؛ لقد خسرت أصدقاء ، بعضهم بالموت -بيرسيفال- وآخرين بمحض عدم القدرة على عبور الشارع . إني لست موهوباً بالدرجة التي بدت محتملة حيناً من الزمن . إن أشياء معينة تقع خارج نطاقي . إني لن أفهم قط المعضلات الأصعب للفلسفة . روما هي الحد لسفري لا أبعد . وإذ أستسلم للنوم فإنه يخطر لي أحياناً بغصة في القلب أنني لن أرى قط همجاً في تاهيتي يصطادون السمك بالرماح على ضوء نبراس ساطع ، أو أسداً يثب في غابة ، أو رجلاً عارياً يأكل السمك النيء . كما لن أتعلم الروسية أو أقرأ كتب الهندوس الدينية الأربعة . إني لن أسير ثانية قط مصطدماً بصندوق البريد . (لكن مع هذا فثمة بضع نجوم تسقط خلال ليلي ، بكل جمال ، من عنف تلك الرجة) . لكن ، وكما أظن ، فإن الحقيقة قد اقتربت أكثر . إني لعدة سنوات دندنت مع نفسي راضياً : (أطفالي . . . زوجتي . . . بيتي . . . كلبي) . وما أن أدخل مع مفتاحي حتى أمارس تلك الطقوس المألوفة وأدثر نفسي بتلك الأغطية الدافئة . والآن فإن تلك الغلالة الفاتنة قد سقطت . إني لا أريد مقتنيات الآن . (ملاحظة : إن غسالة ملابس إيطالية تقف على نفس الدرجة من الصقل المادي كإبنة دوق إنكليزي) .

«لكن دعوني أتدبر . القطرة تسقط ؛ إن مرحلة أخرى قد تم بلوغها . مرحلة فوق مرحلة . ولِمَ يجب أن تكون هناك نهاية للمراحل؟ وإلى أين تقود المراحل؟ إلى أي نتيجة؟ ذلك أنها تحل مكتسيةً بُرَد الوقار . في هذه المحن المحيرة يشاور التقاة أولئك الذوات المتشحين بالكسوة البنفسجية

والمتسمين بقسمات الملذات الحسية والذين تمر مواكبهم أمامي . لكن بالنسبة لنا ، إننا نستهجن المعلمين . فلينهض رجل ليقول : (انظروا ، هذه هي الحقيقة) . وسأتصور من فوري قطة ترابية اللون تنهب قطعة سمك في المؤخرة . انظر ، إنك نسيت القطة ، أقول . وهكذا ثارت ثائرة نيفيل في المدرسة ، في الكنيسة المعتمة ، لمشهد صليب الدكتور . إني ، أنا الذي يُحوِّل انتباهي دائماً سواء بقطة أو بنحلة تطن حول باقة الزهور التي تظل الليدي هامبدن تضغطها ببالغ العناية على أنفها ، اختلق من فوري حكاية وبذا أطفف من حدة زوايا الصليب . لقد اختلقت آلاف الحكايات ؛ لقد ملأت عدداً لا يحصى من الدفاتر بعبارات لكي تستعمل حين أعثر على الحكاية الحقيقية ، الحكاية الواحدة التي لها تشير كل هذه العبارات . لكن لم أعثر بعد قط على تلك الحكاية . وأبدأ فأسأل : هل هناك حكايات؟

«أُنظر الآن من هذه الشرفة إلى السكان المكتظين في الأسفل . أنظر إلى النشاط العام والضجيج المستحوذ . الرجل يعاني صعوبة مع بغلته . نصف دزينة من المتسكعين الطيبين يعرضون خدماتهم . آخرون يمرون دون أن ينظروا . إن لديهم من الاهتمامات بعدد ما في الوشيعة من الخيوط . أنظروا إلى تفسّح السماء ، تنداح فيها سحب مدورة بيضاء . تصوروا أمشاج الأراضي المستوية ومجاري المياه والرصيف المعبد الروماني المتكسر وشواهد القبور في كامبانيا ، وفيما وراء كامبانيا البحر ، ثم مرة أخرى مزيد من الأراضي ، ثم البحر . إن بوسعي أن أقتطع أي جزء من أجزاء كل هذا المنظور - مثلاً العربة التي يجرها بغل- وأصفه بكل سهولة ويسر . لكن لِمَ وصف رجل يعاني صعوبة مع بغلته؟ ومرة أخرى ، بوسعي أن أخترع حكايات عن تلك الفتاة التي تصعد درجات العتبة . (التقته تحت الرواق المعتم ذي الطوق . . . قال : انتهى الأمر ، وهو يستدير من القفص حيث تتدلى الببغاء الصيني) . أو ببساطة : (كان هذا كل ما هنالك) . لكن لِمَ

twitter @baghdad_library

أفرض تصميمي الاعتباطي؟ لِمَ أؤكد هذا وأشكّل ذاك وألوي أشكالاً بسيطة كالألعاب التي يبيعها الباعة معروضة في الشارع؟ لِمَ أنتخب هذا الجزء التفصيلي الواحد من كل ذلك المجموع؟

«ها أنني هنا أنزع عني واحداً من جلود حياتي ، وكل الذي سيقولونه هو : (إن بيرنارد يقضي عشرة أيام في روما) . ها أنني هنا أذرع ذهاباً وإياباً هذه الشرفة وحدي ، على غير هدى . لكنني ألاحظ إذ أمشي كيف أن النقاط والخطوط القصيرة تبدأ بوصل بعضها ببعض إلى خطوط طويلة مستمرة ، كيف أن الأشياء تفقد هويتها البارزة ، المنفصلة ، التي كانت فيها إذ صعدت هذه الدرجات . إن السندانة الكبيرة الحمراء هي الآن خصلة حمراوية في موج من الخضار الصفراوي . إن العالم أخذ يتحرك ماراً كجوانب السياج حين يتحرك القطار ، كأمواج البحر حين تجري باخرة . إنني أنا أتحرك أيضاً ، أنا أصير مشمولاً بالمسلسل العام حين يعقب الشيءُ الشيءَ ويبدو من المحتم أن الشجرة آتية ، ثم عمود البرق ، ثم الانقطاع في سياج الوشيع . وإني إذ أتحرك ، محاطاً ، مشمولاً ، ومشتركاً بالجهد ، فإن العبارات المعتادة تبدأ تغلي مطلقةً فقاعات ، وأنا أرجو أن أحرر هذه الفقاعات من باب المصيدة في رأسي ، وأن أوجّه خطاي بالتالي نحو ذلك الرجل ، وقفا رأسه شبه مألوف لديّ . لقد كنا في المدرسة معاً . إننا بلا ريب سنلتقي . إننا بالتأكيد سنتغدى معاً . سنتكلم . لكن انتظر ، لحظة انتظار واحدة .

«إن لحظات الفرار هذه لا ينبغي أن تُزدرى . إنها لا تأتي إلا نادراً . وتاهيتي تضحى ممكنة . وإذ أنحني فوق هذا الدرابزين فإني أرى على البعد انبساطاً من ماء . زعنفة تدور . إن هذا الانطباع البصري المجرد لا اتصال له بأي وجهة من وجوه التفكير ، إنه ينبعث كما قد يرى المرء زعنفة خنزير البحر على الأفق . إن الانطباعات البصرية غالباً ما ترسل بهذا الاقتضاب

مقولات والتي سنستخرجها في زمنٍ آتٍ ونستدرجها إلى كلمات . لذلك فإني أدون تحت حرف زاء : (زعنفة في بدد من ماء) . إني ، أنا الذي أدون الملحوظات على الدوام في هامش عقلي من أجل مقولة ما نهائية ، أضع هذه العلامة ، منتظراً أمسيةً من أماسي الشتاء .

«الآن سأذهب وأتناول غدائي في مكانٍ ما ، وسأرفع قدحي ، وسأنظر خلال النبيذ ، وسألاحظ بموضوعية تفوق موضوعيتي المعتادة ، وحين تدخل امرأة حسناء المطعم وتمشي في الصالة بين الموائد فسأقول لنفسي : (أنظر حيث تأتي وسط بددٍ من ماء) . ملاحظة لا معنى لها ، لكنها بالنسبة لي رصينة ، ذات لونٍ رمادي داكن ضارب إلى لون الأرجوان ، ولها صدى فتاك من عوالم ومياه مدمِّرة تهوي نحو الدمار .

«وهكذا ، يا بيرنارد (إني أستدعيك ، أنت الشريك المعتاد في مشاريعي) ، فلنبدأ هذا الفصل الجديد ، ولنلحظ تشكّل هذه التجربة الجديدة ، هذه التجربة المجهولة ، الغريبة ، المفزعة ، وغير المشخّصة كلياً – القطرة الجديدة– التي هي على وشك أن تشكّل نفسها . لارپنت هو اسم ذلك الرجل» .

قالت سوزان «في هذه الأمسية الحارة ، هنا في هذه الحديقة ، هنا في هذا الحقل حيث أسير مع ابني ، فإنيٍ قد بلغتُ أوج رغباتي . إن مشد البوابة صدء ؛ ابني يسحبها سحباً فيفتحها . إن العواطف العنيفة للطفولة ، دموعي في الحديقة حين قبّلت جين لويس ، غضبي في الصف الذي تفوح منه رائحة شجر الصنوبر ، وحدتي في الأمكنة الأجنبية ، حين جاءت البغال تقعقع على حوافرها المستدقة والنسوة الإيطاليات يثرثرن عند النافورة ، ملفّعات ، والقرنفل في شعورهن ، كل هذا كوفئ بالأمن ، والاقتناء ، والألفة . لقد أمضيت سنين آمنة ، منتجة . إني أملك كل ما أرى . لقد زرعت أشجاراً نمّيتها منذ البذرة . لقد صنعت بركاً فيها تختبئ

twitter @baghdad_library

الأسماك الملونة تحت الليلاق العريض الأوراق . لقد نسجت شباكاً فوق ألواح الستروبري وألواح الخس ، وحفظت الكمثرى والأجاص في أكياس بيضاء لحفظها أمينة من الزنابير . لقد رأيت أبنائي وبناتي ، وكانوا حيناً من الزمن مكلبين بالشباك كالثمار في أسرّتهم ، يشقون الشبك المنسوج ويسيرون معي ، أطول مني ، وهم يلقون ظلالاً على العشب .

«إني مسوّرة ، مزروعة هنا كواحدة من أشجاري . إني أقول : (ابني ، إني أقول : ابنتي) ، وحتى الحداد وهو يرفع نظره من العارضة المنتشرة بالمسامير والصبغ وسلك التسييج يحتدم العربة الرثة في الباب بما فيها من شباك صيد الفراشات ، ولبّاد السروج وخلايا النحل . إننا نعلّق نبت الهدال فوق الساعة في الكرسمس ، ونزن ما عندنا من توت أسود ، ونحسب قناني المربى ونقف سنة بعد سنة لكي يقاس طولنا على كتائب نافذة غرفة الجلوس . إني كذلك أصنع أكاليل من أزهارٍ بيضاء اللون ، أبرم بينها نباتات فضية الأوراق ، للموتى ، فأربط بطاقتي مع الأسى للراعي الميت ، مع العطف لزوجة سائق العربة الميت ؛ وأجلس بجنب أسرّة نساء محتضرات ، اللاتي يتمتن بآخر ما عندهن من فزع ، وهن يمسكن يدي ؛ أتردد على غرفٍ لا تطاق إلا لواحد وُلد كما وُلدت وتعرّف مبكراً على باحة الحقل وركام البعرور والدجاج يهيم داخلاً وخارجاً ، والأم ذات الغرفتين والأطفال الآخذين بالنمو . إني قد رأيت النوافذ تسيل بالحرارة ، وقد شممت البالوعة .

«إني أسأل الآن ، وأنا أقف وبيدي المقص بين أزهاري : من أين يمكن للظل أن يدخل؟ أي صدمة يمكن أن تُرخي حياتي التي جُمعت بكد وقُطِّرت بلا كلل؟ مع هذا فإني أحياناً أسأم السعادة الطبيعية ، والثمر ينمو ، والصغار يكدسون البيت بالمجاديف والبنادق والجماجم والكتب التي أهديت كجوائز وكؤوس أخرى . إني سأمت الجسد . إني سأمت مهنتي ،

وحيويتي وبراعتي ، سأمت الطرق غير المتحرجة للأم التي تحمي ، التي تجمع تحت عيونها الغيورة على مائدة واحدة أطفالها العائدين لها ، دائماً العائدين لها .

«إنه حين يأتي الربيع ، بارداً ، ممطراً ، مع زهور صفر مباغتة- عندئذٍ وإذا أنا أنظر إلى اللحوم تحت المظلة الزرقاء وأضغط على أكياس الشاي الثقيلة الفضية اللون ، وأكياس الكشمش الخالي من النوى ، فإني أتذكر كيف أن الشمس أشرقت ، وكيف أن طيور السنونو تطير مسحاً مع العشب ، وأتذكر عبارات ألّفها بيرنارد حين كنا صغاراً ، وأوراق الشجر تهتز فوقنا ، متعددة الطبقات ، خفيفة الوزن جداً ، تكسر زرقة السماء ، وهي تنثر أضواء تائهة على هياكل الجذور لأشجار الزان حيث جلست ، أجهش بالبكاء . الحمامة أقلعت . وأنا قفزت وركضت خلف الكلمات التي تتمطى كالخيط المتدلي من كرة هواء ، صعوداً وصعوداً ، من غصن إلى غصن فراراً . عندئذٍ وكدورق منفطر فإن ثبوت صباحي ينهشم ، وإذ أُنزل أكياس الدقيق فإني أفكر : الحياة تقوم حولي كزجاج حول القصبة الحبيسة .

«إني أمسك بالمقص وأقص نبات الخطمي ، أنا التي ذهبت إلى قرية الفيدون ووطأت عفص البلوط الخائس ، ورأيت السيدة تكتب والبستانيين بمكانسهم العظيمة . لقد عدنا لاهثين لئلا نُرمى ونسمّر على الجدار كبنات عرس . الآن إني أقيس القياسات ، إني أحفظ الأشياء . في الليل أجلس في المقعد الوثير وأبسط ذراعي من أجل خياطتي ؛ وأسمع زوجي يشخر ؛ وأرفع نظري حين يُلهب ضياء سيارة مارة النافذة وأتحسس أمواج حياتي منقذفةً ، متكسرةً ، حولي أنا الثابتة الجذور ؛ وأسمع صيحات ، وأرى حيوات الآخرين تدوِّم كالقش حول أعمدة الجسر بينما أنا أغرز إبرتي وأسحبها وأجر خيطي خلال القماش القطني .

twitter @baghdad_library

«إني أفكر أحياناً ببيرسيفال الذي أحبني . لقد امتطى جواداً وسقط في الهند . إني أفكر أحياناً برودا . صيحات قلقة توقظني في هجوع الليل . لكني في الأغلب أسير راضية قانعة بأبنائي . إني أقطع التويجات الميتة من نبات الخطمي . إني أغذ الخطى في حقولي مع أني بدينة ، وعلاني المشيب قبل زمني ، لكن بعيون صافية ، بعيون عرموطية الشكل» .

قالت جيني «إني أقف هنا في محطة قطار تحت الأرض حيث يلتقي كل شيء مما هو مرغوب فيه - بيكادللي الطرف الجنوبي ، بيكادللي الطرف الشمالي ، شارع ريجنت وهايماركيت . إني أقف لحظة واحدة تحت الرصيف في قلب لندن . عدد لا يحصى من العجلات تجري ومن الأقدام تدوس تماماً فوق رأسي . إن الجادات العظمى للحضارة تلتقي هنا وتنفذ في هذه الجهة وتلك . إني في قلب الحياة . لكن انظروا - ها هو جسدي في تلك المرآة . يا له من جسد انفرادي ، يا له من متقلص ، يا له من مسن! إني لم أعد شابة . إني لم أعد جزءاً من الموكب . ملايين نزلوا تلكم السلالم نزولاً رهيباً . دواليب عظمى تتخضخض بعناد لا يرحم تدعّهم دعّاً إلى الأسفل . ملايين ماتوا . بيرسيفال مات . أنالا أزال أتحرك . أنا لا أزال أحيى . لكن من الذي سيأتي إذا أشّرت؟

«وعلى كوني حيوان صغير ، أمتص خاصرتي من الخوف ما ظهر منها وما بطن ، فإني أقف هنا ، سريعة الوجيب . لكني لن أتهيّب . إني سأهوي بالسوط على خاصرتي . إني لست حيواناً صغيراً يئن شاكياً وهو ينسحب إلى الظل .إني لم أجبن إلا لحظة واحدة إذ وقع بصري على نفسي قبل أن يتوفر لي الوقت لتهيئة نفسي كما أهيئ نفسي دائماً لمشهد نفسي . صحيح ؛ أنا لست شابة - إني سرعان ما سأرفع ذراعي عبثاً وسيهوي ملفعي إلى جانبي دون إرسال إشارة . إني لن أسمع النهدة الباغتة في الليل فأشعر خلال الظلام أن أحداً ما يأتي . سوف لن يكون هناك ثمة

انعكاسات على زجاج النوافذ في أنفاق مظلمة . سأنظر في وجوهٍ وسأراها تبغي وجهاً آخر . إني أقر لحظة واحدة أن المروق الصامت للأبدان المنتصبة نزولاً على السلالم المتحركة كالهبوط المكبّل الشنيع لحشرٍ ما من الموتى سافلاً والدعّ الشديد للمكائن العظمى وهي تسلمنا ، تسلمنا كلنا ، للمضيّ دفعاً للأمام ، قد جعلني أقعى فأهرع طلباً للمثوى .

«لكني أقسم الآن ، وأنا أقوم عامدة أمام المرآة بهذه التهيؤات الطفيفة التي تجهزني بعدتي ، أنني لن أتهيّب . فكروا بحافلات الركاب الرائعة ، حمراء اللون وصفراء ، تتوقف وتتحرك ، على وجه الدقة بانتظام . فكروا بالسيارات القوية والجميلة التي هي مرة مبطئة لحد سرعة خطو القدم ومرة تنطلق مارقة إلى الأمام ؛ فكروا بالرجال ، فكروا بالنساء ، مجهزين ومجهزات ؛ مهيئين ومهيئات ، ماضين وماضيات قُدُما . هذا هو الموكب الظافر . هذا هو جيش النصر بالرايات والنسور النحاسية والرؤوس المتوجة بأكاليل غار كُسبت في قتال . إنهم أفضل من الهمج نصف العراة يشدون المناديل على الخاصرة ، أفضل من النساء اللاتي ترتخي شعورهن بالرطوبة ، اللاتي تنهطل أثداؤهن الطويلة ، مع أطفال يجرجرون . إن هذه الطرقات العريضة - بيكادللي الجنوبي ، بيكادللي الشمالي ، شارع ريجنت ، هايماركيت - هي دروب النصر المتربة شقت خلال الغاب . إني كذلك ، بحذائي الصغير من الجلد اللماع ، ومنديلي الذي ما هو إلا شاشة من شاش ، وشفاهي المصبوغة بالأحمر وحواجبي المجرورة رفيعاً بالقلم ، أسير إلى النصر مع الجوقة .

«أنظروا كيف أنهم يتباهون بالملابس حتى تحت الأرض بألقٍ سرمدي . إنهم لا يتركون حتى الأرض تكمن دوديّة وبليلة . ثمة شاش وحرير مضاء في علب زجاجية وملابس داخلية محفوفة بملايين الغرزات المتقاربة من التطريز الرائع . قرمزي ، أخضر ، بنفسجي ، إنها مصبوغة بكل

twitter @baghdad_library

لون . فكروا كيف أنهم ينظّمون ، ينضّدون ، يصقلون ، يغمسون بالأصباغ ، ويشقون الأنفاق مفجّرين الصخر . المصاعد تصعد وتهبط ؛ القطارات تتوقف ، القطارات تتحرك ، بانتظام كانتظام أمواج البحر . إن هذا هو ما يجدر به التصاقي . إني من أهالي هذا العالم ، وأنا أتبع بيارقه . كيف لي أن أهرع طلباً للمثوى في حين أنهم هم على هذه الروعة من المغامرة ، والجسارة ، والفضول أيضاً ، ومن القوة إبان بذل الجهد بما يكفي للتوقف لخط نكتة على الحائط بكتابة حرة؟ لذلك فإني سأزين وجهي بالمساحيق وأصبغ شفتيّ بالأحمر . وسأجعل زاوية حواجبي أحدّ من المعتاد . سأصعد إلى سطح الأرض ، فأقف منتصبةً مع الآخرين في ميدان بيكادللي . سأؤشر بإيماءة صارخة إلى سيارة أجرة وسيشير سائقها بخفة رشيقة لا توصف أنه فهم إشاراتي . ذلك أنني لا أزال أثير التوق . إني لا أزال أتحسس انحناءة تحية الرجال في الشارع كالانحناء الصامت لسنابل القمح حين تهب ريح خفيفة ، فترفّها حمراء .

«سأذهب إلى بيتي . سأملأ المزهريات بزهور باذخة ، مترفة ، ذريعة الحيوية ، تهتز في باقات عظيمة . سأضع مقعداً هنا ومقعداً هناك . سأضع السجائر والأقداح وكتّاباً ما جديداً زاهي الغلاف لم يقرأ بعد عسى بيرنارد يأتي ، أو نيفيل أو لويس . لكن ربما لن يكون الأمر بيرنارد ، نيفيل ، أو لويس ، بل أحداً ما جديداً ، أحداً غير معروف ، أحداً مررت به على السلم ، وتمتمتُ ، وأنا ألتفت مجرد التفاتة إذ مررنا ببعضنا ، أن : (تعال) . إنه سيأتي عصر اليوم ؛ أحد لا أعرفه ، أحد جديد . فليهبط حشر الموتى الصامت . إني أسير قُدماً» .

قال نيفيل : «إني لم أعد بحاجة إلى غرفة الآن ، أو إلى جدران وضياء نار من موقد ، إني لم أعد شاباً . إني أمر ببيت جيني بلا حسد ، وابتسم من الشاب الذي يرتب ربطة عنقه بعصبية بعض الشيء على

عتبة الباب . فليقرع الشاب الأنيق الجرس ؛ فليجدها . إني سأجدها إن أردتها ؛ وإلا ، فسأمضي . إن التأكّل القديم قد فقد حرقته - الحسد ، الكيد والحقد قد انغسلت . لقد فقدنا مجدنا أيضاً . حين كنا شباناً كنا نجلس في أي مكان ، على مسابط جرداء في قاعات يمر منها الريح ذات أبواب تنصفق على الدوام . كنا نتقلب نصف عراة كصبيان على سطح مركب نرش بعضنا بخراطيم الماء . الآن بوسعي أن اقسم أنني أحب الناس وهم يتدفقون منتشرين من قطار تحت الأرض بعد أداء عمل اليوم ، متشابهين ، لا يُميّز بعضهم من بعض ، لا يحسبون عداً بالأرقام . إني قد قطفت ثمرتي . إني أتطلع بموضوعية تخلو من العاطفة .

«على أية حال ، نحن غير مسؤولين . نحن لسنا قضاة . إننا لا يطلب منا تعذيب رفاقنا بأدوات التعذيب ، إننا لا يطلب منا ارتقاء المنابر ووعظهم في عصر يوم أحد باهت ، إن من الأفضل النظر إلى وردة أو قراءة شكسبير كما أقرأه هنا في جادة شافتسبري . هنا البهلول ، هنا الوغد ، هنا تأتي كليوباطرة في حافلة نصر ، وهي تتوهج في دوبتها . هنا كذلك أشخاص من الذين حلت عليهم اللعنة أيضاً ، رجال ممسوحو الأنوف بجنب حائط محكمة الجزاء ، يقفون وأقدامهم في النار ، يزعقون . هذا شعرٌ إن لم ننظمه . إنهم يؤدون أدوارهم بصورة معصومة من الخطأ ، وقبل أن يفتحوا أفواههم أعرف ما الذي سيقولون ، وأنتظر اللحظة المقدسة حين ينطقون الكلمة التي لا بد وأنها كانت قد كُتبت . ولو كان الأمر لغرض المسرحية ليس إلا فإن بوسعي السير في جادة شافتسبري إلى الأبد .

«ثم وأنا آتٍ من الشارع ، وأدخل غرفةً ما ، فثمة أناس يتحدثون ، أو لا يتعبون أنفسهم بالحديث إلا بالكاد . الرجل يقول ، المرأة تقول ، أحدٌ ما آخر يقول ، أشياء قد قيلت مراراً وتكراراً بحيث أن كلمة واحدة هي الآن كافية لرفع وقرٍ بأسره . إن الجدل ، والضحك ، والضغائن القديمة - كلها

twitter @baghdad_library

تسقط خلال الهواء ، تكثفه . إني أتناول كتاباً وأقرأ نصف صحيفة من أي شيء . إنهم لم يصلحوا دورق الشاي بعد . الطفلة ترقص مرتدية ملابس أمها .

«عندئذٍ رودا ، أو لعله لويس ، روحٌ ما صائمة ومعذبة ، تمر مروراً وتخرج ثانية . إنهم يريدون عقدة مسرحية ، أليس كذلك؟ يريدون سبباً؟ ليس كافياً لهم ، هذا المشهد الاعتيادي . إنه لي كافياً انتظار الشيء لكي يقال كما لو كان قد كُتب ؛ رؤية الجملة تلطخ طنها على الموضع الصحيح ، فتحدث سمة خاصة ؛ تصوّر جمعاً ما ، فجأة ، بخطوطهم العامة تنعكس على السماء . مع هذا إذا أرادوا عنفاً فإني قد شهدت موتاً وقتلاً وانتحاراً كله مجتمعاً في غرفة واحدة . أحدٌ يدخل ، أحدٌ يخرج . ثمة نشيج على السلم . إني قد سمعت خيوطاً تقطع وعُقداً تشد والخياطة الهادئة للكتان الأبيض تستمر وتستمر في حجر امرأة . لِمَ تسأل ، كلويس ، عن سبب ، أو تنطلق كرودا إلى بستانٍ ما بعيد وتفصل بيدك أوراق شجر الغار وتبحث عن تماثيل؟ يقولون إن على المرء أن يضرب بجناحيه في مواجهة العاصفة على اعتقاد أنه فيما وراء هذا الخليط المضطرب تسطع الشمس ؛ الشمس تسقط عمودياً في برك مزغّبة بالصفصاف . (هنا الشهر هو تشرين . الفقراء يمسكون علب الثقاب بأصابع عضتها الريح) . يقولون إن الحقيقة يُعثر عليها هناك كلية التمام ، والفضيلة التي تجرجر أقدامها هنا ، في أزقةٍ لا تنفذ ، يُحصل عليها هناك بالغة الكمال . رودا تهرع مشرئبة العنق بعيونها المتعصبة المعصوبة ، مارةً بنا . لويس ، وهو الآن بغاية الثراء ، يذهب إلى غرفته العلوية ويحدّق أيان اختفت ، لكنه يجب أن يجلس في مكتبه بين الآلات الكاتبة والتلفون فيدبّر الأمر كله من أجل إرشادنا ، من أجل بعثنا مجدداً ، ومن أجل إصلاح عالم غير مولود .

«إنما الآن في هذه الغرفة ، ألتي أدخلها دون طرق ، تقال الأشياء كما

لو أنها كانت قد كُتبت . إني أذهب إلى رف الكتب . فإذا شئتُ قرأت نصف صفحة من أي شيء . إني لا أحتاج أن أتكلم . لكنني أصغي . إني متيّقظ بصورة رائعة . وبالتأكيد ، لا يستطيع المرء أن يقرأ هذه القصيدة دون جهد . الصحيفة غالباً متسخة وملوثة بالطين ، وممزقة وملتصقة ببعضها بأوراق شجر ذاوية ، ونتف من زهرة رعي الحمام أو الجيرانيوم . المرء يحتاج لقراءة هذه القصيدة لعيون لا تعد ولا تحصى ، كواحدة من تلك المصابيح التي تدور على ألواح من الماء الجاري في منتصف الليل في الأطلسي ، حين يخدش غصن مَن الطحلب سطحَ الماء ، أو تفغر الأمواج فاهاً فجأة وإذ بوحش يشق طريقه . إن على المرء أن يضع جانباً غرائز الكراهية وغرائز الغيرة وألا يقاطع الغير ، إن على المرء أن يتمتع بالصبر والعناية المطلقة ويدع نأمة الصوت ، سواء للأقدام الرهيفة للعناكب على ورق الشجر أو لخرير ماء في ميزاب طاريء ، أن تأخذ مجراها متّضحة أيضاً . ما من شيء ينبغي أن يرفض خوفاً أو فزعاً . الشاعر الذي كتب هذه الصحيفة (التي أقرأ والناس يتحدثون) قد انسحب . ليس ثمة فوارز أو نقطة وخط . الأبيات لا تسترسل بأطوال مريحة . الكثير هو محض هراء . على المرء أن يكون متشائماً ، لكنه يجب أن يلقي بالحيطة إلى الريح وحينما تنفتح الباب أن يقبل قبولاً مطلقاً . كذلك أن يبكي أحياناً ؛ كذلك أن يقطّع بدون رحمة بجذاذة من الشفرة السخام واللحاء والإفرازات الصلبة من كل نوع . وهكذا (إبّان حديثهم) يلقي بشبكة أعمق فأعمق ويستدرج بلطف مستجلباً للسطح ما قاله الرجل وما قالته المرأة فينظم شعراً .

«الآن فإني قد أصغيت لهم وهم يتحدثون ، لقد خرجوا الآن . أنا وحدي . بوسعي أن أقنع بمراقبة النار تشتعل إلى الأبد ، كقبة ، كفرن ؛ الآن إن عوداً من خشب يتخذ شكل أسكلّة أو جب أو وادٍ سحيق ؛ الآن إنها حية تلتوي قرمزية بقشرة بيضاء . إن الثمرة على الستارة تنتفخ تحت

twitter @baghdad_library

منقار الببغاء . وتطقطق النار ، وطقطقة الحشرات وسط غابة ، بينما في الخارج هناك تنشر الأغصان الهواء ، والآن ، كصلية رصاص ، تسقط شجرة . هذه هي الأصوات لليلة لندنية . ثم أسمع الصوت الواحد الذي أنا بانتظاره . إن الصوت يأتي صاعداً وصاعداً ، يتقرب ، يتردد ، يقف عند بابي . إني أصيح : (ادخل . اجلس بجنبي . اجلس على حافة المقعد) . وإذ يجرفني هذياني القديم فإني أصيح : (تعال اقترب ، أقرب ، أقرب)» .

قال لويس «إني أعود من المكتب . إني أعلق معطفي هنا ، وأضع عصاي هناك – إني أحب أن أتخيل أن رشليو سار بمثل هذه العصا . وبذا أعرّي نفسي من سلطتي . لقد كنت جالساً على يمين أحد المدراء إلى طاولة مدهونة لامعة . إن خرائط مشاريعنا تواجهنا على الجدار . لقد حكنا العالم بعضه ببعض بمراكبنا . الكرة الأرضية مخططة بخطوطنا . إني محترم بصورة ذريعة . إن جميع الشابات في المكتب ينهضن عند دخولي . بوسعي أن أتعشى أيان أشاء الآن ، ولعلي أفترض دون غرور أنني سرعان ما سأمتلك بيتاً في ساري وسيارتين ، ومستنبت زجاجي وبعض الأجناس النادرة من البطيخ . لكني لما أزل أرجع ، لما أزل آتي عائداً إلى غرفتي العلوية ، فأعلق قبعتي وأستأنف في العزلة تلك المحاولة التواقة والتي قمت بها منذ ضربت بقبضتي باب معلمي من البلوط ذي الحبيبات . إني أفتح كتاباً صغيراً . إني أقرأ قصيدة واحدة . قصيدة واحدة تكفي .

يا أيتها الريح الغربية

أيتها الريح الغربية ، إنك على عداوة مع طاولتي من خشب الماهاغوني ووقاء كاحلي ، وكذلك ، وأسفاه ، مع سوقية عشيقتي ، الممثلة الصغيرة ، التي لم تتمكن قط من تكلم الإنكليزية بشكل سليم .

يا أيتها الريح الغربية ، متى تهبين . . .

رودا ، بتجريدها الشديد ، بعيونها التي لا تبصر وهي بلون الحلزون ، لا

تحطمك ، أيتها الريح الغربية ، سواء جاءت عند منتصف الليل حين تتوهج النجوم أو في أكثر الساعات ابتذالاً من الظهيرة . إنها تقف عند النافذة وتنظر في أقباع المداخن والنوافذ المكسورة لبيوت الفقراء ذ

يا أيتها الريح الغربية ، متى تهبين . . .

«إن مهمتي ، عبئي ، كان دائماً أكبر من عبء الآخرين . إن هرماً قد وضع على كاهلي . إني قد حاولت القيام بعمل جبار . لقد قدت عربة تجرها خيول عنيفة ، لا تكبح جماحها ، خيول خبيثة . إني قد جلست بلكنتي الاسترالية في مطاعم وحاولت أن أجعل الكتبة يقبلونني ، مع هذا فإني لم أنس قط معتقداتي الصارمة والقاسية والتفاوتات والتخلخلات التي لا بد أن يُفصل فيها . إني كصبي حلمت بالنيل ، كنت أتردد في الاستيقاظ ، مع هذا فإني ضربت بقبضتي باب البلوط ذي الحبيبات . كان الحال سيكون أسعد لو وُلدت بلا قدر من أقدار المصير ، كسوزان ، كبيرسيفال ، الذي أنا معجب به جداً .

يا أيتها الريح الغربية ، متى تهبين ،

حتى يتاح للطلِّ الهطول؟

«الحياة كانت مسألة فظيعة بالنسبة إليّ . إني أشبه شيء بفم مصاص ، لزق ، دبق ، لا يمكن إشباعه . لقد حاولت أن أسحب من اللحم الحي النواة المكنونة في المركز . إني لم أعرف إلا القليل من السعادة الطبيعية ، وإن اخترت عيقتي وذلك عساها ، بلكنتها البلدية تجعلني أشعر بالارتياح من الحرج . لكنها لا تفعل سوى أن تبعثر على الأرض ملابسها الداخلية القذرة ، وخادمة التنظيف وصناع الدكاكين يأتون من ورائي عشرات المرات في اليوم ، ساخرين من مشيتي المتزمتة والمتكبرة .

يا أيتها الريح الغربية ، متى تهبين ،

حتى يتاح للطلِّ الهطول؟

twitter @baghdad_library

«ماذا كان قدر مصيري ، الهرم المستدق الذي ضغط على ضلوعي كل هذه السنين؟ أن أتذكر النيل والنسوة يحملن الأباريق على رؤوسهن ؛ أن أشعر بنفسي منسوجاً باطناً وظاهراً من مواسم الصيف والشتاء الطويلة التي جعلت القمح يفيض والتي جمّدت الجداول . إني لست كياناً منفرداً وعابراً ، إن حياتي هي ليست الشرارة اللامعة من شرارات لحظة واحدة كالشرارة التي على سطح فص من ماس . إني أغور تحت الأرض بشكل أليم ، كسجّان يحمل مصباحاً من زنزانة إلى زنزانة . إن قدري هو أنني أتذكر ويجب عليّ أن أنسج معاً ، أن أظفر في حبل غليظ واحد الخيوط العديدة ، رفيعها وغليظها والمقطوع ، أن أنسج ما تخلّف باقياً من تاريخنا الطويل ، من زمننا العاصف والمتغاير الأنواع . هناك دائماً المزيد مما يجب فهمه ؛ نبرة نشاز يجب الاستماع إليها ؛ زيف يجب توبيخه . مكسّرةٌ هي وملوثة هذه السطوح بأغطية مداخنها ، ألواحها الراخية ، قططها الهزيلة ونوافذ غرفها العلوية . إني أشق طريقي فوق زجاج مكسور ، وبلاط الأرض الكثير البثور ، ولا أرى سوى وجوه نكدة ومتضوِّرة .

«فلنفرض أني أوجد من كل هذا سبباً – قصيدة واحدة على صفحة ، ثم أموت . وبوسعي التأكيد لكم أن ذلك لن يكون على رغم إرادتي . بيرسيفال مات . رودا هجرتني . لكنني سأعيش حتى أمسي هزيلاً ذاوياً ، أشق طريقي ، محترماً للغاية ، وأنا أدق بعصاي المذهبة المقبض على أرصفة الحي المالي للمدينة . لعلي ربما لن أموت قط ، ولن أبلغ قط حتى تلك الاستمرارية وذلك الدوام –

يا أيتها الريح الغربية ، متى تهبين ،
حتى يتاح للطلّ الهطول؟

«بيرسيفال كان مزهراً بالأوراق الخضراء فأودع الأرض بكل أغصانه وهي لم تزال تهش في ريح الصيف . رودا ، التي معها شاركت الصمت

حين يتكلم الآخرون ، هي التي تتلكأ في الخلف وتستدير إلى طرف حين يتجمّع القطيع ويخب بظهور منتظمة ، رشيقة ، فوق مراع ثرة ، قد ذهبت الآن مثل حرارة الصحراء . حين تصيب الشمس بالبثور سطوح المدينة أفكر بها ؛ وحين تهس الأوراق اليابسة ساقطة إلى الأرض ؛ وحين يأتي الشيوخ المسنون بعصيهم المدببة ويثقبون قصاصات الورق كما ثقبناها –

يا أيتها الريح الغربية ، متى تهبين ،
حتى يتاح للطلّ الهطول؟
يا إلهي ، أن يكون حبيبي في أحضاني ،
وأنا في سريري مرة أخرى!
إني أعود الآن إلى كتابي ؛ إني أعود الآن إلى محاولتي» .

قالت رودا «آه أيتها الحياة ، كم رهبتك ، آه أيها البشر ، كم كرهتكم! كم تدافعتم بالمناكب ، كم قاطعتم بعضكم بعضاً ، كم بدوتم في غاية الشناعة في شارع اكسفورد ، وفي غاية القذارة وأنتم تجلسون متقابلين في قطار تحت الأرض تحدّقون! الآن إذ أتسلق هذا الجبل ، والذي من قمته سأرى أفريقياً ، فإن عقلي منطبع برزم الورق الأسمر وبوجوهكم . إني قد لُوِّثت بكم وأُفسدت . وقد فحتم برائحة غير زكية أيضاً ، وأنتم تصطفون خارج الأبواب لشراء البطاقات – كلكم مرتدٍ ألواناً غير ذات جلاء من أنواع الرمادي والبني ، وليس ثمة قط حتى ريشة زرقاء واحدة تدبّس في قبعة . ما كان لدى أحد منكم الشجاعة بأن يكون هو شيئاً منفرداً دون الآخر . ويا لتحلل الروح الذي طلبتم لاجتياز يوم واحد ، يا للأكاذيب ، والانحناءات ، والمداهنات ، وحلاوة اللسان والاستخذاء! كيف كبّلتموني ببقعة واحدة ، بساعة واحدة ، بمقعد واحد ، وأجلستم أنفسكم قبالتي! كيف انتهبتم مني المسافات البيضاء التي تقع بين ساعة وساعة وكورتموها كريّات قذرة وقذفتم بها إلى سلة المهملات ببراثنكم الدهنية . مع هذا

twitter @baghdad_library

فتلكم كانت هي حياتي .

«لكني أسلمت إرادتي . غطيت الهزء والتثاؤب بيدي . إني لم أخرج إلى الطريق وأكسر قنينة في بالوعة كعلامة من علامات الغضب . وتصنّعت ، وأنا أرتعش حماسة ، أنني لا أستغرب . الذي فعلتموه أنتم فعلته أنا . إن سحبت سوزان وجيني جواربهما هكذا فإنا أسحب جواربي هكذا كذلك . كانت الحياة بدرجة من الفظاعة بحيث أنني استلبت لوناً بعد لون . أنظر إلى الحياة من خلال هذا الشيء ، أنظر إلى الحياة من خلال ذاك الشيء ؛ فليكن هناك ثمة أوراق ورد ، فليكن هناك ثمة أوراق كروم – قطعتُ كل الشارع . شارع أوكسفورد ، ميدان بيكادللي ، بوهج عقلي وترجرجه ، بأوراق الكروم وأوراق الورد . كان ثمة صناديق أيضاً ، موضوعة في الممر حين أُغلقت المدرسة . ذهبت خلسةً أقرأ العلامات وأحلم بأسماء ووجوه . هاروغيت ، ربما ، أدنبرة ، ربما ، كانت ترف بمجد مذهب حيث وقفت إحدى الفتيات التي نسيت اسمها على الرصيف . لكن لم يكن الأمر سوى الاسم . إني تركت لويس ؛ إني خفت المعانقات . بالفراء ، بالعباءات ، حاولت أن أغطي النصل الأسود الزرقاوي . إني ناشدت النهار أن ينصرم إلى ليل . إني تقت أن أرى الدولاب يتلاشى ، وأن أشعر بالفراش يغدو وثيراً ، وأن أعوم متدلية ، أن أتصور أشجاراً متطاولة ، وجوهاً متطاولة ، سدة خضراء على مرساة وشخصان آسيان يتبادلان كلمة الوداع . إني أقذف كلمات في زخات كتلك التي يقذفها الباذر على الحقول المحروثة حين تكون الأرض جرداء . إنّي تمنيت دائماً أن أمدّ الليل فأملأه أكثر فأكثر بالأحلام .

«ثم في صالة من الصالات فرقت بيدي أغصان الموسيقى ورأيت البيت الذي أقمناه ؛ المربع يقف على المستطيل . قلتُ : (البيت الذي يحتوينا جميعاً) ، وأنا أتمايل فأدفع بمنكبي مناكب الآخرين في باصٍ بعد

أن مات بيرسيفال ؛ مع هذا ذهبت إلى غرينج . وإذ أنا أسير على السدة صلّيت داعية لعلّي أُرعد إلى الأبد على شفا العالم حيث لا ينمو نبت ، بل هنا وهناك عمود من رخام . رميت بباقتي في الموجة المنتشرة . قلت : (التهميني ، خذيني واحمليني إلى الحدود القصوى) ، الموجة انكسرت ؛ الباقة ذوت . إني نادراً ما أفكر ببيرسيفال الآن .

«الآن إني أتسلق هذه الهضبة الأسبانية ؛ وإني سأفترض أن ظهر البغل هذا هو سريري وأنا أستلقي محتضرة . ليس ثمة سوى غلالة رقيقة الآن بيني وبين الأعماق اللانهائية . إن الكتل في طرحة الفراش تستنعم تحتي . إننا نتعثر صاعدين – إننا نتعثر نازلين . إن دربي قد صعد عالياً فعالياً ، نحو شجرة ما انفرادية منعزلة مع بركة بجنبها على القمة بالذات . إني قد شققت مياه الجمال في الأصيل حين تطبق الروابي نفسها كأجنحة طيور تطوى . لقد قطفت أحياناً قرنفلة حمراء ، وشيئاً من تبن . وقد غصت وحيدة على التربة المجذرة بالعشب ولمست بإصبعي عظماً قديماً ودار في خلدي : أنه حين تتوقف الريح لتمس هذا المرتفع ، فعسى ألا يُعثر على شيء هناك سوى قبضة من هباء .

«البغل يتعثر صاعداً ومستمراً . سلسلة الهضبة ترتفع كالضباب الأغبش ، لكني من القمة سأرى أفريقيا . الآن يتهاوى السرير من تحتي . الشراشف المرقطة بثقوب صفراء تبيح لي السقوط من خلالها . المرأة الطيبة بوجه كحصان أبيض عند نهاية السرير تقوم بحركة وداع وتستدير لتذهب . من إذن يأتي معي؟ الأزهار فقط ، وطوق البقرة ، وأيار الذي بلون ضوء القمر . وإذ جمعتها مرتخية في حزمة فقد صنعت منها ظفيرة وأعطيتها – أوه ، لمن؟ إننا نقبل الآن على شفا القمة . وتحتنا تستقر أضواء الأسطول . المنحدرات السحيقة تختفي . والأمواج التي لا تحصى ، وهي تترجرج صغيرة ، تترجرج سمراء ، تنتشر تحتنا . إني لا ألمس شيئاً . إني لا أرى

twitter @baghdad_library

شيئاً . قد نغرق ونستقر على الأمواج . البحر سيطن في أذني . التويجات البيض ستظلم بماء البحر . إنها ستطفو لحظة ثم تغرق . إن الأمواج وهي تقلّبني لسوف تطرحني تحتها . كل شيء يتساقط في زخة ذريعة ، تذيبني .

«مع هذا ففي هذه الشجرة أغصان مستغلظة ؛ وهذا هو الخط الصلب لسطح كوخ . تلك الأشكال الكيسية المصبوغة بالأحمر والأصفر هي وجوه . وإذ أضع قدمي على الأرض فإني أخطو بحذر شديد وأضغط يدي على الباب الصلب لنزلٍ أسباني» .

الشمس تنحدر نحو المغيب . حجارة النهار الصلبة انفلعت والضياء يصب في شلوخها . اللون الأحمر والذهبي يمرق خلال الأمواج ، في سهام طائرة سريعة ، مريّشة بالظلام . أشعة الضوء تتوهج طائشة وتجوب ، كإشارات من جزر غرقى ، أو نبال يطلقها ، خلال بساتين شجر الغار ، صبيان ضاحكون . لكن الأمواج ، إذ تقترب من الساحل ، فإنها مسلوبة الضياء ، وتسقط في ارتجاج طويل واحد ، كجدار يسقط ، جدار من حجر أسمر ، لم يتثقب بأي شرخ من ضوء .

نسيم يتصاعد ؛ رعشة تجري في أوراق الشجر ؛ وإذ حُرِّكت هكذا فإنها تفقد كثافتها البنية اللون وتضحى رمادية أو بيضاء إذ تفقد كثافتها البنية اللون وتضحى رمادية أو بيضاء إذ تنقل الشجرة كتلتها ، وترمش فتفقد وحدتها المقببة . الصقر المنتصب على أعلى غصن يرف جفونه ويقلع ويجوب ويرتفع بعيداً . طير الزقزاق البري ينعقّ في المستنقعات ، مراوغاً ، يدور وينعق أبعد فأبعد في وحدة منعزلة . دخان القطارات والمداخن يمتد ويتمزق ويغدو جزءاً من المسلّة الفرائية التي تتعلق فوق البحر والحقول .

الآن القمح قد قُص . الآن لم يبق سوى زغب ناشط من كل فيضه وتموجه . بومة كبيرة قذفت نفسها بتوءدة من شجرة الدردار ودارت

twitter @baghdad_library

وارتفعت ، كما لو على خط قد انحدر ، إلى ارتفاع شجر الأرز . الظلال البطيئة على الروابي مرة تتسع ، مرة تتقلص ، إذ تمر من فوق . على البركة في قمة السبخ تستقر فارغة . ما من وجه غضبٍ يتطلع هناك ، أو حافرٍ يطبش ، أو خرطوم ساخن يغلي في الماء . طير ، وقد حطّ على غصنٍ بلون الرماد ، رشف ملء منقار من ماء بارد . ليس هناك صوت حصدٍ ، ولا صوت عجلات ، بل فقط الهدير المفاجئ للريح يملأ أشرعته ملءً ويمر مروراً فوق الأعشاب . عظم واحد يستقر منقوراً بالمطر ومقصوراً بالشمس حتى يشع كغصن طلاه البحر . الشجرة ، التي توهجت حمراء حمرة الثعالب في الربيع وأواسط الصيف وأحنت أوراقاً مطاوعة لريح الجنوب ، هي سوداء كالحديد ، وجرداء مثله .

البر هو من البعد بحيث أنه ما من سطح مشع أو نافذة متلألئة يمكن أن يُرى بعد الآن . إن الوقر الثقيل لظل الأرض قد أحاط بأضأل الأغلال وبأصغر العوائق التي من مثل صدفة حلزون . الآن لم يبق سوى الظل السائل للسحاب ، المطر القارع ، رمحٌ منفرد مروق من شعاع الشمس ، أو الرضة المفاجئة للعاصفة المطيرة . الأشجار المنعزلة تعلّم الروابي النائية كإشارات التنقيط .

شمس الأصيل ، وقد زايلتها حرارتها وذُوِّبت منها بقعة الحدة المشتعلة ، جعلت المقاعد والمناضد أعجم عوداً ورصّعتها بأشكال معينية من الألوان البنية والصفراء . إنها وهي مخططة بالظلال يبدو ثقلها أكثر وزناً ، كما لو أن اللون ، وقد مال ، قد جرى إلى طرفٍ واحد . هنا تستقر سكين ، شوكة ، وقدح ، لكنها استطالت ، نُفختْ ، وصُيّرت عجيبة الروعة . والمرآة المؤطرة بدائرة ذهبية تمسك بالمشهد ثابتاً لا حراك فيه كما لو أنه أبديٌّ في عينها .

إبّان ذلك تمتد الظلال طويلة على الساحل ؛ السواد يتعمق . الحذاء الأسود الذي بلون الحديد أضحى بركة من الزرقة الغامقة . الصخور فقدت صلابتها . الماء الذي يقوم حول الزورق القديم كان قاتماً كما لو أن قواقع بلح البحر كانت قد غُمرت فيه . الرغوة انقلبت مزرقّة وتركت هنا وهناك لمعاً أبيض من لؤلؤ على الرمل الأغبش .

twitter @baghdad_library

قال بيرنارد «هامبتون كورت . هامبتون كورت . إنه مكان اجتماعنا . انظروا إلى المداخن الحمراء ، إلى الشرفات المنفرجة عن بعضها لهامبتون كورت على جدران كالحصون . إن نبرة صوتي إذ أقول : «هامبتون كورت ، تثبت أنني في أواسط العمر . قبل عشر سنين ، خمسة عشر سنة ، كنت سأقول : «هامبتون كورت؟ باستفهام - كيف سيكون المكان؟ هل ستكون هناك بحيرات؟ ممرات متشابكة؟ أو أن أقول بتوقّع الأمل : ما الذي سيحدث لي هناك؟ من سألتقي؟ الآن ، هامبتون كورت - هامبتون كورت - الألفاظ تقرع جرساً في الحيز الذي عملت على تمهيده بجهد جهيد بعدد من النداءات التلفونية وبطاقات البريد ، وتطلق رنة بعد رنة ، طنّانة ، رنانة : فتنبعث الصور - أمسيات صيفية ، زوارق ، سيدات عجائز يرفعن تنوراتهن ، سندانة واحدة ذات عروة في الشتاء ، بعض أزهار الدافوديل في آذار - كل هذه تطفو إلى أعلى المياه التي تستقر الآن في أعماق كل مشهد .

«هناك عند باب النزل ، مكان اجتماعنا ، هم يقفون سلفاً - سوزان ، لويس ، رودا ، جيني ونيفيل . لقد التقوا أصلاً . وفي خلال لحظة عندما التحق بهم ، فإن ترتيبات أخرى ستتألف ، أنماط أخرى . إن ما يمضي بدداً الآن ، مؤلفاً مشاهد ذات انتشار ، سوف يُكبح ، يتقرر . إني متردد بأن أقاسي ذلك الإكراه . إني أصلاً وعلى مسافة خمسين ياردة أحسّ بنظام

كياني يتغيّر . إن قوة الجذب لمغناطيسية صحبتهم تشي بي . إني أتقرب . إنهم لا يروني . رودا تراني الآن ، لكنها تتصنع ، على هلعها من صمة اللقاء ، أنني شخص غريب . نيفيل يلتفت الآن . وفجأة ، وإذ أنا أرفع يدي أحييه فقد صحت : (أنا أيضاً أضغط الزهور بين صفحات سونيتات شكسبير) ، وأكون مهتاجاً . إن زورقي الصغير يترنح دون اتزان على الأمواج الصغيرة المتلاطمة والمتقطعة والمتفاذفة . ليس هناك أي بلسم شاف (فلأدوّن ذلك) ضد صدمة اللقاء .

«إنه من غير المريح أيضاً ، ربط الصلة بالحوافي المسننة ، الحوافي الفظة ولم يغد اللقاء مقبولاً إلا تدريجياً ، إذ جرجرنا أقدامنا وتعثرنا داخلين النزل ، نخلع معاطفنا وقبعاتنا . الآن إننا نتجمع في غرفة الطعام الطويلة ، العارية ، التي تطل على حديقة من الحدائق العامة ، على مساحة ما خضراء لا تزال مضاءة بشكل رائع بالشمس الغاربة بحيث أن ثمة قضيباً من ذهب موجوداً بين الأشجار ، وأجلسنا أنفسنا» .

قال نيفيل «الآن ونحن نجلس جنباً إلى جنب ، إلى هذه المائدة الرفيعة ، الآن قبل أن تضحى العاطفة الأولى سلسلة القياد ، ما الذي نشعر به؟ فلنقلها بأمانة وانفتاح وبصورة مباشرة كما يليق بأصدقاء قدامى يلتقون بصعوبة ، ما الذي نشعر به عند اللقاء؟ الحزن . إن الباب لن ينفتح ؛ هو لن يأتي . ونحن مثقلون . ولكوننا الآن جميعنا في منتصف العمر ، فالأحمال هي على كواهلنا . فلننزل عنا أثقالنا . ما الذي غنتم من الحياة ، نسأل ، وما الذي غنمته أنا؟ أنت يا بيرنارد ؛ أنتِ يا سوزان؟ أنتِ يا جيني ؛ ورودا ولويس؟ القوائم ملصقة على الأبواب . وقبل أن نكسر هذا الخبز ونبدأ بتناول السمك والسلطة ، إني أتحسس في جيبي الخاص فأجد أوراق اعتمادي - الشيء ا لذي أحمله لأثبت تفوقي . لقد اجتزت الامتحان ، ولدي أوراق في جيبي الخاص لأثبات ذلك . لكن عيونك ، يا

twitter @baghdad_library

سوزان ، وهي مليئة بحقول الخضراوات وبحقول القمح ، تقلقني . إن هذه الأوراق في جيبي الخاص - الضجيج الذي يثبت أنني قد نجحت - تحدث صوتاً خافتاً كصوت رجل يصفّق في حقل فارغ ليطرد الغدفان . الآن تتلاشى الأصوات نهائياً ، تحت تحديق سوزان (التصفيق ، الذبذبة التي أحدثتها) ، وإني لا أسمع سوى الريح تجري فوق الأرض المحروثة وطير ما يغني - لعلها قبّرة ما مخمورة . هل سمع بي النادل ، أو أولئك الأزواج المسترقين الدائمين ، مرة يتسكعون ، مرة يتوقفون وينظرون إلى الأشجار التي لم تمس بعدُ بدرجة من الظلمة بحيث تؤوي أجسادهم المضطجعة؟ كلا ؛ إن صوت التصفيق قد أخفق .

«ما الذي يبقى إذن ، حين لا أستطيع أن أخرج أوراقي وأجعلكم تصدقون بقراءتكم جهاراً لأوراق اعتمادي أنني قد اجتزت الامتحان؟ الذي يبقى هو ما تكشفه سوزان بالحدة القارصة لعيونها الخضراء ، عيونها الصافية ، العرموطية الشكل . هنالك دائماً أحد ما ، حين نجتمع ، ومنغصات اللقاء لا تزال حادة ، يرفض أن يغور مختفياً . لذا يرغب المرء أن يخضع هويته لهويته . بالنسبة لي الآن ، إنها سوزان . إني أتكلم لأوثر بسوزان . اسمعيني ، يا سوزان .

«حينما يأتيني أحد ما عند الفطور ، فإنه حتى الفاكهة المطرزة على ستارتي تنتفخ حتى يكون بوسع الببغاوات أن تنقرها . الحليب الخفيف ، الخالي من الدسم ، المسلم في الصباح الباكر يغدو قوس قزحياً ، أزرق ، ورديا . في تلك الساعة يدمدم زوجك - الرجل الذي يضرب على واقية حذائه ، مؤشراً بسوطه إلى البقرة العجفاء - متذمراً . أنت لا تقولين شيئاً . أنت لا ترين شيئاً . العرف يعمي عيونك . في تلك الساعة تكون علاقتك بكماء ، تافهة ، قاتمة اللون . علاقتي في تلك الساعة تكون دافئة ومتنوعة . ليس هناك تكرر بالنسبة لي . كل يوم يومٌ خطر . إننا جميعاً ، مع كوننا

مصقولين على السطح ، فإننا عبارة عن عظم بالكامل في الداخل ، كثعابين تلتف . لنفرض أننا نقرأ جريدة التايمس ؛ لنفرض أننا نتجادل . إنها تجربة . لنفرض أن الفصل شتاء . الثلوج تتساقط أحمالاً على السطح فتمطرنا معاً منقطعين في كهف أحمر . الأنابيب انفجرت . ونحن نضع طستاً أصفر من الصفيح في وسط الغرفة للغسيل . نحن نهرع على عجل وكيفما اتفق طلباً للطاسات . انظروا هناك - لقد انفجرت ثانية فوق رفوف الكتب . نحن نصيح ضاحكين لمشهد الخراب . فليتحطم الرصّ المرصوص . فلنكن بلا مقتنيات . أم أن الفصل صيف؟ قد نذهب على غير هدى إلى بحيرة ونرقب الوز الصيني يتهادى بقوادم مسطحة الباطن إلى حافة الماء ، أو نشاهد كنيسة حضرية بيضاء كالعاج مع الخضرة الحديثة النمو ترتعش أمامها . (إني أختار المشاهد عشوائياً ؛ إني أختار ما هو واضح) . كل مشهد هو زخرف يرسم بغتة لتصوير مخاطرة من المخاطرات وأعجوبة من أعاجيب الود الحميم . إن الثلج ، والأنبوب المنفجر ، وطست الصفيح ، والوزة الصينية - هذه علامات قُذفت عالياً وعليها أقرأ ، إذ التفت إلى الوراء ، السمة الخاصة بكل حب ؛ كيف أن كل حب يختلف عن الآخر .

«أنتِ إبّان هذا - ذلك أنني أريد أن أمحق عداوتك ، إذ عيونك الخضر مسلّطة على عيوني ، وفستانك الرث ويدك الخشنة ، وكل الشعارات الأخرى لبهاء أمومتك - تلتصقين كدودة البحر ، كالعلق على ذات الصخرة . مع هذا ، صحيح ، أنا لا أريد إيذاءك ؛ لا أريد سوى أن أجدد وأعمر إيماني بنفسي الذي تزعزع عند دخولك . التغيير لم يعد ممكناً . إننا قد التزمنا بلا فكاك . في السابق ، حين التقينا بمطعم في لندن مع بيرسيفال ، كان كل شيء يغتلي ويتخضخض ؛ كان بوسعنا أن نكون أي شيء . والآن قد تم اختيارنا ، أو يبدو أحياناً أن الخيار قد فرض علينا

twitter @baghdad_library

فرضاً - كمّاشة أطبقت علينا من بين الأكتاف . إني اخترتُ . لم آخذ طبعة الحياة ظاهرياً ، بل باطنياً على النسيج الخام ، الأبيض ، غير المصان . إني ملبّد السحب ومرضوض بطبعة العقول والوجوه والأشياء التي هي من دقة الرهافة بحيث أن لها رائحة ولوناً وملمساً وجوهراً ، لكن ليس لها اسم . إني مجرد (نيفيل) بالنسبة لك ، أنت التي تبصرين الحدود الضيقة لحياتي والخط الذي لا تستطيع حياتي تجاوزه . أما بالنسبة لي فأنا شيء ذريع الاتساع ؛ شبكة يمتد نسيجها خفياً تحت العالم . إن شبكتي تكاد لا تتميز عما تحيط به . إنها ترفع حيتاناً - حيوانات منقرضة هائلة الحجم وهلامات بيضاء ، ما هو غير متخلّق وما هو تائه ؛ إني أتقرى ، إني أتصور . وتحت عيوني ينفتح -كتاب ؛ إني أرى إلى القعر ؛ إلى القلب - إني أرى إلى الأعماق . إني أعرف ما هو الحب بأنواعه وهو يرتعش إلى نار ؛ كيف أن الغيرة ترسل توهجاتها الخضراء هنا وهناك ؛ كيف أن حباً يتقاطع بتشابك مع حب ؛ كيف أن الحب يعقد العقد ؛ كيف أنه يمزقها كل ممزق . إني قدانعقدتُ عقدةً ؛ إني قد مزّقت كل ممزق .

«لكن كان هناك ثمة مجد آخر مرة ، حين ترقبنا الباب أن تنفتح ، فدخل بيرسيفال ؛ حين رمينا أنفسنا لا نتعلق بشيء على حافة مسطبة صلبة في حانة» .

قالت سوزان «كانت هناك غابة شجر الزان ، وإيلفيدون وعقرب الساعة الموشاة تتلألأ بين الأشجار . الحمام حطّم الورق . الأضواء المتغيرة المرتحلة تجوب فوقي . إنها أفلتتني . مع هذا فأنظر ، يانيفيل ،الذي أحطُّ من قدره لكي أكون نفسي ذاتها ، أنظر إلى يدي على المائدة . أنظر إلى تسلسل اللون الذي ينم عن عافية ، هنا على مفاصل الأصابع ، هنا في راحة الكف . إن جسدي قد استعمل يومياً ، على الوجه الصحيح ، كآلة من عامل جيد ، استعمالاً بالكامل . الشفرة نظيفة ، حادة ، مُبراة في الوسط .

(إننا نتقاتل مع بعضنا كوحوش تقتتل في حقل ، كوعول تتناطح بالقرون) . إنه عندما تنظر من خلال جسدك الشاحب والمطواع فحتى التفاح وباقات الفاكهة يجب أن يكون لها مظهراً مُشِفّاً كما لو أنها موضوعة تحت زجاج . أنت إذ تستغرق عميقاً بمقعد مع شخص واحد ، شخص واحد فقط ، لكنه شخص يتغير ، فإنك إنما ترى بوصة واحدة من الجسد فقط ؛ أعصابها ، أليافها ، الجريان الوئيد أو السريع فيها ؛ لكن لا شيء كامل التمام . أنت لا ترى بيتاً في حديقة ؛ جواداً في حقل ؛ مدينة تمتد إذ أنت تنحني كعجوز تحدّق بعينيها في ريافتها . لكني أنا قد رأيت الحياة على كتل ، رأيتها مكتظة الجوهر ، ضخمة ؛ رأيت ما فيها من متاريس وأبراج ، من مصانع وعدادات غاز ؛ مثوى يقام منذ الأزل وفق نمط وراثي . هذه الأشياء تظل محكمة ، بارزة ، لا تذوب ، في ذهني . إني لست ملتوية ، أو دمثة ؛ إني أجلس بينكم أسلخ نعومتكم بشدتي ,أطفيء رجفة جناح الفراش للكلمات الفضية الارتعاش بالنفث الأخضر من عيوني الصافية .

«الآن قد تناطحنا بقروننا . هذا هو الاستهلال الضروري ؛ تحية الأصدقاء القدامى» .

قالت رودا «الذهب قد تلاشى من بين الأشجار ، وقطعة من الخضار تستقر خلفها ، متطاولة كشفرة سكين تُرى في الأحلام ، أو جزيرة تتناقص ولا تطأها الأقدام . الآن السيارات تومض ويخفق بصيصها ، مقبلةً في الطريق . بوسع العشاق أن يختبئوا في الظلمة الآن ؛ جذوع الأشجار منتفخة ، وهي فاحشة المظهر بوجود العشاق» .

قال بيرنارد «كان الأمر مختلفاً حيناً من الدهر . كان بوسعنا حيناً من الدهر كسر التيار كما نشاء . كم من النداءات التلفونية وبطاقات البريد تطلب الأمر الآن لكي نشق هذه الفجوة التي من خلالها نجتمع معاً ،

twitter @baghdad_library

متحدين ، في هامبتون كورت؟ يا لها سرعة جريان الحياة من كانون إلى كانون! إننا جميعاً يجرفنا تيار الأشياء التي غدت بدرجة من الإيلاف بحيث أنها لا تلقي بأيّ ظل ؛ إننا لا نُجري أية مقارنات ، ولا نفكر أبداً إلا فيما ندر بأنا وأنت ؛ وفي انعدام الوعي هذا نبلغ أقصى التحرر من الاحتكاك ونفْرق الطحالب التي تنمو فوق ثغور القنوات الخاسفة . إن علينا أن نثب كالسمك ، عالياً في الهواء ، لكي نلحق بالقطار نركبه من محطة ووترلو . ومهما كان وثوبنا عالياً فإننا نسقط ثانية في التيار . إني سوف لن آخذ قط الآن السفينة إلى جزر بحر الجنوب . إن سفرة إلى روما هي حدود ترحالي . إن لديّ أبناء وبنات إني قد دُقّقت دق الاسفين في مكاني في لوحة لعبة الحزازير .

«لكنه جسدي فقط - هذا الرجل المسن هنا الذي تدعونه بيرنارد - الذي هو قد ثُبِّت بشكل لا محيد عنه - كما أتمنى أن أعتقد . إني أفكر بموضوعية أكبر مما كنت أقدر عليه حين كنت شاباً ويجب عليّ أن انقب بكل انفعال كطفل يعبث في كعكة لكي أكتشف نفسي . (انظروا ، ما هذه؟ وهذه؟ هل ستكون هذه هدية لطيفة؟ هل هذا كل ما هنالك؟) وهكذا الخ . إني أعرف ماذا تحويه الرزم ؛ ولا أعبأ كثيراً . إني أنثر عقلي كرجل ينثر البذور بأقواسٍ عظيمة متطايرة ، متساقطة خلال الغروب الأرجواني ، متساقطة علىً الأرض المحروثة المداسة واللامعة والتي هي جرداء .

«عبارة من العبارات ، عبارة منقوصة غير بالغة الكمال . وما العبارات؟ فهي لم تترك لي شيئاً سوى القليل جداً لأضعه على المائدة ، بجنب يد سوزان ؛ لأخرججه من جيبي ، مع أوراق اعتماد نيفيل . إني لست حجةً في القانون ، أو في الطب أو في المالية . إني مغلّف بالعبارات ، كقشٍ رطب ؛ إني أتوهج ، فسفورياً . وكل واحد منكم يشعر حين أتكلم :

«أنا مضاء ، أنا أتوهج» كان من دأب الصبيان أن يشعروا : (هذه جيدة ، هذه جيدة ، إذ تتصاعد العبارات فقاقيع من شفتيّ تحت أشجار الدردار في ساحات اللعب . إنهم كذلك تصاعدوا فقاعات ؛ هم أيضاً فروا مع عباراتي . إني أذوي في الوحدة . الوحدة هي خرابي .

«إني أمرّ من بيتٍ لبيت كرهبان القرون الوسطى الذين خادعوا الزوجات والبنات بالخرز الموشاة ، والقصائد الموشحات . إني رحالة ، بائع متجول ، أدفع أجرة مبيتي بموشح ؛ إني لا أبالي ، ضيف سهل الإرضاء ؛ غالباً ما أعطى أحسن غرفة وسرير وثير ؛ ثم أرقد في عنبر على كومة تبن . إني لا أعبأ بالبراغيث لكني أيضاً لا أجد ضيراً في الحرير . إني كذلك متسامح للغاية . إني لست مرشداً خلقياً . إن حسّي بقصر الحياة ومغرياتها هو من الضخامة بحيث أن من الخطل وضع خطوط حمراء تحتها . مع هذا فإني لست بهذه الدرجة من عدم التفريق كما تتصورون ، إذ تقيّمونني – كما تقيّمونني – بذرابة لساني . إن لديّ خنجراً صغيراً من الاحتقار والصرامة القاسية مخفيّاً في عبّي . لكني قمين بأن أُحرف . إني أختلق حكايات . إني أبرم ألاعيب من أي شيء . فتاةتجلس في باب منزل ريفي ؛ إنها تنتظر ؛ من؟ هل أغويت أم لم تغر؟ مدير المدرسة يرى الثقب في السجادة . إنه يتنهد . زوجته ، وهي تمرر أناملها في أمواج من شعرها الذي ما زال كثاً تسرح في تأملات . . . الخ . أمواج من أيادٍ ، ترددات في زوايا الشوارع ، أحدهم يُسقط سيجارة في بالوعة – كلها حكايات . لكن أيها هي الحكاية الصادقة؟ هذا ما لا أدريه . من هنا فإني أبقي على عباراتي معلقة كالملابس في دولاب ، بانتظار أحدٍ ليرتديها . إني ، وأنا أنتظر على هذا النحو ، وأنا أتكهن على هذا النحو ، مدوناً هذه الملحوظة وثم تلك ، فإنني لا أتشبث بالحياة . إني سأرمى كنحلةٍ من زهرة عباد الشمس . إن فلسفتي ، وهي دائماً تتجمع ، وتمتليء لحظة فلحظة ، تقتفي

twitter @baghdad_library

كالزئبق دزينة من الدروب في آن واحد . لكن لويس ، المتطرف المسعور والشديد القسوة ، وهو في غرفته العلوية ، في مكتبه ، قد حصل على نتائج غير قابلة للتعديل عن الطبيعة الحق كما ينبغي أن يُعرف» .

قال لويس «إنه يقطع الخيط الذي حاولت غزله ؛ ضحككم يقطعه ، وعدم اكتراثكم ، وكذلك جمالكم . جيني قطعت الخيط حين قبلتني في الجنينة قبل سنين خلت . الصبيان المتباهون سخروا مني في المدرسة جرّاء لكنتي الاسترالية وقطعته . أنا أقول : (هذا هو المعنى) ؛ ثم أبدأ بغصة في القلب – غرور . أقول : (أصغو للعندليب ، الذي يغرد بين الأقدام التي تدك الأرض ؛ للفتوحات والهجرات . آمنوا – ، ثم أُنتزع مزقاً . إني أشق طريقي فوق بلاط الأرض المكسور وشظايا الزجاج . إن أضواءً مختلفة تسقط ، فتجعل الفهد الاعتيادي مبقعاً وغريباً . إن هذه اللحظة من لحظات التصالح ، حين نلتقي معاً متحدين ، هذه اللحظة من لحظات الأصيل ، بخمرها وورقها المهتز ، والشباب قادمون من النهر بالملابس القطنية البيضاء ، يحملون وسادات ، هي بالنسبة لي لحظة سوداء بظلالٍ من زنزانات سجون وتعذيب ومخزيات يمارسها الإنسان على الإنسان . إن حواسي هي بدرجة من الانتقاص بحيث أنها لا تمحو بتنميق واحد التهمة الخطيرة التي يضيفها عقلي ويضيفها ضدنا ، حتى ونحن جلوس هنا . إني أسأل نفسي ما هو الحل وما هو جسر العبور؟ كيف يتسنى لي أن أختزل هذه الطيوف الباهرة التألق ، هذه الطيوف المتراقصة ، إلى خط واحد قادر على ربطها جميعاً في طيف واحد؟ هكذا أتفكر ؛ وأنتم إبّان ذلك تلحظون بخبث شفاهي المزمومة ، وخدودي الشاحبة وعبوسي الثابت .

«لكني أرجوكم كذلك أن تلحظوا عصاي وصداري . لقد ورثت طاولة كتابة من خشب الماهاغوني الصلد في غرفة عُلِّقت فيها الخرائط . إن مراكبنا قد حازت على سمعة تحسد عليها لقمراتها الطافحة بالترف . إننا

نجهز أحواض السباحة وملاعب الجمناستيك . إني أرتدي صدارة بيضاء الآن وأرجع إلى دفتر صغير قبل أن أضرب موعداً .

«هذه هي الشاكلة الرئيسية والساخرة سخرية المفارقات التي بها أرجو أن أحوّل انتباهكم عن روحي المرتجفة ، والرقيقة والفتية دائماً وغير المحمية . ذلك أنني دائماً الأصغر سناً ؛ الأكثر اندهاشاً بصورة ساذجة ؛ أنا الذي يهرع مقدماً ، تخوفاً وعطفاً ، مع تلقي الأذى أو التسخيف - كلما كان هناك وسخ على أنف أو زر تُرك دون فتح . إني أشقى من جراء كل الإهانات . مع هذا فإني كذلك عديم الرحمة ، وقلبي قُدّ من رخام . أنا لا أستطيع أن أرى كيف يسعكم القول أنكم محظوظون لأنكم عشتم . إن إهاجاتكم التافهة ، ونشواتكم الصبيانية ، حين يغلي دورق الشاي ، حين يرفع الهواء الرخيّ ملفع جيني المرقّط فيعوم أشبه ببيت العنكبوت ، هي بالنسبة لي كشرائط الحرير تلقى في عيون ثور هاجم . إني أشجبكم . مع هذا فإن قلبي يتوق لكم . إني لأذهب معكم خلال نيران الموت . مع هذا فإني أسعد حالاً لوحدي . إني أُترف بالبُرد الذهبية والارجوانية . مع هذا فإني أفضل منظراً فوق أقباع المداخن ؛ قططاً تحك جوانبها الجرباء على مجموعة مداخن منخوبة ؛ نوافذ مكسورة ؛ والرنين الأجش لأجراسٍ من برج كنيسة صغيرة من آجر» .

قالت جيني «إني أرى ما هو أمامي . هذا الملفع ، هذه البقع الخمرية اللون . هذا الكأس . هذا الإناء للخردل . هذه الزهرة . إني أحب ما يلمسه المرء ، ما يذوقه المرء . إني أحب المطر حين يغدو ثلجاً فيصير بيّناً . ولكوني متهورة ، وأكثر منكم شجاعة بكثير ، فإني لا أخفف من جمالي بالوضاعة لئلا يلذعني . إني أزدرده تاماً بكليته . إنه مصنوع من الجسد ؛ إنه مصنوع من أشياء . إن مخيلتي هي مخيلة الجسد . رؤاها ليست ناعمة الغزول وبيضاء من النقاء كمخيلة لويس . إني لا أحب قططك الهزيلة وأقباع

twitter @baghdad_library

مداخنك المنخوبة . إن المحاسن المخدّشة للسمع لسطوحك تنفّرني . النساء والرجال بالبزات العسكرية ، بالشعور الاصطناعية والبُرد ، بالقبعات الطويلة وقمصان التنس المفتوحة بشكل جميل عند الرقبة ، التنويع الذي لا نهاية له لفساتين النساء (إني ألحظ كل الملابس دائماً) تسرّني . إني أدوّم معهم ، دخولاً وخروجاً ، دخولاً وخروجاً ، في الغرف ، في الصالات ، هنا ، هناك ، في كل مكان ، أيّان يذهبون . هذا الرجل يرفع حافر حصان . هذا الرجل يُدخل ويخرج مجموعته الخاصة قذفاً في مجراته . إني لست لوحدي قط . إني تقوم على خدمتي كوكبة من زميلاتي . لا بد أن أمي قد تبعت الطبل ، وأبي قد تبع البحر . إني مثل كلبة صغيرة تهرول في الطريق وراء جوقة الكتيبة الموسيقية ، لكنها تتوقف لتشم جذع شجرة ، لتشمشم بقعة بنية اللون ، وفجأة تعدو عبر الشارع وراء كلب هجين ثم ترفع أحد براثنها إذ تشم نسمة لحم تخلب اللب من دكان القصاب . إن تجارتي السرية قد قادتني إلى أماكن غريبة . رجال ، وكم هم قد انسلخوا من الجدار وجاؤا إليّ . لم يكن عليّ إلا مجرد أن أرفع يدي . فإذا بهم ، مروقاً كالسهام ، قد جاؤا إلى مكان الميعاد الموبق – لعله مقعد في شرفة ، لعله دكان عند ركن بشارع . إن العذابات ، الانفصامات لحياتكم ، قد حُلّت لي ليلة بعد ليلة ، أحياناً بمجرد لمسة إصبع تحت غطاء المائدة إذ نحن [أنا وهو] نجلس للعشاء – إلى هذه الدرجة من الميوعة قد أمسى جسدي ، فيصير حتى بلمسة من إصبع قطرة مكتملة واحدة ، التي تُترع نفسها ، التي ترتعش ، التي تلتمع ، التي تسقط من النشوة .

«إني قد جلست أمام مرآة كما تجلسون أنتم تكتبون ، تجمعون الأرقام على طاولات الكتابة . وهكذا ، فأمام المرآة في معبد غرفة نومي ، فإني قد قمت بتقييم أنفي وحنكي ؛ بتقييم شفاهي التي تنفتح واسعاً للغاية وتظهر الكثير جداً من اللثة . إني قد نظرت ، إني قد لحظت . إني قد

أخترت أي أصفر أو أبيض ، أي التماع أو كمود ، أي تدوير أو استقامة هو الذي يلائم . إني متقلبة بالنسبة لواحدٍ ، جامدة بالنسبة لآخر ، نحيلة بارزة العظام كجليدٍ من فضة ، أو مبهجة للحس كلهيب شمعة من ذهب . إني قد انطلقت كسوطٍ يهوي إلى النهاية القصوى من مشدّي . كان مقدّم قميصه ، هناك في الركن ، أبيض ؛ ثم ارجواني ؛ وقد غلّفنا الدخان واللهيب ؛ وبعد احتراق عنيف - وإنْ لم نرفع أصواتنا إلا بالكاد ، ونحن نجلس على سجادة الموقد ، إذ تمتمنا بكل أسرار قلبينا كما في صدفات بحيث لا يحتمل أن يسمع أحد في البيت النائم ، لكني سمعت الطاهية تتحرك مرة ، ومرة ظننا أن دقات الساعة هي وقع أقدام - ارتمينا رماداً ، غير تاركين لأثر ، أو عظام غير محروقة ، ولا خصل من شعر لتحفظ في ظفائر ، كالتي يتركها وصالكم الحميم وراءه . إني الآن أمسيت شيباء ؛ إني الآن أمسيت جهماء ؛ لكني أنظر إلى وجهي في الظهيرة وأنا جالسة أمام المرآة في وضح النهار ، فألحظ بالضبط أنفي ، وحنكي ، وشفتيّ اللتين تنفتحان واسعتين جداً فتظهران الكثير جداً من اللثة . لكني لستن خائفة» .

قالت رودا «كان هناك ثمة أعمدة إضاءة ، وأشجار لم تُسقط أوراقها بعد ، في الطريق من المحطة . كان لا يزال محتملاً أن تخبّئني الأوراق . لكنني لم أختبيء وراءها . وقد سرت في طريق مستقيم مباشرة إليكم بدلاً من اللف والدوران لأتجنب صدمة الإثارة الحسية كما كان دأبي . لكنّ الأمر ليس سوى أنني قد علّمت جسدي القيام بحيلة معينة . باطنياً إني لم أعلّم ؛ إني أخافكم ، إني أكرهكم ، إني أحبكم ، إني أحسدكم وأحتقركم ، لكني لا أنضم إليكم بهناء . في طريقي من المحطة ، وأنا أرفض قبول ظل الأشجار وصناديق البريد ، تصورتكم ، من معاطفكم ومظلاتكم ، حتى على بعد ، كيف أنكم تقفون منطمرين بجوهر مصنوع من لحظاتٍ مكررة تُدار معاً ؛ كيف أنكم مقحمون ، ذوو موقف ، مع صغار

twitter @baghdad_library

من أبنائكم وسلطة وشهرة وحب ومجتمع ؛ في حين أنني لست ذات شيء . إني لا وجه لديّ .

«هنا في صالة الطعام هذه إنكم ترون قرون الوعول وكؤوس الشراب ؛ ترون الممالح ؛ البقع الصفراء على غطاء المائدة . بيرنارد يقول : (يا نادل!) سوزان تقول : (خبز!) . فيأتي النادل ؛ ويجلب الخبز . لكني أرى جانباً من الكوب كأنه جبل ولا أرى سوى أجزاء من قرون الوعول ، وأرى الالتماع على جانب ذلك الإناء كأنه صدع في ظلام مع عجب وفزع . إن أصواتكم ترن كأنها أشجار تسقسق في غاب . وهكذا الحال مع وجوهكم وما فيها من نتوءات وتجاويف . يا له من جمال ، الوقوف على بعد بلا حراك في منتصف الليل عند سياج ميدان! وإلى الخلف هلال أبيض من وغف ، وصيادوا السمك على شفا الدنيا يسحبون شباكاً ويقذفونها . ريحٌ تحرك الأوراق القصية لأشجار بدائية . (مع هذا نحن هنا نجلس في هامبتون كورت) . ببغاوات صارجة تشق السكون المتوتر للغاية . (هنا تبدأ حافلات السكة بالحركة) . السنونو يغمس أجنحته في بُرك منتصف الليل . (هنا نحن نتكلم) . هذا هو محيط الدائرة الذي أحاول الإحاطة به إذ نجلس معاً . لذا يجب عليّ أداء كفارتي في هامبتون كورت في الساعة السابعة والنصف بالضبط .

«لكن مذ أني بحاجة لهذه الأقراص من الخبز ولهذه القناني من النبيذ ، وبما أن وجوهكم بما فهيا من تجاويف ونتوءات هي وجوه جميلة ، وغطاء المائدة وبقعه الصفر ، وهي أبعد ما تكون عن أن يتاح لها الانتشار في دوائر تفاهم أوسع أوسع مما قد يؤدي أخيراً (هكذا أحلم ، وأنا أهوي من شفا الأرض ليلاً حين يطفو سريري معلقاً) لاحتضان الدنيا بأسرها ، فإني يجب أن أنفذ من خلال غرائب السلوك للفرد . إني يجب أن أبدأ حين تنهشوني بذكر أطفالكم أو أشعاركم أو تقرّح لسعات البرد في أياديكم أو

كائناً ما يكون الشيء الذي يشقيكم . لكني لست مخدوعة . فبعد كل هذه الزيارات هنا وهناك ، كل هذا النهش والتقصي ، فإني سأسقط لوحدي على انفراد خلال هذه الغلالة الرقيقة إلى أتّون النار . وأنتم سوف لن تعينوني . إنكم ، وأنتم أشد قسوة من زبانية التعذيب القدامى ، ستدعوني أسقط ، وستمزقونني إرباً وأنا ساقطة طريحة . مع هذا فهناك ثمة لحظات حين تغدو جدران العقل رقيقةً ؛ حين لا يبقى من شيء إلا وهو مُمتص ، فيتسنى لي أن أتخيل أننا لعلنا ننفخ فقاعة هي بدرجة من شساعة الحجم بحيث أن الشمس قد تغرب وتشرق فيها وأننا قد نأخذ الزرقة من الظهيرة والسواد من منتصف الليل فنتحرر ونفر ناجين من الهنا والآن» .

قال بيرنارد «الصمت يتساقط قطرة فقطرة . إنه يتشكل فوق سطح العقل ويسقط في بُرك تحته . وحيد إلى الأبد ، وحيد ، وحيد ، - أسمع الصوت يسقط ويجرف حلقاته إلى الحوافي القصوى . متخومٌ ومترع ، مرصوص بقناعة الرضا للكهولة . أنا ، الذي تدمره الوحدة ، أدع الصمت يسقط ، قطرة فقطرة .

«لكن الصمت الآن ، متساقطاً ، يحفر وجهي ، يبدد أفقي كتمثال رجل من ثلج في الباحة واقفاً في المطر . وإذ يسقط الصمت فإني أذاب كل الذوبان وأمسي بلا قسمات ولا أكاد أتميّز عن غيري . لا يهم . ما الذي يهم؟ لقد تعشينا جيداً . السمك ، شرائح العجل ، النبيذ ، قد أعمت الناب الحاد لأنانيتنا . القلق انتهى . إن الأكثر غروراً فينا ، ربما لويس ، لا يعبأ بما يقوله الناس . عذابات نيفيل مستريحة . فلينعم الآخرون بالرخاء - هذا هو ما يفكر به . سوزان تسمع تنفس أطفالها وهم نيام آمنين . إنها تتمتم : ناموا ، ناموا . رودا قد هدهدت سفنها إلى الشاطئ . سيّان إن غرقت سفنها أم ألقت مراسيها ، فهي لا تعبأ بعد الآن . إننا على

twitter @baghdad_library

استعداد الآن للنظر بموضوعية تامة في أي اقتراح قد يقدمه العالم . إني أتفكّر الآن أن الأرض ليست سوى حصاة طفرت عرضاً من وجه الشمس وأنه ما من حياة في أي مكان من مهاوي الفضاء» .

قالت سوزان «في هذا الصمت يبدو كما لو أنه ما من ورقة ستسقط أبداً ، وما من طير سيطير» .

قالت جيني «كما لو أن المعجزة قد وقعت ، وأن الحياة باقية هنا والآن» .

قالت رودا «وليس عندنا مزيد نحياه» .

قال لويس «لكن اصغوا للعالم يجري خلال مهاوي الفضاء اللانهائي . إنه يهدر ؛ والقصاصة المضاءة من التاريخ قد مضت وكذلك ملوكنا وملكاتنا ؛ إننا انتهينا ؛ حضارتنا ؛ النيل ؛ وكل الحياة . إن قطراتنا المنفصلة قد ذابت ؛ إننا منقرضون ، ضائعون في مهاوي الزمن ، في الظلام» .

قال بيرنارد «الصمت يهبط ؛ الصمت يسقط . لكن أصغوا الآن ؛ تكْ ، تك ؛ طوط ، طوط ؛ إن الدنيا قد دعتنا إليها مرة أخرى . إني سمعت لَلحظة واحدة الرياح المزمجرة للظلام إذا مررنا نتجاوز إلى ما وراء الحياة . ثم تك ، تك (الساعة) ؛ ثم طوط ، طوط (السيارات) . وقد نزلنا ؛ إننا على الساحل ؛ إننا نجلس ، ستّتنا ، إلى مائدة . إن ذكراي لأنفي هي التي تستدعيني . إني أنهض ؛ إني أصيح : (قاتل ، قاتل!) متذكراً شكل أنفي ، فأضرب بالملعقة على هذه المائدة مشاكساً» .

قال نيفيل «نناهض أنفسنا ضد هذه الفوضى التي ليس لها حدود ، هذه البلاهة التي تخلو من الشكل . إن ذلك الجندي ,وهو يضاجع مربية خلف شجرة ، هوأروع من كل النجوم . مع هذا فأحياناً تظهر نجمة واحدة مرتعشة في السماء الصافية فتجعلني أفكر أن العالم جميل وأننا نحن

اليرقات نشوّه حتى الأشجار بشهوتنا» .

(قالت رودا «مع هذا ، يا لويس ، يا له من زمنٍ قصير يدوّمه الصمت . إنهم بدأوا أصلاً يمسّدون مناديل الطعام بجنب صحونهم . جيني تقول : (من القادم؟) ونيفيل يتنهّد ، إذ يتذكر أن بيرسيفال لن يأتي بعد الآن . جيني أخرجت مرآتها . إنها ، وهي تستعرض وجهها كفنان ، تضع ذرة مسحوق تحت أنفها ، وبعد لحظة واحدة من التدبر فإنها قد زودت الشفاه على وجه الدقة بذلك الأحمر الذي تحتاجه الشفاه . سوزان ، التي تشعر بالاحتقار والخوف من مشهد هذه الاستعدادات ، تزرر الزر الأعلى من معطفها ، وتفكّه . ما الذي تستعد له؟ لشيءٍ ما ، لكنه شيء مختلف» .

قال لويس «إنهم يقولون لأنفسهم : (حان الوقت . إني لا أزال قوياً) ، يقولون : (إن وجهي سيرتسم على سواد الفضاء اللانهائي) . إنهم لا يكملون جملهم ، إنهم يكررون القول : (حان الوقت ، الحدائق ستغلق) . وإذ نذهب معهم ، يا رودا ، منجرفين في تيارهم ، فلعلنا نتخلف وراءهم قليلاً» .

قالت رودا «كالمتآمرين الذين لديهم شيئاً يهمسونه» .

قال بيرنارد «إني أعلم علم اليقين ، ونحن نسير في هذه الجادة ، أن ملكاً ، يمتطي جواداً ، سقط فوق كومة تراب من صنع النمال ، هنا . لكن يا للغرابة أن نقيم على المهاوي المدوّمة للفضاء اللانهائي شخصاً صغيراً وعلى رأسه حروف من ذهب . سرعان ما يسترد المرء الإيمان بالأشخاص : لكن لا يستعيده فوراً بما يضعونه على رؤوسهم . ماضينا الإنكليزي – بوصة واحدة من الضياء . عندئذ تضع الناس قوارير على رؤسها وتقول ، (أنا ملك!) كلا ، إني أحاول أن أسترد ، ونحن نسير ، الحس بالزمن ، لكني مع ذلك الظلام الجاري في عيوني قد فقدت زمام أمري ، هذا القصر يبدو خفيفاً كسحابة وُضعت لحظة على صفحة السماء . إنها خدعة من

twitter @baghdad_library

خدع العقل - أن تضع ملوكاً على عروشهم ، واحداً تلو آخر ، مع تيجان على رؤوسهم . ونحن أنفسنا ، السائرون بصف سداسي ، ما الذي نعارضه ، بهذا الومض العشوائي من الضياء فيناً الذي نسميه العقل والشعور ، وكيف نشن حرباً ضد هذا الطوفان ؛ ما الذي يحظى بالدوام؟ حياتنا أيضاً تفلت جارية ، في الجادات غير المضاءة ، متجاوزة جذاذة الزمن ، دون أن تعرف هويتها . رمى نيفيل مرة قصيدة على رأسي . فقلت وأنا أشعر باقتناع مفاجئ بالخلود : (أنا أيضاً أعرف ما عرفه شكسبير) لكن هذا قد مضى» .

قال نيفيل «إن الزمن يعود ، على نحو غير معقول ، على نحو سخيف ، ونحن نسير . كلبٌ يفعلها ، واثباً . الماكنة تعمل . القدم يجعل تلك البوابة وقورة . ثلاثمئة سنة تبدو الآن أكثر من لحظة تلاشت إزاء ذلك الكلب . الملك وليام يرتقي جواده مرتدياً شعراً اصطناعياً ، وسيدات البلاط يخطرن على المرج بتنوراتهن المنتفخة المطرزة . إني أخذت أقتنع ، ونحن نسير ، أن مصير أوروبا ذو أهمية ذريعة ، وأن كل شيء ، على السخف الذي لا زال يبدو به الأمر ، إنما يعتمد على معركة بلنهايم . أجل ؛ إني أعلن ، إذ نحن نمر من خلال هذه البوابة ، أنها إنما هي اللحظة الحاضرة ؛ إني أغدو من تبعية الملك جورج» .

قال لويس «بينما نحن نتقدم في سيرنا في هذه الجادة ، أنا أنحني قليلاً على جيني ، بيرنارد يداً بيد مع نيفيل ، وسوزان يدها بيدي ، فإن من الصعب عدم البكاء ونحن ندعو أنفسنا أطفالاً صغاراً ، داعين الله أن يحفظنا آمنين ونحن نيام . إن من الرائع أن نغني معاً ، مصفقين ، خائفين من الظلام ، بينما المس كري تعزف البيانو الصغير» .

قالت جيني «إن البوابة الحديدية قد عادت تنغلق . مخالب الزمن قد توقفت عن الافتراس . لقد انتصرنا على مهاوي الفضاء ، بأحمر الشفاه ،

بمسحوق الوجه ، بمناديل الجيب الرديئة النوعية .»

قالت سوزان «إني أمسك ، أقبض بشدة . إني أقبض بقوة على هذه اليد ، يد أي امرئ ، بمحبة ، بكراهية ؛ لا يهم أيّهما» .

قالت رودا «إن المزاج الساكن ، المزاج الطليق من الجسدية يجثم علينا ، ونحن نتمتع بهذا التجلي المؤقت (لا يحدث غالباً أن يكون المرء بلا قلق) حينما تغدو جدران العقل شفافة . إن قصر رين Wren ، كالرباعية التي عُزفت للناس الذابلين الذين جنحوا هناك في المقاعد الأمامية ، يصنع المستطيل . إن مربعاً يقوم على مستطيل ونحن نقول : (هذا هو مثوانا ، هيكل البناء مرئي الآن ، وقليل جداً قد ترك في الخارج)» .

قال بيرنارد «إن الزهرة ، القرنفلة الحمراء التي كانت في المزهرية على مائدة المطعم عندما تناولنا العشاء جميعاً مع بيرسيفال ، قد أمست زهرة مسدسة الجوانب ؛ مصنوعة من حياة ستة أشخاص» .

قال لويس «إضاءة غامضة ، مرئية على أشجار الطقسوس هذه» .

قالت جيني «شيَّدت مع كثير من الألم ، وعديد من الضربات» .

قال بيرنارد «زواج ، موت ، سفر ، صداقة ، مدينة وريف ؛ أطفال وكل ما إلى ذلك ؛ جوهر متعدد الجوانب يُقتلع من هذا الظلام ؛ زهرة متعددة الأطراف . فلنقف لحظة ؛ فلنشاهد ما صنعنا . فلنتوهج على أشجار الطقسوس . حياة واحدة . هاكم . انتهت . انصرمت» .

قال لويس «الآن إنهم يختفون . سوزان مع بيرنارد . نيفيل مع جيني . وأنتِ وأنا ، يا رودا ، نتوقف هنا لحظة عند السندانة الحجرية ذات العروة . أي نشيد سنسمع ، الآن وقد مضى هؤلاء ، زوجاً زوجاً ، يبتغون الجنائن ، وجيني تؤشر بيدها المكسوّة بقفاز ، تتصنع ملاحظة ليلاق الماء ، وسوزان ، التي أحبت بيرنارد دائماً تقول له : (حياتي المحطمة ، حياتي المبددة)؟ ونيفيل ، وهو يتناول يد جيني الصغيرة ذات الأظافر المصبوغة بلون الكرز ،

twitter @baghdad_library

عند البحيرة ، عند المياه المضاءة بضوء القمر ، يصيح : (الحب ، الحب ،) وهي تجيب ، مقلدة الطير : (الحب ، الحب)؟ أي نشيد نسمع؟» .

قالت رودا «إنهم يختفون . إنهم ينسلّون بعيداً فوق العشب باستراق ، وإن بوثوق كما لو أنهم يسألون إشفاقنا استرداد امتيازهم العتيق - ألاّ يزعجهم أحد . إن مدّ الروح ، وقد أُترع فبلغ سيله الزبى ، يفيض بذلك الاتجاه ؛ إنهم لا مناص لهم من هجرنا . الظلام قد أطبق على أجسادهم . أي نشيد نسمع - نشيد البوم ، نشيد العندليب ، نشيد طير النمنمة الصغير المركب يصفر ؛ الضياء على السكك الكهربائية يبرق ؛ الأشجار تنحي وتميل بوقار ، النوم يحوم فوق لندن . ها هي امرأة عجوز ، تعود أدراجها بهدوء ، ورجل ، صياد سمك متأخر ، ينزل الشرفة مع صنارته . ما من صوت ، ما من حركة يجب أن تفلت منا» .

قال لويس «طائر يطير عائداً باتجاه عشه . المساء يفتح عيونه ويرمق بنظرة واحدة سريعة بين الآكام قبل أن ينام . كيف لنا أن نرتّب بشكل مفهوم الرسالة المشوّشة والمركبّة التي يبعثون بها إلينا ، ليس هم فقط ، ولكن من العديد من الموتى ، من الأولاد والبنات ، من الشبان والشابات ، الذين تجولوا هنا على غير هدى ، تحت حكم ملك أو آخر؟» .

قالت رودا «إن ثقلاً قد سقط في عقر الليل ، يجره إلى الأسفل . كلُّ شجرة كبيرة بظلٍ هو لي ظل الشجرة خلفها . إننا نسمع طرقاً على سقوف مدينة صائمة حينما الأتراك جياع ومزاجهم مستريب . إننا نسمعهم يصيحون بنباح حاد أشبه بعويل الوعول : (افتحوا ، افتحوا) ، اصغ لقطارات الشارع تصرج ولّلالتماعات تبرق من السكك الكهربائية . إننا نسمع أشجار الزان وأشجار الدردار ترفع أغصانها كما لو أن عروساً قد أتاحت لقميص نومها الحريري أن يسقط وجاءت إلى الممر تقول : (افتح ، افتح)» .

قال لويس «كل شيء يبدو حياً . إني لا أستطيع سماع الموت في أي

مكان الليلة . إن السخف ، على وجه ذلك الرجل ، والشيخوخة ، على وجه تلك المرأة ، هما من القوة بحيث يظن المرء أنها كافية لصد مفعول الرُّقى والاتيان بالموت . لكن أين هو الموت الليلة؟ إن كل الفجاجة ، والخزعبلات ، وهذا الشيء وذاك ، قد سُحقت كشظايا الزجاج إلى مد أزرق ، أحمر الحوافي ، والذي تكسّر ، وهو يقترب من الساحل خصباً بسمكٍ وفير على أقدامنا» .

قالت رودا «لو أننا نستطيع الصعود معاً ، لو أننا نستطيع إعمال الفكر من مرتفع واف ، لو أننا نستطيع البقاء لا يمسّنا شيء ودون أي عون - إنما أنت ، وقد أزعجتك أصوات التصفيق الخافت من الثناء والضحك ، وأنا ، مستنكرة الحلول الوسط والحق والباطل على الشفاه الإنسانية ، لا نثق إلا بالعزلة وبعنف الموت وبذا فإننا أنت وأنا مجزأون» .

قال لويس «مجزأون أبداً . لقد ضحينا بالعناق بين نباتات السرخس ، وضحينا بالحب ، الحب ، الحب ، عند البحرية ، ونحن نقف بجنب سندانة ذات عروة ، كمتآمرين انتحوا جانباً لاقتسام سرٍ ما . لكن انظري الآن ، وإذ نحن نقف هنا ، فإن ترجرجاً يتكسّر على الأفق . إن الشبكة قد رُفعت أعلى فأعلى . إنها تصل إلى رأس الماء . الماء منكسر بالفضة بأسماكٍ صغارٍ مرتعشة . إنها وهي مرة تثب ، مرة تضرب ، فقد وُضعت على الشاطئ . الحياة تطرح صيدها على العشب . هناك أشخاص يأتون نحونا . هل هم رجال أم هم نساء؟ إنهم لا زالوا مرتدين السجف الغامضة للمد الفياض الذي به انغمروا» .

قالت رودا «الآن ، وهم يمرون بتلك الشجرة ، فإنهم يستردون حجمهم الطبيعي . إنهم مجرد رجال ، مجرد نساء ، العجب والويل يتبدلان إذ هم يخلعون سجف المد الفياض . إن الإشفاق ، إذ هم يخرجون إلى ضوء القمر كأنهم بقايا جيش ، يُعيد إلينا ممثلينا الذاهبين كل ليلة (هنا أو في اليونان)

twitter @baghdad_library

إلى المعركة ، والعائدين كل ليلة بجروحهم ، بوجوههم المستلبة . الآن يسقط الضوء عليهم مرة أخرى . إن لديهم وجوهاً . إنهم يغدون سوزان وبرنارد ، جيني ونيفيل ، أناس نعرفهم . الآن أي تقلص يحدث! الآن أي ذوبل ، وأي مهانة! إن الرعشات القديمة تجري فيّ ، الكراهية والفزع ، إذ أشعر بنفسي موثقةً بإحكام إلى بقعة واحدة بهذه الكلاليب التي يلقونها عليّ ؛ هذه التحايا ، هذه التعّرفات ، هذه الاقتلاعات بالأصبع ، والتقصّيات بالعيون . مع هذا فإنهم ما عليهم إلا أن يتكلموا ، فإذا بكلماتهم الأولى ، مع النبرة المستذكرة والزوغ الدائم عما يتوقعه المرء ، وإذا بأيديهم تتحرك فتجعل آلاف الأيام الماضية تنبعث في الظلام ، فتزعزع عزيمتي» .

قال لويس «إن شيئاً ما يخفق ويتراقص . الوهم يعود إذ يتقربون ماشين في الجادة . فتبدأ الرجرجة والتساؤل . ما الذي أظنّه بك – ما الذي تظنّه بي؟ من أنتَ؟ من أنا؟ – إن هذا يهزهز ثانية هواءه القلق فوقنا ، والنبض يتسارع والعين تتلامع وكل جنون الوجود الفردي الذي بدونه تجدب الحياة فتموت ، يبدأ من جديد . إنهم يطبقون علينا . الشمس الجنوبية تخفق فوق السندانة ذات العروة ؛ إننا نتقحم داخلين المد الآتي من البحر العنيف والقاسي . أيها الرب أعِنا على القيام بدورنا إذ نستقبلهم عائدين – سوزان وبيرنارد ، نيفيل وجيني» .

قال بيرنارد «لقد حطمنا شيئاً بحضورنا ، ربما حطمنا عالماً» .

قال نيقيل «مع هذا فإننا لا نكاد نتنفس ، على ما نحن عليه من حال هالكة ، إننا في ذلك الوضع الذهني ، السلبي والمنهك ، حين لا نرجو إلاّ الرجوع إلى بدن أمنا الذي منه تم فصالنا . وكل شيء آخر هو ممجوج ومُقحَم ومُتعِب . ملفع جيني الأصفر لونه بلون فراش الليل في هذا الضياء ؛ عيونٍ سوزان منطفئة . إننا لا نكاد نتميّز عن النهر . إن عقب

سيجارة واحد هو نقطة التوكيد الوحيدة بيننا . الحزن يشوب رضانا ، أن كان لا بد أن نترككم ، فيمزق النسيج ؛ مذعنين للرغبة باعتصار رحيق ، على انفراد ، هو أحدّ مرارة ، وأشدّ سواداً ، والذي كان حلواً أيضاً . لكننا الآن قد بلينا» .

قالت جيني «ليس هناك بعد حريقنا من شيء تُرك ليوضع في ضفائر» .

قالت سوزان «مع ذلك فأنا أفغر فاه ، كفرخ طير ، لم يشبع ، من أجل شيء قد فلت مني» .

قال بيرنارد «فلنبق لحظة قبل أن نذهب . فنمش بالشرفة عند النهر لوحدنا . الوقت قبيل الإيواء للفراش . الناس قد أووا إلى بيوتهم . الآن يا لها من راحة أن نرقب الأضواء تنار في غرف النوم لأصحاب الدكاكين الصغار في الجانب الآخر من النهر . ها هو واحدٌ من الأضواء ، ها هو آخر . ماذا تظنون كان دخلهم اليوم؟ مجرد ما يكفي بالكاد لدفع الإيجار ، ونفقات الإضاءة والطعام وملابس الصغار . لكن ما يكفي بالكاد . يا له من حس بكفاف الحياة تعطيه إيانا الأضواء في غرف النوم لأصحاب الدكاكين الصغار! السبت يأتي ، وهناك ما يكفي بالكاد ربما لدفع أثمان الدخول للسينما . لعلهم قبل أن يطفئوا النور يذهبون إلى الحديقة الصغيرة وينظرون إلى الأرنب الضخم المقرفص في البيت الخشبي . ذلك هو الأرنب الذي سيأكلونه في عشاء الأحد . ثم يطفئون النور . ثم ينامون . وبالنسبة لآلاف الناس ما النوم سوى الدفء والصمت ولحظة لهو مع حلم هائل . ويدور في خلد البقال : (إني قد أبردت رسالتي إلى جريدة الأحد . فلنفرض أني أربح خمسمئة باون في مسابقة كرة القدم؟ فلسوف نذبح الأرنب . الحياة بهيجة . الحياة طيبة . لقد أبردت رسالتي . لسوف نذبح الأرنب) ، فينام .

twitter @baghdad_library

«ذلك يستمر . . اسمعوا . ثمة صوت كقرقعة عربات النقل للسكة الحديد في خط التوصيل الجانبي . تلك هي السلسلة السعيدة لحدث واحد يتلو حدثاً آخر في حياتنا . طَق ، طق ، ، طق . يجب ، يجب ، يجب . يجب أن تذهب ، يجب أن تنام ، يجب أن تستيقظ ، يجب أن تنهض - كلمة رصينة ، رحيمة ، والتي نتصنّع شتمها ، التي نكبسها كبساً على صدورنا ، التي بدونها يحل بنا الخراب . يا لنا كيف نعبد ذلك الصوت الشبيه بالقرقعة المجتمعة لعربات النقل في خط توصيل السكة الجانبي!

«الآن إني أسمع من بعيد الجوقة في النهر ؛ أغنية الصبيان المتباهين ، العائدين في حافلات كبيرة من نزهة يوم على سطوح مراكب مزدحمة . لا زالوا يغنون كما كان دأبهم في الغناء ، عبر الساحة ، في ليالي الشتاء ، أوفي الصيف والنوافذ مفتوحة ، يسكرون ، يكسرون الأثاث ، يرتدون القُبع الصغيرة المقلمة ، وكلهم يديرون رؤوسهم في نفس الاتجاه إذ تدور العربة الكبيرة حول المنعطف ؛ وأنا رغبت أن أكون معهم .

«على أننا ، والجوقة ، والماء السريع الدوران ووشوشة النسيم التي لا تدرك إلا بالكاد ، ننسلّ ذاهبين . إن نتفاً قليلة من أنفسنا تتهاوى ,هاكم! إن شيئاً مهماً جداً يسقط عندئذٍ . إني لا أستطيع البقاء متماسكاً . إني سأنام . لكننا يجب أن نذهب ؛ يجب أن نلحق بقطارنا ؛ يجب أن نعود مشياً إلى المحطة - يجب ، يجب ، يجب . إننا مجرد أجساد تهرول جنباً إلى جنب . إني موجود فقط في أخمص قدميّ وفي العضلات المتعبة لفخذيّ . إننا قد مشينا لساعات كما يبدو . لكن أين؟ لا أستطيع التذكر . إني كلوح خشب ينزلق بسلاسة فوق شلاّل . إني لست قاضياً . إني لست مدعواً لإبداء رأي . البيوت والأشجار كلها هي هي في هذا الضياء الباهت . هل هذا عمود؟ هل هذه امرأة تسير؟ ها هي المحطة ، ولو كان

للقطار أن يشقني نصفين ، فإني لسوف أتحّد ببعض في الطرف الأبعد ، كوني واحد ، كوني لا أتجزأ . لكن الغريب هو أني لا أزال أقبض على النصف الثاني لبطاقتي إلى ووترلو بشدة بين أصابع يدي اليمنى ، حتى في هذا الآن ، حتى وأنا نائم» .

twitter @baghdad_library

الشمس قد غربت الآن . السماء والبحر لا يتميزان عن بعضهما . الأمواج بتكسّرها تنشر دوائرها البيضاء بعيداً عن الشاطئ ، وترسل ظلالاً بيضاء بداخل حنيات الكهوف الجهيرة الرنين ثم تعود أدراجها أوّاهةً على الحصباء .

الشجرة هزّت أغصانها فسقط تناثر الأوراق على الأرض . هنالك ستستقر بهدوء تام على ذات البقعة تنتظر التحلل . الألوان السوداء والرمادية تُطلق إلى داخل الجنينة من الوعاء المكسور الذي حوى حيناً ضياء أحمر . ظلال قاتمة تسوّد الأنفاق بين سيقان الشجر . طائر الدُّج صامت والحشرة تمتص نفسها منسلّة إلى ثقبها الضيق . وبين حين وحين تطير قشّة مبيضّة ومجوّفة من عش قديم فتسقط بين الحشائش القاتمة والتفاح المتخيّس . الضياء قد خفت من سقيفة الأدوات وجلد الصل يتدلى من المسمار فارغاً . كل شيء آخر في الغرفة قد أطفح جوانبه . ضربة الفرشاة الدقيقة منتفخة ، الدواليب والمقاعد أذابت كتلها البنية اللون إلى قتام واحدٍ عظيم . الارتفاع من الأرض إلى السقف تتعلق بيه سُجُف شاسعة من الظلام المرتعش . المرآة باهتة كفم كهفٍ مظلل بالمتسلقات المتدلية .

وخلت صلادة الروابي من جوهرها المادي . والأضواء المتنقلة ترسل إسفيناً زغبياً ما بين الدروب الغائرة التي لا تُرى ، لكن ما من

ضياء يلوح بين الأجنحة المطوية للروابي ، وليس هناك ثمة من صوت خلا نداء طير واحد يبغي شجرةً أشد عزلة . وعلى حافة المنحدر الصخري السحيق هناك ثمة وشوشة متساوية من الهواء الذي قد نُقي خلال الغابات ، ومن الماء الذي قد بُرِّد في آلاف التجاويف المزججة بأواسط الأوقيانوس .

وكما لو أن هناك ثمة أمواج من ظلام في الفضاء فإن الظلام تقدّم ، مغطياً البيوت ، والروابي ، والأشجار ، كأمواج الماء تلتطم على جوانب سفينة غارقة . الظلام غمر الشوارع ، مدوِّماً حول أجسام منفردة ، محيطاً بها ؛ ماحياً أزواجاً من العشاق ملتصقين تحت الظلام المُنث لأشجار الدردار في إيراق الصيف التام .

الظلام طوى أمواجه حذو دروب الخيل المعشبة وفوق الجلدة المتغضنة للتربة المتجذرة ، مغلفاً شجرة الشوك المنفردة وصدف الحلزون الفارغ تحتها . وإذ يتصاعد الظلام مرتقياً للأعلى ، فإنه نفخ هبوبه حذو المنحدرات الجرداء في الأراضي المرتفعة ، ولاقى القمم المتآكلة والمحكوكة للجبال حيث تثوى الثلوج إلى الأبد على الصخر الصلب حتى حين تكون الوديان مكتظةً بالغدران الجارية وبأوراق الكروم الصفراء ، وبالفتيات ، يجلسن في الشرفات ، ناظرات إلى الثلوج ، مظللات وجوهن بمراوحهن . هنّ ، كذلك ، غطّاهنّ الظلام .

twitter @baghdad_library

قال بيرنارد «والآن فلنوجز كل شيء . الآن فلأشرح لك معنى حياتي . وبما أننا لا يعرف أحدنا الآخر (ولو ني لالقيتك مرة ، على ما ظن ، على ظهر باخرة متجهة إلى أفريقيا) ، فإن بوسعنا الكلام على رسلنا . والوهم يطبق عليّ بأن شيئاً ما يلتصق هنيهةً ، له تكوير وثقل وعمق ، قد تم . هذا ، في الهنيهة الحاضرة ، يبدو أنه حياتي ولو كان ممكناً لسلمتها لك كاملة التمام . سأنتزعها كما ينتزع المرء عنقود عنب . وسأقول : «خذها . هذه هي حياتي» .

«لكن لسوء الحظ ، إن ما أراه (هذه الكرة ، حاشدةً بالأجسام) لا تراه أنت . أنت تراني ، أجلس على المائدة قبالتك ، رجلاً بديناً نوعاً ما ، كهلاً ، أشيب عند الفودين . أنت تراني أتناول منديل الطعام وأفتح طياته . أنت تراني أصبّ لنفسي قدحاً من نبيذ . وأنت ترى ورائي الباب ينفتح ، والناس تمرّ . لكن لكي أجعلك تفهم ، لكي أعطيك حياتي ، يجب أن أحكي لك حكاية - وهناك العدد العديد ، والعدد العديد- حكايات عن الطفولة ، حكايات عن المدرسة ، وعن الحب ، والزواج ، والموت وما إلى ذلك ؛ وما منها حكاية صادقة . مع هذا فإننا كالأطفال نحكي لبعضنا البعض حكايات ، ولكي نزوقها فإننا نختلق لها هذه العبارات السخيفة ، الجميلة ، المسرفة التزويق . كم أنا متعب من الحكايات ، كم أنا متعب من العبارات التي تواتيني بكل حسن وكل أقدامها على الأرض! كذلك ، كم

أرتاب من التصاميم الأنيقة للحياة مرسومة على نصف صفحة من ورق المسودات . إني بدأت أتوق للغة ما صغيرة ، كمثل ما يستعمل العشاق ، كلمات متكسّرة ، كلمات غير فصيحة ، كوقع أقدام على رصيف . إني بدأت أبتغي تصميماً ما هو أكثر انسجاماً مع لحظات المهانة والانتصار ، تلكلم التي تحل بين حين وحين بلا مراء . وإذ أستلقي في حفرة في يوم عاصف ، حين كانت الدنيا مطيرة ، فعندئذ تأتي السحب الهائلة تجوب فوق السماء ، سحب ممزقة ، ونتف من سحاب . وما يبهجني عندئذ هو الاختلاط المبلبل ، الارتفاع ، عدم الاكتراث والغضب . سحب كبيرة متغيرة على الدوام ، وحركة ؛ شيء جهنمي وشرير ، يتكوّر ، على غير هدى وكيفما اتفق ؛ يتعاظم ، يتصل بعضه بذيل بعض ، يتكسر منفصلاً ، وأنا منسيٌّ ، ضئيل ، في حفرة . أما عن حكاية ، عن تصميم ، فأنا لا أرى منها أثراً آنئذ .

«لكن في هذه الأثناء ، وإبّان تناولنا الطعام ، فلنقلّب هذه المشاهد كما يقلب الأطفال صفحات كتاب مصور فتقول المربية مؤشرة : (هذه بقرة ، هذا زورق) فلنقلب الصحفات ، وسأضيف ، لغرض استمتاعك ، تعليقاً في الهامش .

«في البداية ، كانت الروضة التي ننام فيها ذات نوافذ تطل على حديقة ومن خلفها البحر . رأيت شيئاً يستلمع - لا شك أنه المقبض النحاسي لدولاب . ثم رفعت مسز كونستابل الاسفنجة أعلى من رأسها ، عصرتها ، فإذا بسهام الإثارة تنطلق يمنة ، يسرة ، على العمود الفقري بأسره إلى الأسفل . وهكذا ، وما دام فينا نفَس ، وإلى آخر الزمان ، فإذا ما اصطدمنا بمقعد ، أو منضدة ، أو إمرأة ، فإننا نمزّق بسهام الإثارة - وإذا مشينا في حديقة ، وإذا شربنا هذا النبيذ . بل أحياناً ، حين أمر من منزل ريفي ذي ضياء في النافذة حيث قد وُلد طفل ، فإني أهم أن أتشفّعهم ألا

twitter @baghdad_library

يعصروا الاسفنجة فوق ذلك الجسد الجديد . ثم ، هنالك الجنينة وخميلة أوراق التوت التي تبدو محيطة بكل شيء ؛ أزهار ، تتقد كشرارات على أعماق الخضرة ؛ فأرٌ يتلوى بالنزوات مع يرقات تحت ورقة راوند ؛ الذبابة تطن وتطن وتطن على سقف غرفة الأطفال ، وصحون على صحون من طاهر الخبز والزبد . كل هذه الأمور تحدث في ثانية واحدة وتدوم إلى الأبد . الوجوه تحوّم . وإذ هرعت حول المنعطف فإن أحدهم قال : (هلو ، ها هي جيني ، ها هو نيفيل ، ها هو لويس بملابس قطنية رمادية متمنطقاً بحزام من جلد الحية ، ها هي رودا) . إن لديها طاسة فيها تعوِّم تويجات الزهور البيضاء . إنها كانت سوزان التي بكت ، ذلك اليوم حينما كنت في سقيفة الأدوات مع نيفيل ؛ وأنا شعرت بأنّ لا مبالاتي تذوب . نيفيل لم يذب . قلت : (لذا فإني أنا نفسي ، لا نيفيل) ، اكتشاف رائع . سوزان بكت وأنا تبعتها . إن منديلها المبتل ، ومشهد ظهرها الصغير يجيش صعوداً ونزولاً كمقبض مضخة ، وهي تجهش من أجل ما لم تحظ به ، قد وتّر أعصابي . قلت : (إن هذا لا يجب أن يحتمل) ، إذ جلست بجنبها على الجذور التي كانت صلبة كالهياكل العظمية . إني عندئذ صرت أولاً مدركاً لوجود أولئك الأعداء الذين يتبدلون ، لكنهم دائماً موجودون ؛ القوى التي نقاتل ضدها . أن يدع المرء نفسه تواصل السير سلبياً هو أمر لا يرد على البال . قال أحدهم : (ذلك سبيلك ، أيها العالم ، وهذا سبيلي) . وهكذا ، فإني صحت (فلنستكشف) ، وقفزتُ ، وركضت مع سوزان منحدرين ورأيت صبي الاصطبل يقعقع في أطراف الباحة بجزمة عظيمة . وفي الأسفل ، ومن خلال أعماق الأوراق ، يكنس البستانيون ساحات العشب الأخضر بمكانس عظيمة . السيدة جلست تكتب . ودار في خلدي ، وأنا مصقوع ، مسمّر في مكاني : (إني لا أستطيع التدخل في ضربة واحدة من هاتيك المكانس . إنها تكنس وتكنس . ولا أستطيع التدخل في ثبات

تلك المرأة وهي تكتب) . إنه من الغريب ألا يستطيع المرء إيقاف البستانيون يكنسون ولا زحزحة امرأة . لقد ظلوا هنالك طيلة حياتي . إنه كما لو أن المرء قد أفاق في «ستون هنج» محاطاً بدائرة من أحجار عظيمة ، أولئك الأعداء ، أولئك الحضور ، عندئذٍ طارت حمامة محجّلة من الشجر . وإذ كنت واقعاً في الغرام لأول مرة ، فقد ألّفت عبارة - قصيدة عن حمامة محجلّة - عبارة منفردة ، ذلك أن ثقباً قد ثُقب في رأسي ، واحدةً من الشفافيات المفاجئة التي من خلالها يرى المرء كل شيء . ثم مزيد من الخبز والزبد ومزيد من الذباب يطن حول سقف غرفة الأطفال الذي عليه ترتعش جزر من ضياء ، خفاقة ، متلألئة ، بينما تقطر أصابع اللمعان بركاً زرقاء على زاوية رف الموقد . وإذ جلسنا للشاي يوماً بعد يوم فإننا راقبنا هذه المشاهد .

«لكننا كنا جميعاً نختلف عن بعضنا . إن الشمع - الشمع الطاهر الذي يغطي العمود الفقري ذاب في كتلٍ مختلفة بالنسبة لكل واحد منا . خوار الصبي ماسح الأحذية يضاجع الخادمة بين شجيرات التوت ، الملابس متطايرة بعنف على الحبل ؛ الرجل الميت في البالوعة ؛ شجرة التفاح ، قفراء في ضوء القمر ؛ الفأر يحتشد بالنزوات ؛ اللمعان يقطّر أزرق - إن شمعنا الأبيض قد تخطط وتلوّث بكل واحدةٍ من هذه على نحو مختلف . لويس تقزز من طبيعة الجسد البشري ؛ رودا تقززت من قسوتنا ؛ سوزان لا تستطيع المشاركة ؛ نيفيل تطلّب النظام ؛ جيني تطلبت الحب ؛ وهكذا . لقد شقينا أفظع الشقاء إذ غدونا أجساماً منفصلة .

«مع هذا فإني قد حُفظت من هذه المفرطات ، وقد امتد بي العمر أكثر من العديد من أصدقائي الذين ماتوا ، وأنا بدين بعض الشيء ، أشيب ، لأن الذي يسرني هو المشهد الفسيح للحياة ، وهو يُرى لا من السطح ، بل من نافذة الطابق الثالث ، ولا يسرني ما تقوله امراة واحدة لرجل واحد ،

twitter @baghdad_library

حتى إذا كان ذلك الرجل هو أنا نفسي . لذا فكيف يمكن التجبّر عليّ في المدرسة؟ كيف يمكنهم جعل الأمور مزعجة لي؟ كان هناك الدكتور المدير يتمايل في مصلّى المدرسة ، كما لو أنه يسير في سفينة حربية في ريح عاصف ، وهو يصرخ بأوامره من خلال بوق مكبّر ، فالناس في السلطة يصبحون دائماً من ذوي السلوك المثير - إني لَم أكرهه كنيفيل ، أو أقدسه كلويس . كنت أدوّن الملحوظات إذ كنا نجلس معاً في المصلى . كان هناك ثمة أعمدة ، وظلال ، ولوحات نحاسية تذكارية ، وصبيان يتشاجرون ويتبادلون الطوابع من وراء كتب الصلاة ؛ صوت مضخة صدئة ، الدكتور يهدر بشأن الخلود وبشأن الخلاص بأنفسنا كرجال ؛ بيرسيفال يحك فخذه . كنت أدون الملحوظات من أجل الحكايات ؛ ورسمت تصاوير أشخاص في هامش دفتري ، وبذا أمسيت أكثر انفصالاً عنهم . إليكم واحداً أو اثنين من الأشخاص الذين رأيت .

«جلس بيرسيفال يحدّق أمامه مباشرة ذلك اليوم في مصلّى المدرسة . كانت لديه كذلك طريقة في مس قفا رقبته بيده . كانت حركاته دائماً مشهودة الروعة . كلنا كنا نضرب بأيدينا على قفا رؤوسنا - بلا نجاح . كان يتمتع بذلك النوع من الجمال الذي يقي نفسه من أي تدليل . وإذ لم يكن باي صورة من الصور مبكر النضوج فقد قرأ أيما شيء كُتب لتهذيبنا دون أي تعليق ، وظن باتزانٍ رائع (الكلمات اللاتينية تواتيني بصورة طبيعية) ، الأمر الذي صانه من الكثير من اللؤم والعديد من المهانات ، ظن أن جدائل لوسي الخلفية الشقراء التبنية اللون وخدودها الوردية هي أوج الجمال الأنثوي . ومذ تمت صيانته هكذا فإن ذوقه بعدئذ كان رفيعاً إلى أقصى حد . لكن لا بد من وجود موسيقى ، بعض التراتيب المتوحشة ، فمن خلال النافذة لا بد أن تدخل أنشودة صيد تنطلق من حياة ما عاجلة لا يمكن تصورها - صوتٌ مما يصرخ بين الروابي ويتلاشى . إن ما هو

مذهل ، ما هو غير متوقع ، ما هو ليس في حسابنا ، ما يجعل من التناظر مهزلة المهازل – ذلك هو الذي يتوارد فجأة على ذهني ، وأنا أفكر به . إن الجهاز الصغير للملاحظة هو غير ذي مشدّات . الأعمدة تهوي ؛ الدكتور المدير يطفو مبتعداً ؛ وبعض التجلي المفاجيء يتملكني . لقد انقذف ، وهو يركب حصاناً في سباق ، وحينما جئت الليلة أسير في جادة شافتزبيري ، فإن هذه الوجوه التافهة والتي تكاد تكون لا شكل لها والتي تنقذف من أبواب محطة قطار تحت الأرض ، والعديد من الهنود الغُفل من التعرف عليهم ، والناس الذين يموتون من المجاعة والمرض ، والنساء اللاتي قد خُدعن ، والكلاب المجلودة بالسياط والأطفال الباكين – كل هؤلاء يبدون لي أنهم قد حرموا منه . إنه كان سيُحق الحق والعدالة . إنه كان سيصون الحرمات . إنه كان سيهز في الأربعين ، لو بلغها ، السلطات هزاً . ما من أغنية من أغاني هدهدة الأطفال للنوم التي خطرت لي قادرة على أن أغني له لأغرية بالراحة ا لأبدية .

«لكن دعني أغمس ملعقتي ثانية وأستخرج شيئاً آخر من هذه المواضيع المتناهية الدقة التي ندعوها متفائلين (بشخصيات الأصدقاء) ، لويس . كان يجلس محدّقاً بالواعظ . إن وجوده يبدو متكوراً في جبينه ، أما شفتاه فمزمومتان ؛ عيونه جامدة ، لكنها تبرق فجأة بالضحك . كذلك كان يشكو من تقرح اليدين بلسعة البرد ، عقوبة سوء الدورة الدموية . إنه وهو التعيس الوحيد بلا أصدقاء ، الشريد في منفى ، يصف أحياناً في لحظات الثقة بالنفس كيف أن التربة المجذّرة تكتسح الشواطئ في مسقط رأسه . إن رَصَد الشباب العنود يثبت نفسه على مفاصله المتورمة . أجل ، لكننا كذلك سرعان ما أدركنا كم هو حاد المضاء ، كم هو حاد الذكاء ، كم هو قاس ، وكم كنا نحن ، إذ نستلقي تحت أشجار الدردار مدّعين مراقبة لعبة الكريكيت ، ننتظر بشكل طبيعي أن يبدي استحسانه ، ونادراً ما

twitter @baghdad_library

أبداه . كانت سطوته مستنكرة ، بقدر ما كانت سطوة بيرسيفال معشوقة عشق العبادة . إنه وهو المتكلف للحشمة ، الشكوك ، الذي يرفع قدمه كاللقلق ، كانت تُحكى عنه مع ذلك أسطورة مفادها أنه كان قد حطم باباً بقضبة يده المجردة . لكن قمته كانت قفراء وصخرية إلى درجة لا تسمح لهذا النوع من الغبش أن يلتصق بها . كان يخلو من تلك الأواصر البسيطة التي بها يرتبط امرئٌ بآخر . لقد ظل متعالياً ؛ محاطاً بالأحاجي ؛ ومتفقهاً قادراً على تلك الدقة الملهمة التي يجفّ بها شيء رهيب . إن عباراتي (كيفية وصف القمر) لم تكن تحظى باستحسانه . من جهة أخرى ، فإنه كان يحسدني إلى حد الاستماتة في تصرفي على رِسلي مع الخدم بشكل يسير . لا لأن الإحساس بأهليته يخذله . بل كان ذلك يرقى إلى مرتبة احترامه للانضباط . من هنا نجاحه في النهاية . على أن حياته لم تكن سعيدة . لكن ، انظر – إن عينه تؤول بيضاء إذ هو يقبع في راحة كفي . وبغتةً فإن الإحساس بحقيقة الناس يغادر المرء . إني أعيده إلى البركة حيث سيكتسب لمعانه .

«يليه نيفيل – مستلق على ظهره محدّقاً بسماء الصيف . إنه يطفو بيننا كقطعة من زغب النبات الشوكي ، يلازم باسترخاء الزاوية المشمسة من ساحة اللعب ، غير مصغ ، وإن لم يكن نائياً . إني بواسطته استطلعت الآداب اللاتينية القديمة دون أن أتجشم عناء مطالعتها بصورة دقيقة ، وأخذت منه كذلك بعض تلك العادات الذهنية الدائمة التي تجعلنا معوجّين في تفكيرنا على نحوٍ لا مناص منه – مثلاً بشأن الصلبان ، أنها علامة الشيطان . إن أشباه حبنًا وأشباه كرهنا والتباساتنا عن هذه النقاط كانت بالنسبة له خيانات لا يمكن الدفاع عنها . إن الدكتور المدير المترنح والطنّان الرنان ، الذي جعلته يجلس هازاً حمالات بنطلونه عند موقدٍ غازي ، كان بالنسبة له ليس سوى أداة من أدوات محاكم التفتيش .

وهكذا فإنه يلتفت بتولّهٍ مما يعوّض عن خموله بخصوص دراسة قطلوس وهوراس ولو قريطس ، وهو يستلقي خامداً بكسل ، أجل ، لكنه لماح ، ويلحظ بنشوة لاعبي الكريكيت ، بينما هو ، بعقلٍ كلسان آكل النمل ، سريع ، حاذق ، نهم ، يتقصى كل حنية وثنية في تلك الجمل الرومانية ، ويبتغي شخصاً واحداً ، شخصاً واحداً على الدوام ليجلس بجنبه .

«والفساتين الطويلة لزوجات المدرسين تمر مهسهسة ، ضخمة ، متوعدة ؛ فتتطاير أيدينا إلى قبعاتنا بالتحية . فيحل ثقل ذريع في أمزجتنا ، لا ينقطع ، ومل رتيب . لا شيء ، لا شيء ، لا شيء يقطع بزعنفته تلك المساحة المترامية الأطراف الكئيبة اللون من الماء . لا شيء يحدث ليزيح ذلك الوقر من السأم الذي لا يطاق . فصول الدراسة استمرت . ونحن كبرنا ، تغيّرنا ؛ ذلك أننا ، بالطبع ، حيوانات . إننا لسنا متنبهين على الدوام بأية صورة من الصور ؛ إننا نتنفس ، نأكل ، ننام ، بشكل آلي . إننا نوجد ليس فقط على نحو منفصل بل بشكل بقع من لمادة لا تتميز عن بعضها . وبقبضة يد واحدة فإن ملء عربةٍ كاملة من الأولاد تجرف وتذهب للعب الكركيت ، للعب كرة القدم . جيش يسير عبر أوروبا . ,إننا نجتمع في حدائق عامة وفي قاعات ونعارض مثابرين أي مارق (نيفيل ، لويس ، رودا) يؤسس وجوداً منفصلاً . وإني مخلوق على صورة بحيث أنني ، إذ أسمع لحناً متميزاً أو لحنين ، كالتي يغنيها لويسن أو نيفيل ، فإني كذلك أنجذب بشكل لا يقاوم إلى صوت الجوقة تنشد أغنيتها القديمة ، أغنيتها التي تكاد تكون بلا كلمات وبلا معنى ، التي تصل عبر الساحات ليلاً ؛ والتي نسمعها الآن هادرة حولنا إذ تأخذ السيارات والباصات الناس إلى المسارح . (اسمع ؛ السيارات تهرع مارةً بهذا المطعم ، وبين حينٍ وحين ، وفي النهر ، تنطلق صفارة ، إذ يتوجه مركب نحو البحر) . إذا قدّم لي تاجر متجول شمّة سعوط في قطار فإني أقبلها . إني أحب ذلك الجانب من الأشياء

twitter @baghdad_library

الذي هو وفير ، عديم الشكل ، دافيء ، وغير ذكي بإفراط ، لكنه سهل يسير إلى أقصى حد وفظٌ نوعاً ما ؛ كلام الرجال في النوادي والحانات ، كلام عمال المناجم وهم شبه عراة - أولئك الصرحاء ، غير المدّعين أبداً ، وبلا هدف لديهم سوى العشاء ، والحب ، والمال ومسايرة الناس على نحو مقبولٍ ؛ ومن هو بدون آمال عظيمة ، أو مثل عليا ، أو أي شيء من هذا الطراز ؛ ما هو غير ادعائي سوى جعل ذلك حرفة حسنة على نحو مقبول . إني أحب كل ذلك . وهكذا التحقت بهم ، حين لطّخ نيفيل ، أو ، كما أوافق كل الموافقة متسامياً ، حين استدار لويس على كعبه .

«وهكذا فإن حزام الشمع في خصري قد ذاب ، ليس بالتساوي بأية صورة من الصور ولا بانتظام ، بل على خصلٍ كبيرة ، فهنا تذوب طرة ، وهناك تذوب أخرى . الآن ومن خلال هذه الشفافية فقد أضحت مرئيةً تلك المراعي العجيبة وهي في الابتداء بغاية ابيضاض ضوء القمر ، شديدة الالتماع ، حيث لم تَخْطُ قدم ؛ مروج من الورود والزعفران ، من الصخر والأفاعي أيضاً ؛ من المبقّع والداكن ؛ من المحرج والمُلزم والزالّ . المرء يقفز من سريره ، يفتح النافذة بعنف ؛ فبأي أزّة تقلع الطيور! أنت تعرف ذلك الدفق الباغت من الأجنحة ، ذلك التعجّب والترنم والبلبلة ؛ الهياج والثرثرة في الأصوات ؛ وكل القطرات تتلألأ ، ترتعش ، كما لو أن الجنينة زخرفٌ مشظّى ، كل القطرات مختفية ، مومضة ؛ لم تتشكل بعد بكلٍّ واحد ، وطيرٌ يغني قريباً من النافذة . إني سمعت تلك الأغاريد ؛ تبعت تلك السرابات . إني رأيت كثيراتٍ من ذوات أسماء جوان ودوروثي ومريام ، نسيت أسماءهن ، وهن مارّاتٍ في الطرقات ، يتوقفن عند ذروة الجسور لينظرن إلى النهر . ومن بينهن ينبعث شكلٌ مميَّزٌ أو اثنين ، طيورٌ ممن غنّت بذاتية الشباب المتفجرة عند النافذة ؛ وكسّرت حلزوناتها على أحجار ، وغمست مناقيرها في مادة لزجة ، دبقة ؛ طيور صلبة ، شرهة ،

عنودة ؛ جيني ، سوزان ، رودا . لقد تثقفن في معاهد الساحل الشرقي أو الساحل الجنوبي . لقد أطلن جدائن خلفية ذيلية الشكل واكتسبن طلعة المهرات الجافلات ، والتي هي علامة البلوغ .

«جيني كانت المهرة الأولى التي جاءت تضلع إلى البوابة لتأكل السكر . إنها نهشته من راحة كف المرء بكل خدق ، لكنّ آذانها كانت راجعة إلى الخلف كما لو أنها قد تعض . رودا كانت متوحشة - رودا لا يستطيع المرء قط اقتناصها . كانت هالعة وغير بارعة معاً . إنها كانت سوزان التي أضحت أولاهن امرأة التمام ، إنثوية صرف . إنها كانت هي التي أسقطت على وجهي تلك الدموع الحارقة التي هي فظيعة وجميلة ؛ كلا الشيئين معاً ، وليس أياً منهما في ذات الوقت . إنها ولدت لتكون معبودة الشعراء ، مذ أن الشعراء يتطلبون الأمان ؛ يتطلبون أحداً جالساً يخيّط ، أحداً يقول : (إني أكره ، إني أحب) ، أحداً هو لا بالمرتاح البال ولا بالوافر الأموال ، بل ذا سمةٍ على منوال الجمال الرفيع إنما غير النزوع للتوكيد والخاص بالأسلوب الصافي الذي يعجب به على وجه الخصوص أولئك الذين يكتبون شعراً . إن والدها يتنقل من غرفة إلى غرفة ماشياً في ممرات حجرية الأرضية برداء نومه المهفهف وخفيّه البالين . وفي الليالي الساكنة يسقط جدار من ماء بهديرٍ على بعد ميل . والكلب العتيق لا يكاد يرفع نفسه ليبلغ مقعده . وثمة خادمة غريبة يمكن سماعها تضحك في أعلى الدار إذ هي تدير عجلة ماكنة الخياطة ، تديرها وتديرها .

«إني لحظتُ ذلك حتى إبّان عذابي حين صرخت سوزان ، وهي تلوي منديلها ، تقول باكية : (إني أحب ؛ إني أكره) . ولحظتُ : (أن خادمة تافهة ضحكت في الطابق العلوي) ، وأن ذلك الجزء الصغير من المسرحة يبين مدى الانتقاص في اندماجنا بتجاربنا الخاصة . إنه على تخوم كل عذاب يجلس زميلٌ رقيب يؤشر ؛ والذي يهمس كما همس لي صباح ذلك

twitter @baghdad_library

الصيف في المنزل حيث يصل القمح حتى النافذة : (الصفصافة تنمو على التربة المعشبة بجنب النهر . البستانيون يكنسون بمكانس عظيمة والسيدة جالسة تكتب) . هكذا وجّهني إلى ذاك الذي هو وراء وخارج معضلتنا المحيّرة ؛ إلى ذاك الذي هو رمزي ، وبذا فلعله دائم ، إن كان ثمة دوام في نومنا ، في أكلنا ، في تنفسنا ، وفي حياتنا الحيوانية للغاية ، الروحية والعاصفة للغاية .

«شجرة الصفصاف تنمو بجنب النهر . إني جلست على التربة المعشبة الناعمة مع نيفيل ، مع لارپنت ، مع بيكر ، رومزي ، هيوز ، بيرسيفال وجيني . ومن خلال أرياشها المرقطة بسنابل صغيرة منتفضة القوام من الخضرة في الربيع ، من البرتقال في الخريف ، رأيت زوارق ؛ نباتات ؛ نسوة باليات ، مسرعات ، إني دفنت مطفئاً ، ثقاباً إثر ثقاب في التربة المعشبة على عمدٍ لصنع هذه المرحلة أو تلك من مراحل مجرى الفهم (قد تكون فلسفة ؛ علم ؛ قد تكون نفسي) في حين أن حافة ذكائي ، وهي تعوم غير ذات ارتباط ، تقنص تلك الجيشانات النائية التي يستدرجها العقل بعد حين إليه فيعمل عليها عمله ؛ رنين الأجراس ؛ تمتمات عامة ؛ أشخاص يختفون ؛ فتاة واحدة على دراجة هوائية والتي ، إذ هي راكبة ، تبدو وكأنها تزيح طرفاً من ستارة تخفي الفوضى الحاشدة التي لا تبين في الحياة والتي تجيش خلف أطياف أصدقائي وشجرة الصفصاف .

«الشجرة وحدها قاومت ذوباننا الأزلي . ذلك أنني تغيّرت وتغيّرت ؛ كنت هاملت ، كنت شيلي ، كنت البطل الذي نسيت اسمه الآن في رواية لدوستيوفسكي ، كنت لفصل دراسي بأسره نابليون ، الأمر الذي لا يصدقه العقل ؛ لكني كنت بايرون بالأساس . ولأسابيع عديدة متواصلة كان دوري أن أدخل بخطاي الغرف وأقذف بالقفازات والمعطف على ظهور الكراسي ، عابساً بعض الشيء . كنت دائماً أروم رف الكتب من أجل

رشفة أخرى من الشيء المحدد المقدس . لذلك ، أتحت لكتيبة عباراتي الذريعة أن تتطاير فوق أحدٍ غير مناسب أبداً - على فتاة ، هي مرة رهينة الزواج ؛ مرة دفينة التراب ؛ إن كل كتاب ، كل مقعد نافذة ، تنتثر فيه صفحات من رسائلي غير الكاملة إلى المرأة التي جعلت مني بايرون . ذلك أن من الصعب إكمال رسالة بأسلوب شخص آخر . وصلتُ منزلها أموج بالهياج ؛ تبادلنا الهدايا الرمزية للذكرى لكنني لم أتزوجها ، لكوني بلا ريب غير ناضج لذلك التوتر الشديد .

«هنا مرة أخرى يجب أن تكون ثمة موسيقى . ليست تلك الموسيقى الوحشية من أغاني الصيد ، موسيقى بيرسيفال ؛ بل أغنية أليمة ، من الحنجرة ، من الأحشاء ، متصاعدة كذلك أشبه بالقبّرة ، مجلجلة ، لتحل محل تلك النصوص المسترخية ، السخيفة - ويا لها من متروّية للغاية! يا لها من معقولة للغاية! - التي تحاول أن تصف اللحظة المارقة لحب أول . إن رقاً أرجوانياً قد دُسَّ فوق النهار . أنظر إلى غرفة قبل أن تأتي هي . أنظر إلى الأبرياء في الخارج يمضون في سبيلهم . إنهم لا يبصرون ولا يسمعون ؛ مع هذا فإنهم يمضون مستمرين . إن المرء وهو يُحرك نفسه في هذا المناخ اللماع وإن كان صمغياً فإنه يكون ملماً كل الإلمام بكل حركة - إن شيئاً ما يلتصق بيد المرء ، حتى لو تناول جريدة . ثم هناك كونك مستلب القوة - مجروراً جراً ، مغزولاً كبيت العنكبوت ومبروماً من العذاب حول شوكة . ثم قصف الرعد من اللامبالاة التامة ؛ الضياء يُمحى ؛ ثم عودة الجذل غير المسؤول الذي لا تحده حدود ؛ إن حقولاً معينة تبدو وهي تتقد بالاخضرار إلى الأبد ؛ ومنظر الطبيعة الطاهرة تبدو كما لو في ضياء الفجر الأول - بقعة واحدة من الاخضرار ، هناك في هامستد مثلاً ، وإذا بكل الوجوه منيرة ، الكل يتعاون في إصمات من الجذل الرهيف ؛ ومن ثم الحس الصوفي بالإتمام ومن ثم التخشّن المبري الشبيه بجلد كلب البحر - تلك

twitter @baghdad_library

السهام السوداء من الحواس الهائجة المرتجفة ، حينما يفوت الحبيبة القطار ، حينما لا تأتي . فإذا به يدفق وبرٌ من الشكوك القرنية ، من الفزع ، الفزع ، الفزع - لكن ما الفائدة من الاستطراد بصورة أليمة في هذه الجمل المتعاقبة حين لا يحتاج المرء مما هو متعاقب سوى نبحة أو خوار؟ وبعد سنين أن ترى امرأة كهلة في مطعم تخلع معطفها .

«لكن لنعود إلى السرد . فلنزعم ثانية أن الحياة هي جوهر صلد ، على هيئة كرة ، والتي نديرها بأصابعنا . فلنزعم أن بوسعنا أن نختلق حكاية بسيطة ومنطقية ، بحيث أنه حين نقدّم مادة واحدة -الحب مثلاً- فإننا ننتقل على شاكلة نظامية إلى الأخرى التالية . كنت أقول إن هناك شجرة صفصاف . إن نثيثها من الأغصان المتساقطة ، ولحائها المتغضن له تأثير ما هو يظل خارج أوهامنا ، لكن الشجرة لا تستطيع الإبقاء على الأوهام ، إذ هي تتغير بالأوهام في اللحظة الحاضرة ، مع هذا تبين مستقرة ، ساكنة ، وبصرامة تعوز حياتنا . من هنا التعليق الذي تبديه ؛ المستوى الذي توفره ، والسبب الذي يُسأل عنه والذي تبدو أنها تسبر غوره ، إذ نحن نفيض ونتغيّر . نيفيل ، مثلاً ، جلس معي على التربة المعشبة ، فأقول : لكن هل يمكن أن يكون أي شيء بمثل هذا الوضوح ، وأنا أتتبّع تحديقه ، خلال الأغصان ، نحو مشحوف على النهر ، وشاب يأكل الموز من كيس ورقي؟ كان المنظر مصاغاً بذلك النوع من الشدة المتوترة ومشبعاً بنوعية رؤاه بدرجة بحيث أنني لهنيهة أستطيع أن أرى المنظر كذلك ؛ المشحوف ، الموز ، الشاب ، من خلال أغصان شجرة الصفصاف . ثم تلاشى!

«جاءت رودا تتسكع بغموض . إنها ستنتفع من أي عالم بجبته المتطايرة ، أو حمار يطوي التربة المعشبة بأقدام مغلّفة ليخفيها ورآءه . أي خوف يترنح ويخفي نفسه وينفجر لهباً في أعمّاق عيونها الشهل ، عيونها الجافلة ، عيونها الحالمة؟ وعلى ما نحن عليه من قسوة وانتقام ، فإننا لسنا

بذلك الحد من السوء . إننا نتمتع بطيبتا الجوهرية بالتأكيد أو سيكون من المستحيل أن أتكلم كما أتكلم بحرية إلى شخص ما لا أكاد أعرفه - يجب أن نتوقف . إن الصفصافة كما تراها رودا تنمو على شفا صحراء قاحلة حيث لا يغرد طير . الأوراق تذبل إذ هي تنظر إليها ، تهتز من العذاب إذ هي تمر بها . قطارات الشارع والباصات تدوي بصوت أجش في الشارع ، تجري فوق صخور وتسرع وهي تزبد بعيداً . لعل عموداً واحداً ، مضاء بالشمس - يقف في صحرائها بجنب بركةٍ حيث تأتي الوحوش البرية باستراق لتشرب .

«ثم جاءت جيني ، إنها توقد نيرانها فوق الشجرة . إنها كزهرة الخشخاش المتجعدة ، محمومة ، عطشى ، مع رغبة بشرب تراب جاف . إنها ، وهي الوثابة ، النحيلة ، غير المتهورة على الإطلاق ، جاءت مهيّأة . إن لُهباً صغيرة جداً تتعرّج فوق الشقوق في الأرض اليابسة . جيني جعلت أشجار الصفصاف ترقص ، ولكن بدون وهم ؛ ذلك أنها لم تكن ترى شيئاً غير موجود . إن هذه شجرة ؛ وهناك النهر ؛ والوقت عصر ؛ وها هنا نحن ؛ أنا ببدلتي السرج ؛ وهي ترتدي الأخضر . ليس هناك ماضٍ ، ولا مستقبل ؛ محض اللحظة بحلقتها من الضياء ، وأجسادنا ؛ والقمة النهائية المحتمة ، نشوة الوجد .

«ولويس ، حين يأخذ بالجلوس على العشب ، يفرش بحذر (أنا لا أبالغ) مربعاً بمعطفه الواقي من المطر ، يجعل المرء يعترف بحضوره . كان الأمر فظيعاً . لقد كان لديّ الذكاء لإجلال استقامته ؛ بجثه بأصابع ناحلة ، ملفوفة بالخرق جراء قروح لسعات البرد ، عن ماسة ما ذات صدق لا يذوب . لقد طمرتُ علباً من أعواد الثقاب المشعولة في ثقوبٍ بالأرض المعشبة عند قدميه . إن لسانه الجهم والقارص عزّر خمولي . كانَ يفتنني بمخيلته الشحيحة . أبطاله يرتدون القبعات العالية ويتحدثون عن بيع آلات

twitter @baghdad_library

البيانو لقاء أوراق نقدية فئة العشر باونات . وفي أرجاء منظره الطبيعي يصرج قطار الشارع ؛ ينفث المصنع دخانه اللاسع . إنه يلازم الشوارع الخسيسة والمدن الرذيلة حيث تستلقي نسوة مخمورات ، عاريات ، على لُحُفٍ في يوم عيد الميلاد . إن كلماته وهي تسقط من برج الرماية تضرب الماء فإذا هو يمور . إنه عثر على كلمة واحدة ، واحدة فقط ، للقمر . ثم هو ينهض ويذهب ؛ كلنا ننهض ؛ كلنا نذهب . لكني أنا ، وقد توقفت ، نظرت إلى الشجرة ، وإذ نظرت في الخريف إلى الأغصان المتقدة والصفراء اللون ، فإن راسباً ما قد تشكّل ؛ أنا تشكّلت ؛ قطرةً سقطت ؛ أنا سقطتُ – أي ، إني من تجربة ما مكتملة قد انبعثتُ .

«أنا قمت ومشيت ذاهباً – أنا ، أنا ، أنا ؛ ليس بايرون ، شيلي ، دوستيوفسكي ، بل أنا ، بيرنارد . حتى أني ردّدت اسمي مرة أو مرتين . مضيت ، أهز عصاي ، داخلاً في دكان واشتريت – لا لأني أحب الموسيقى – صورة لبيتهوفن بإطار فضي . لا لأني أحب الموسيقى ، بل لأن الحياة بأسرها ، بجهابذتها ، بمغامريها ، ظهروا آنئذٍ في صفوف طويلة من الكائنات الإنسانية الرائعة ورائي ؛ وأنا كنت الوريث ؛ أنا ، المواصل المكمّل ؛ أنا ، الشخص الذي عُيّن ، على نحو وقوع المعجزات ، للاستمرار بحمل الحياة قدماً . وهكذا ، فإني ، هازاً عصاي ، وعيوني مغرورقة لا بالكبرياء بل بالأحرى بالتواضع ، قد مشيت الشارع . إن أزيز الأجنحة الأول قد مضى ، والترنيمة ، والتعجب ؛ والآن يدخل المرء ؛ المرء يلج البيت ، البيت الجاف ، المتعنت ، غير المسكون ، المكان بكل تقاليده ، بكل أشيائه ، بكل تراكماته من سقط المتاع والنفائس معروضة على الموائد . زرت خياط الأسرة ، فتذكّر عمي . الناس حضرت بكميات كبيرة ، ليست مصوغة صوغاً ، كالوجوه الأولى (نيفيل ، لويس ، جيني ، سوزان ، رودا) ، بل مشوّشة الخلط ، غير ذات قسمات ، أو أنهم يغيّرون قسماتهم بدرجة

من السرعة بحيث يبدون كما لو أنهم ليس لديهم أي قسمات . إني ، وأنا أحمرّ خجلاً وإن يحدوني الازدراء ، تلقيت الضربة بالحال الأقدم للتفجّر الفج والتشاؤم الخام ؛ تلقيت الإثارت المختلطة ؛ ما في الحياة من جميع النواحي من تعقّد وتنغيص وعدم استعداد للصدمات بصورة مطبقة ، في جميع الأمكنة وفي ذات الوقت . يا له من شيء خانق للصدر! يا له من مَهين ألا تكون واثقاً قط مما تقوله في المرة التالية ، وتلكم الجمل الأليمة ، تسطع كصحارى جافة ، وكل حصوة من الحصى ظاهرة للعيان ؛ ومن ثم تقول ما كان لا ينبغي أن يُقال ، ومن ثم تكون على علم بوجود وتدٍ من الإخلاص غير القابل للإفساد والذي سيبادله المرء بترحاب لقاء نثرة من الدراهم الصقيلة ، لكنه لا يستطيع ، هناك في الحفلة ، حيث جلست جيني بهدوء على رسلها ، مشعة على مقعد مذهّب .

«ثم تقول سيدة ما بإيماءة ذات وزن : (تعال معي) . إنها تقود المرء إلى خميلة خاصة وتدخله في كَرم ألفتها الحميمة . الأسماء الأخيرة تتبدل إلى الأسماء الأولى ؛ والأسماء الأولى إلى الأسماء المختصرة للتحبيب . ما الذي يجب فعله بشأن الهند أو إرلندة أو مراكش؟ الذوات القدامى يجيبون على السؤال وهم وقوف بنياشينهم تحت الثريات . ويجد المرء نفسه مزوداً بصورة عجيبة بالمعلومات . وفي الخارج تدوّي القوى التي لا يمكن تبيانها عن بعضها ؛ أما في الداخل فنحن في غاية ما تكون الخصوصية الشخصية ، على غاية ما تكون الصراحة المفتوحة ، ونتمتع حقاً بحسٍ ينبيء أن هنا ، في هذه الحجرة الصغيرة ، نصنع بأنفسنا اليوم الذي هو كائناً ما يكون من الأسبوع . سيّان الجمعة أم السبت . إن صَدفةً تتشكل فوق الروح الرخوة ، لؤلؤية ، لامعة ، وعليها تدق مناقيرها الإثارات عبثاً . إنها تشكّلت فوقي قبل الأكثرية . وسرعان ما صرت أستطيع حفر عرموطي في حين أن الآخرين قد انتهوا من أكل الحلوى . صار بوسعي أن أنهي

twitter @baghdad_library

جملتي في إصمات من السكوت التام . وإنه لفي ذلك الموسم أيضاً أن أضحى للكمال غواية . فالمرء يظن أن بوسعه تعلم الإسبانية بربط خيط في الإبهام الأيمن والاستيقاظ مبكراً . والمرء يملأ الخانات الصغيرة من دفتر مواعيده بعشاء في الثامنة ؛ غداء في الواحدة والنصف . المرء لديه من القمصان والجوارب والأربطة مما هو ملقى على سريره .

«لكنها غلطةٌ هذه الدقة المفرطة ، هذا التقدم النظامي والعسكري ؛ شيء مريح ، كذبة . هناك دائماً في أعماقها السفلي ، حتى حين نصل في الوقت المعين بالضبط بصدارينا البيض ومجاملاتنا المؤدبة ، تيار دافق من الأحلام المقطعة ، وأناشيد الروضة ، وصرخات الشارع ، والجمل غير الكاملة ، والمشاهد - أشجار الدردار ، أشجار الصفصاف ، بستانيون يكنسون ، نساء يكتبن - مما يطفو ويغرق حتى ونحن نُجلس سيدة إلى مائدة العشاء . وبينما يعدّل المرء الشوكة على وجه الدقة فوق غطاء المائدة ، فإن ألف وجه يُمحى . ما من شيء يمكن أن يغرفه المرء بملعقة ؛ ما من شيء يمكن ان يدعوه المرء حدثاً . مع هذا فإنه جيّاش كذلك وعميق ، هذا التيار . وإذ أنا مستغرَق فيه فإني أتوقف ما بين لقمة وأخرى ، وأنظر بإمعان في مزهرية ، لعلها ربما ذات زهرة حمراء واحدة ، بينما يدهمني سبب ، كشفٌ مفاجئ . أو أقول ، وأنا أسير في شارع الستراند : (تلك هي العبارة التي أريد) ، إذ تظهر عنقاء طير جميلة ، خرافية ، أو سمكة ، أو سحابة ذات حواف متقدة ، فتطفو لتحيط ، للمرة الأولى والأخيرة وإلى الأبد ، بفكرة ما تلازمني ملازمة الملاحقة ، وبعدئذٍ أمضي مهرولاً وأنا أجرد بسرور متجددٍ الأربطة والأشياء في واجهات المخازن .

«إن البلّورة ، كرية الحياة كما يدعوها المرء ، هي أبعد ما تكون عن الصلابة والبرودة عند اللمس ، وذات جدران من أرق الهواء . إذا ما ضغطتها فإنها ستنفجر جميعاً . إن أيما جملةٍ استخلصها كاملة وبالتمام

من هذا المرجل ما هي إلا خيط من ست سمكات صغار أتاحت لأنفسها أن تُقتنص بينما ألف ألف سمكة أخرى تثب وتئز ، فتجعل المرجل يبقبق كالفضة تغلي ، فتنزلق من بين أصابعي ، الوجوه تعاود ، وجوه ووجوه – إنها تطبع جمالها على جدران فقاعتي – نيفيل ، سوزان ، لويس ، جيني ، رودا ، وألفٌ آخرون . وإنه ليستحيل صفّها بصف منتظم على الوجه الصحيح ؛ عزل واحدٍ على نحو منفصل ، أو إعطاء التاثير الصادر عن المجموع الكلي – كالموسيقى مرة أخرى . يا لها من سمفونية تتنامى عندئذٍ بما فيها من توافق وما فيها من تضاد ، بما فيها من أنغام في الأعلى وألحانٍ في الأسفل! إن كل واحد عزف نغمته ، كمانه ، نايهً ، بوقه ، طبله ، أو كائناً ما قد تكون الآلة . فمع نيفيل : (دعونا نناقش هملت) . مع لويس ، العلم . مع جيني الحب . وبغتةً بعدئذٍ ، وفي لحظة من لحظات السخط ، إذا بي أغادر إلى كمبرلاند مع رجل هادىء لأسبوع كامل في نزل ، والمطر يجري على زجاج النوافذ وليس سوى لحم الغنم ولحم الغنم ومرة أخرى لحم الغنم للعشاء . مع هذا فذلك الأسبوع يبقى حجارة صلدة في مصطخب . الإثارة غير المسجلة . وإنه لعندئذٍ أن لعبنا الدومينو ؛ عندئذٍ اختصمنا حول لحم الغنم غير الهش . عندئذٍ مشينا فوق الهضبة . والبنت الصغيرة ، وهي تخالس النظر حوالي البابِ ، أعطتني تلك الرسالة ، مكتوبةً على ورق أزرق ، التي فيها أعلمتني تلك الفتاة التي كانت قد جعلت مني بايرونً أنها ستتزوج ملاّكاً مزارعاً . رجل على حذائه واقيات ، رجل يحمل سوطاً ، رجل يلقي خطابات عن الثيران السمينة على العشاء، أطلقت عجبي ساخراً ونظرت إلى السحب الجارية المتلاحقة ، وشعرت بخيبتي ؛ برغبتي أن أكون حراً ؛ أن أفر ؛ أن ألتزم ؛ أن أضع هدفاً ؛ أن أسمّر ؛ أن أكون لويس ؛ أن أكون أنا نفسي ؛ فسرت مبتعداً بمعطفي الواقي من المطر لوحدي ، وشعرت بالتذمر تحت الروابي الأزلية وليس

twitter @baghdad_library

متسامياً على الإطلاق ؛ ورجعت ووضعت اللوم على اللحم ورزمت حوائجي وهكذا عدت أدراجي ثانية إلى المصطخب ؛ إلى العذاب .

«مع ذلك ، فالحياة لطيفة ، الحياة محتملة . الثلاثاء يعقب الإثنين ، ثم يأتي الأربعاء . العقل ينشيء حلقات ؛ الهوية تمسي متينة ؛ الألم يمتصه النمو . ومع الفتح والغلق ، الغلق والفتح ، مع الطنين المتزايد والصلابة ، فإن عجالة وحمّى الشباب يُستدرجان للخدمة إلى أن يبدو الكيان بأسره وكأنه يتسع باطناً وظاهراً كالرفّاص الرئيسي للساعة . يا لها السرعة التي يجري فيها التيار من كانون الثاني إلى كانون الأول! إننا ننجرف بدفق الأشياء التي تصبح مألوفة إلى درجة بحيث أنها لا تلقي أي ظل . إننا نطفو ، إننا نطفو . . . .

«على أنه ، ومذ أن على المرء أن يقفز (ليحكي لك هذه الحكاية) ، فإني أقفز ، هنا ، في هذه النقطة ، وأحط الآن على شيءٍ عادي تماماً – فليكن الوتد واللاقطة للموقد ، كما رأيتهما أحياناً بعدئذ ، بعد أن تزوجت تلك السيدة التي جعلت مني بايرون ، وعلى ضوء واحدةٍ سأسميها الآنسة جونز الثالثة . إنها الفتاة التي ترتدي فستاناً معيناً متوقعة إمرئاً على العشاء ، التي تقطف وردة معينة ، التي تجعل المرء يشعر بأنه : (ثابت التوازن ، ثابت التوازن ، هذه مسلة لها بعض الأهمية) ، إذ يحلق المرء ذقنه . عندئذ يسأل المرء : (كيف هي تتصرف في سلوكها مع الأطفال؟) والمرء يلاحظ أنها مرتبكة قليلاً في حملها لمظلة المطر ؛ لكنها أظهرت اكتراثاً حين وقع حيوان الخلد في المصيدة ؛ وأخيراً ، إنها لن تجعل من قرص الخبز عند الفطور (كنت أفكر بوجبات الإفطار المتطاولة لحد الضجر في الحياة الزوجية وأنا أحلق ذقني) مبتذلاً كلياً – لن يندهش المرء وهو يجلس قبالة هذه الفتاة أن يرى ذبابة اليعسوب تحط على قرص الخبز عند الفطور . كذلك فإنها قد ألهمتني الرغبة بأن ارتقى في الدنيا ؛ كذلك فإنها

جعلتني أنظر بفضول إلى وجوه الأطفال المولودين حديثاً المنفِّرة حتى تلك اللحظة . كما أن الخفق الضاري المصغّر -تكْ- تاك ، تِكْ - تاك- لنبض عقل المرء إتخذ إيقاعاً أكثر جلالاً . لقد جبتُ شارع أوكسفورد . قلت ، إننا نحن المواصلون ، إننا نحن الوارثون ، مفكراً بأولادي وبناتي ؛ فإذا كان الشعور مفخماً إلى درجة بحيث يكون شعوراً أخرق فيخفيه المرء بالقفز إلى باص أو بشراء جريدة المساء ، فإنه لا يزال عنصراً عجيباً في الحماسة التي بها يربط المرء قيطان حذائه ، التي بها يخاطب المرء أصدقاء قدامى يتولون حرفاً مختلفة . لويس ، قاطن الغرفة العليا ؛ رودا ، حورية النافورة بليلة على الدوام ؛ كلاهما ناقض ما كان بالنسبة لي آنئذٍ مؤكداً للغاية ؛ كلاهما أظهر الجانب الآخر لما بدا لي أنه في غاية الوضوح (أن نحن نتزوج ، أن نحن نتدجّن) ؛ مما يجعلني أحبهما ، أشفق عليهما ، وأحسدهما كذلك بعمق لحظهما المختلف .

«كان لديّ مرةً كاتب سيرة ، مات منذ أمدٍ طويل ، لكنه لو كان لم يزل يتتبع خطواتي بشدته القديمة المتملقة المثيرة للشعور بالتكبر فإنه كان سيقول هنا : (في حوالي هذا الوقت تزوج بيرنارد واشترى بيتاً . . . . وقد لاحظ أصدقاؤه فيه ميلاً متنامياً نحو التدجّن . . . . إن ولادة الأطفال جعلت من المرغوب فيه جداً أن يرفع من دخله) . ذلك هو أسلوب كتابة السيرة ، وإنها لتعمل على أن تربط معاً جذاذات ممزقة من الأشياء ، أشياء ذات حوافٍ خام . على أية حال ، فالمرء لا يجد عيباً في أسلوب كتابة السيرة إذا كان يبدأ رسائله بعبارة (سيدي العزيز) وينهيها بعبارة (المخلص لكم) ؛ إن المرء لا يستطيع الإزراء بهذه العبارات المرصوفة كالطرق الرومانية عبر العصف الموّار لحياتنا ، مذ أنهم يلزموننا بالسير بخطى متسقة كالناس المتمدنين ذوي الخطو الوئيد والموزون لأفراد الشرطة وإن كان المرء قد يدندن هامساً بأي هراء كان في الوقت ذاته . (إنه قد حقق بعض النجاح في

twitter @baghdad_library

مهته . . . وقد ورث مبلغاً صغيراً من المال من عمه) - هذه هي الكيفية التي بها يواصل كاتب السيرة كتابته ، فإن كان المرء يرتدي سراويل ويرفعها بحمّالات ، فإن عليه أن يقول ذلك ، وإن كان من المغري بين حين وحين الذهاب لقطف التوت الأسود ، من المغري لعب اللعبة بكل هذه العبارات . لكن على المرء أن يقول ذلك .

«أعني أني أمسيت رجلاً من نوع معين ، أحزّ دربي عبر الحياة كما يطأ المرء درباً عبر الحقول . وأمسى حذائي بالياً قليلاً من الجهة اليسرى . وحينما أدخل فإنه تحدث إعادة ترتيب معينة ، (هذا بيرنارد!) كم تختلف الطريقة التي بها يقول ذلك مختلف الناس . يوجد العديد من الغرف - العديد من بيرنارد . يوجد منه الفنّان ، لكنه ضعيف ؛ القوي ، لكنه متكبّر ؛ اللامع ، لكنه عنيد ؛ الشخص الطيب جداً ، لكنه بلا ريب ، ثقيل الدم بشكل فظيع ؛ المتعاطف لكنه بارد ؛ الرث اللباس ، لكنه - أدخل الغرفة التالية - متأنق بإفراط ، خبير بمظاهر الدنيا ، وحسن الهندام أكثر مما ينبغي . أما ماكنته أنا لنفسي فمختلف ؛ لم يكن أيّ شيء من هذه . إني أميل لتحديد خلاصة نفسي بكل صرامة أمام قرص الخبز هناك على الفطور مع زوجتي ، التي هي الآن زوجتي كلياً وليست على الإطلاق الفتاة التي تضع حين كانت تأمل بلقائي وردة معينة ، ولكونها كذلك فإنها تعطيني الشعور بالوجود إبّان فقدان الوعي كذلك الذي لا بد تتمتع به ضفدعة الشجر وهي متقرفصة على الظل الخاص بورقة خضراء . أنا أقول : (ناوليني) . . . هي قد تجيب : (حليب) ، أو : (ماري قادمة) . . - كلمات بسيطة بالنسبة لأولئك الذين ورثوا غنائم كل العصور لكنها ليست كلمات كما كانت تقال آنئذ ، يوماً بعد يوم ، في أعلى مدّ الحياة ، حينما يشعر المرء على الفطور أنه مكتملٌ ، كليُّ التمام . العضلات ، الأعصاب ، الأمعاء ، الأوعية الدموية ، وكل ما يكوّن السلك والرفّاص لكياننا ،

والهمهمة غير الواعية للماكنة ، فضلاً عن مروق وخفق اللسان ، تعمل بصورة بديعة . فتح وغلق ؛ غلق وفتح ؛ أكل وشرب ؛ وأحياناً كلام – والآلية بأسرها تبدو وكأنها تتسع ، وتتقلص ، كالرفاص الرئيسي للساعة . خبز محمص وزبدة ، قهوة وشرائح لحم خنزير ، جريدة التايمس ورسائل – وفجأة رنّ التلفون رنيناً عاجلاً فنهضت متروياً وذهبت إلى التلفون . تناولت الفم الأسود . ولحظتُ اليسر الذي كيّف عقلي نفسه لامتصاص وهضم الرسالة – لعلها (فالمرء يتخيّل مثل هذه التخيّلات) أن أتولى إمرة الإمبراطورية البريطانية ؛ ولاحظت رباطة جأشي ؛ وانتبهت للحيوية الرائعة التي بها انتشرت ذرات اهتمامي وتجمهرت حول تقطع الكلام ، وامتصت الرسالة وهضمتها ، وكيّفت نفسها لحالة جديدة ، فخلقت ، بحلول الوقت الذي أغلقتُ فيه السماعة ، عالماً أغنى ، وأقوى ، وأكثر تعقيداً والذي فيه دُعيت لكي ألعب دوري ولا أشك مطلقاً أنني قادر على ذلك . وما أن أنزلت قبعتي على رأسي حتى كنت أخطو في عالم يقطنه عدد ذريع من الرجال الذين هم كذلك قد أنزلوا قبعاتهم على رؤوسهم ، وإذ نحن نتدافع بالمناكب ونتقابل في قطارات فوق الأرض وقطارات تحت الأرض فإننا نتبادل الغمز العارف الذي يغمزه المتنافسون والرفقاء يشد أزرنا ألف فخٍ وحيلة لتحقيق نفس الغرض – كسب معاشنا .

«الحياة لطيفة ، الحياة حسنة ، إن محض مجرى الحياة هو شيءٌ مُرضٍ . خذ رجلاً عادياً بصحة جيدة . إنه يحب الأكل والنوم . يحب استنشاق الهواء النقي والسير بخطى نشيطة في شارع ستراند . أو خذ الريف حيث هناك ديك يصيح على البوابة ؛ مهرة تخب حول الحقل . وهناك شيء ما للقيام به دائماً في المرة التالية . الثلاثاء يعقب الاثنين ؛ الأربعاء يعقب الثلاثاء . وكل يوم منها ينشر نفس الترقرق بطيب العيش ، ويكرر نفس إنحناءة الإيقاع ؛ يغطي الرمل الطريّ بالبرد أو يجزر على كسلٍ

twitter @baghdad_library

بعض الشيء خارجه . وهكذا فالكيان ينمّي حلقات ؛الهوية تضحى متينة الصلابة . وما كان شرساً وماكراً ، ما كان أشبه بقبضة قمح تُرمى في الهواء فتتطاير هنا وهناك بهبّات طائشة من ريح الحياة تضرب من كل جانب هو الآن منهجي ونظامي ويُرمى بقصد - هكذا يبدو .

«يا لله كم هي لطيفة الحياة! يا لله ، كم هي حسنة! إني ساقول ، كم هي محتملة حياة أصحاب الدكاكين الصغار ، إذ يمر القطار بالضواحي فيرى المرء الأضواء في نوافذ غرف النوم . قلت ، إنهم نشطون ، ذوو حيوية كحشدٍ من النمل ، إذ وقفت في النافذة ورقبت العمال ، والأكياس بأيديهم ، يمضون زرافات إلى المدينة . وقلت في نفسي ، يا لشدة أطرافهم ، يا لحيويتها وعنفها ، إذ رأيت رجالاً بسراويل قصار بيض يطاردون وراء كرة القدم على بقعة من الجليد في كانون الثاني . والآن ولكوني متذمر من أمر ما بسيط - قد يكون اللحم - فإنه يبدو من الترف أن نُقلق برجرجةٍ بسيطةٍ الاستقرار الذريع لحياتنا الزوجية ، ذلك الاستقرار الذي ترفع رعشته من جذله ، ذلك أن طفلنا هو على وشك الولادة . لقد تكلمت بحدة على العشاء . تكلمت بشكل غير معقول كما لو أن بوسعي ، وأنا مليونير ، أن أبذّر ربع دينار ؛ أو كما لو أنني أعثر بمقعد عن قصد وأنا مصلح أبراج الكنائس أتسلقها بمنتهى الكمال . وإذ صعدنا لنأوى إلى الفراش فقد حسمنا نزاعنا على السلم ، وإذ وقفت عند النافذة أنظر إلى سماء صافية كباطن حجر أزرق ، قلت : (حمداً لله ، إننا لسنا بحاجة لإقحام هذا النثر في الشعر ، إن اللغة البسيطة تكفي) . ذلك أن فضاء المنظر وصفاءه يبدو وكأنه لا يضع أي عائق على الإطلاق ، بل يتيح لحياتنا أن تنتشر بعيداً وبعيداً فيما وراء سطوح المنازل المخشوشنة والمداخن إلى الحافة الخالية من الشوائب .

«في هذه الساحة سقطت قارعة الموت - موت بيرسيفال . قلت :

(أيهما السعادة (كان طفلنا قد وُلد) وايهما الألم؟) وأنا أشير إلى جنبيْ بدني ، نازلاً السلم ، وأنا أدلي بقول جثماني قح . كذلك قمت بملاحظة حالة البيت ؛ الستارة متطايرة ؛ الطاهية تغني ؛ دولاب الملابس يبين من خلال الباب نصف المفتوح . قلت : (إعطه (أي نفسي) لحظة أخرى من راحة البال) وأنا أنزل السلم . (الآن وفي غرفة الجلوس هذه سيشقى . ما من مفر) . ففي الألم تُفتقد الكلمات . يجب أن تكون هناك صرخات ، وصدوع ، وشقوق ، وابيضاض يمر فوق أغطية المخمل الخضراء ، وإعاقة للحس بالزمن وبالمكان ؛ كذلك للحس بالثبات المفرط للأشياء العابرة ؛ وللأصوات نائيةً جداً ثم قريبة جداً ؛ للجسد وقد انفلع والدم يدفق ، ومفصل لُويَ بغتةً - وتحت كل ذلك يظهر شيء هام جداً ، ومع هذا بعيد ، لمجرد أن يمسك في العزلة . وهكذا خرجت . رأيت الصبح الأول الذي لن يراه قط - العصافير كاللُعَب تُدلّى من طفل بخيط . يا عجباً - أن ترى الأشياء بدون آصرة ، من الخارج ، وأن تدرك جمالها بذاته! ومن ثم الإحساس بأن عبئاً قد أزيح ؛ التصنع وتكلف الحقيقة وعدم الواقعية قد انقضت ، وحل التخفف بنوع من الشفافية ، فتجعل المرء غير مرئي والأشياء تُدرك إدركاً إذ يمشيِ المرء - يا للعجب . قلت : (والآن ماذا سيكون هناك من اكتشاف آخر؟) ولكي أمسك به شديداً تجاهلت الإعلانات عن الجرائد ودخلت متحفاً ونظرت في الصور . مريمانات وأعمدة ، أطواق وأشجار برتقال ، لمّا تزل كما في يوم الخليقة الاول ، لكنها ملّمة بالحزن ، هنالك معلقة ، فحدّقت بها . قلت : (إننا هنا معاً دون مقاطعة) . هذه الحرية ، هذه الحصانة ، بدت آنئذ بمثابة فتح ظافر ، وحرّكت بي ذلك النوع من التجلي بحيث أنني أذهب أحياناً إلى هناك ، الآن ، لأسترجع التجلّي . وبيرسيفال . لكنّ الأمر لم يدم . فالذي يعذب المرء هو النشاط الرهيب لعين العقل - كيف سقط ، كيف بدا ، إلى أين حملوه ؛

twitter @baghdad_library

رجال بمناديل الخاصرة يجرون الحبال ؛ الضمادات والطين . لم تحل اللحظة المرعبة للذاكرة ، والتي لا يُتنبأ بها ولا تنحّى جانباً - أنْ لم أذهب معه إلى هامبتون كورت . ذلك المخلب يخدش ؛ ذلك الباب يمزق ؛ إني لم أذهب . على الرغم من مدّعاه النافذ الصبر أن الأمر لا يهم ؛ لِمَ المقاطعة ، لِمَ أفساد لحظتنا من الوصال غير المنقطع؟ وكررت باكتئابٍ جهم أنني مع هذا لم أذهب ، وهكذا ، وقد طردت من الحرم من قبل هذه الشياطين الفضولية ، فإني ذهبت إلى جيني لأن لديها غرفة ؛ غرفة ذات مناضد بسيطة ، ذات مزخرفات بسيطة متناثرة على مناضد بسيطة . هنالك اعترفت وأنا أذرف الدموع - إني لم أذهب إلى هامبتون كورت . و هي ، إذ تذكرت أشياء أخرى ، تواقة بالنسبة لي لكنها معذِّبة لها ، أبانت لي كيف تذوى الحياة حين تكون هناك أشياء لا نستطيع اقتسامها بالاشتراك . وبعد حينٍ قصير ، أيضاً ، دخلت خادمة تحمل قصاصة ، وإذ استدارت هي لتجيبٍ عليها وشعرت أنا بالفضول لمعرفة ماذا كانت تكتب ولمن ، فإني رأيت الورقة الأولى تسقط على قبره . إني رأيت كلانا ندفع إلى ما وراء هذه اللحظة ، ونتركها وراءنا إلى الأبد . ومن ثم وإذ نحن نجلس جنباً إلى جنب على الأريكة تذكرنا بصورة لا مناص منها ما كان قد قاله الآخرون ؛ (إن ليلاك النهار أجمل في أيار) ، وقارنا بيرسيفال بليلاك - بيرسيفال الذي أردته أن يرخي شعره ، أن يصدم السلطات ، أن يكبر معي ؛ إنه مغطى سلفاً بصورة كلية بزهور الليلاك .

«وهكذا فإن صدق اللحظة انتهى ؛ هكذا أمسى رمزياً ، وهذا ما لا أستطيع احتماله . صحت : فلنقترف أي زندقةٍ من الضحك والانتقاد أحرى من أن نفصد هذا الغِراء الحلو الليلاكي ؛ ولنغطّه بالعبارات . فلذلك قطعت الصلة ، وجيني ، التي هي بلا مستقبل ، أو تأمل ، لكنها تحترم اللحظة بنزاهة تامة ، أمدّت جسدها بجلدة سوط خفيفة ، وجمّلت وجهها

بالمساحيق (الأمر الذي أحبها من أجله) ، ولوّحت لي إذ وقفت على عتبة الباب ، وهي تضغط يدها على شعرها حتى لا تعبث به الريح ، وهي إيماءة أحترم جيني من أجلها ، كما لو أن الإيماءة تؤكد تصميمنا - ألا ندع زهور الليلاك تنمو .

«لاحظت بصفاءٍ يخلو من الوهم التفاهة المزرية للشارع ؛ شرفاته ؛ ستائر نوافذه ؛ الملاسب الرتيبة ، الطمع والرضا الذاتي للنساء المتسوقات ؛ والشيوخ يشمّون الهواء والملافع حول أعناقهم ؛ حذر الناس عند العبور ؛ التصميم العام على الاستمرار في العيش ، في حين قلت ، يا أغبياء يا ساذجين وأنتم كذلك ، إن أيّ لوحٍ قد يطير من سطح ، أي سيارة قد تنزلق ، ذلك أنه لا يوجد أي سببٍ حين يترنح السكران والعصا بيده - هذا كل ما هنالك . إني كنت كشخصٍ أدخل إلى كواليس المسرح الخلفية : كشخصٍ أُري كيف تُنتج التأثيراتٍ التمثيلية . على أني رجعت إلى بيتي الأنيق فحذرتني خادمة الصالون أن أتسلل صاعداً إلى الطابق الأعلى بجواربي . الطفل كان نائماً . دخلت إلى غرفتي .

«أما من سيفٍ ، أما من شيء به أقوّض هذه الجدران ، هذه الحماية ، هذا الإنجاب للأطفال والعيش خلف الستائر ، والصيرورة يومياً أكثر انغماساً والتزاماً ، مع كتب وتصاوير؟ الأفضل إحراق حياة المرء كلويس ، يرجو الكمال ؛ أو كرودا تتركنا ، مارقة من جنبنا إلى الصحراء ؛ أو اختيار واحداً من ملايين وواحداً فقط كينفيل ؛ الأفضل أن تكون مثل سوزان فتحب وتكره حرارة الشمس أو العشب الذي قضمه الانجماد ؛ أو تكون مثل جيني ، صادقة ، لحيوان . كلهم لديهم نشوتهم ؛ شعورهم المشترك مع الموت ؛ شيئاً شدّ أزرهم . لذا زرت كل واحد من أصدقائي بالتتالي ، محاولاً ، بأصابع تتلمس بارتباك ، أن أحلحل فاتحاً صناديق جواهرهم المغلقة . ذهبت من واحدٍ لآخر حاملاً حزني -لا ، ليس حزني بل الطبيعة

twitter @baghdad_library

التي تستعصي على الفهم لحياتنا هذه - من أجل تفحّصهم . بعض الناس يذهبون للقساوسة ؛ بعضهم يذهبون للشعر ؛ أنا أذهب إلى أصدقائي ، أنا أذهب إلى قلبي ، أنا أذهب لأبتغي بين العبارات والشظايا شيئاً غير مكسور - أن الذي لا أجد جمالاً كافياً في قمر أو شجرة ؛ الذي تكون بالنسبة له لمسة شخص لآخر هي كل شيء ، مع هذا الذي لا يستطيع أن يتفهّم حتى هذا ، أنا الناقص للغاية ، الضعيف للغاية ، الوحيد للغاية بشكل لا يوصف . هنالك جلست .

«هل يجب أن تكون هذه هي نهاية الحكاية؟ نوع من نهدة؟ الترجرج الأخير للموجة؟ خرير ماء في ميزاب ما حيث ما أن يبقبق حتى يتلاشى؟ فلألمس المائدة -هكذا- وبذا أستعيد إحساسي باللحظة . منضدة جانبية عليها طاقم المالح ؛ سلة مليئة بالصحون ؛ صحن موز - هذه مشاهد مريحة . لكن إن لم يكن هناك ثمة حكايات ، فأي نهاية يمكن أن تكون ، أو أي بداية؟ الحياة ليست ذات استعداد ربما لتلقي العلاج الذي نقدمه لها حين نحاول ترويجها . وإذ أسهر لساعة متأخرة في الليل يبدو غريباً ألا نحظى بمزيد من السيطرة . الخانات المصنفة المرتبة هي إذن لسيت مفيدة جداً . من الغريب كيف أن القوة تنحسر مبتعدةً فمبتعدة إلى جدول ما جاف . وإذ أجلس وحيداً يبدو أننا قد نفد ما فينا وهلك . إن مياهنا لا تستطيع أن تحيط إلا بالكاد وعلى وهن ذلك العنقود المستدق من زهرة البحر ؛ إننا لا نستطيع بلوغ تلك الحصوة البعيدة بحيث نبلّها . الأمر انقضى ، ونحن انتهينا . لكن مهلاً - إني سهرت الليل بطوله أنتظر - إن دافعاً يجري فينا مرة أخرى ؛ إننا ننهض ، إننا نرمي بلبدة الرذاذ الأبيض ثانيةً ؛ إننا ندك بأقداما على الشاطئ ؛ إننا لا يُحاط بنا محتجزين . أعني أنني حلقت ذقني واغتسلت ؛ لم أوقظ زوجتي ، وتناولت الفطور ؛ ارتديت قبعتي ، وخرجت لكسب معاشي . بعد الاثنين ، الثلاثاء يأتي .

«مع هذا فثمة شك يتخلف ، ثمة نبرة من استقصاء . كنت أندهش ، إذ أفتح باباً ، أن أجد الناس منشغلين على هذه الشاكلة ؛ وأتردد ، إذ أتناول كوباً من الشاي ، ماذا يقول المرء حليب أو سكّر . وضياء النجوم يتساقط ، كما يسقط الآن ، على يدي بعد سفره لملايين فوق ملايين من السنين - يمكنني أن أصاب بخضة باردة من ذلك لهنيهة - لا أكثر ، فمخيتلي واهنة للغاية . لكن ثمة شك يتخلف . إن ظلاً يمر خافقاً بسرعة في خاطري كأجنحة الفراش بين المقاعد والمناضد في غرفةٍ في الأصيل . مثلاً حينما ذهبت إلى لنكينشر ذلك الصيف لزيارة سوزان فتقدمت نحوي عبر الحديقة بالحركة الكسلى لشراع نصف مشرع بالريح ، بالحركة المترنحة لامرأة ذات طفل ، فدار في خلدي : (أن الحياة تستمر ؛ لكن لماذا؟) عربات الحقل جاءت تقطّر تبناً ؛ كانت هناك الأصوات الريفية المعتادة للغدفان والحمائم ؛ الفواكه على الشجر مكيّسة ومغطاة ؛ البستاني يحفر . النحل يطن في الأنفاق الأرجوانية للأزهار ؛ النحل يلبد على الدروع الذهبية كزهور عبّاد الشمس . والأغصان الصغيرة طارت في أرجاء العشب . كم كان الأمر إيقاعياً ، وشبه واع ، كشيء غُلِّف بضباب أغبش ؛ لكنه بالنسبة لي كريه ، كشبكةٍ تطوي أطراف المرء في نسيجها ، ماغصةً . إنها و هي التي كانت قد رفضت بيرسيفال قد ركنت لهذا ، لهذا الاحتماء .

«وإذ جلست على دكةٍ أنتظر قطاري ، فكّرت عندئذ كيف أننا نستسلم ، كيف أننا نولي قيادنا إلى سخف الطبيعة . إن غاباتٍ مغطاة بإيراق أخضر كثيف تمتد أمامي . وبخطفة شذا أو نأمة صوت على عصب من أعصابي فإن الصورة القديمة تعود - البستانيون يكنسون ، السيدة تكتب- . رأيت الأشخاص تحت أشجار الزان في إيلفيدون . البستانيون يكنسون ، السيدة جالسة إلى طاولة تكتب . لكني الآن قدمت مساهمة النضج لغرائز الطفولة - الإشباع والقضاء المحتوم ؛ الحس بما هو غير متوقع

twitter @baghdad_library

من حظوظنا ؛ الموت ؛ العلم بالحدود القاصرة ؛ كيف أنَ الحياة هي أشد قسوة في عنادها مما كان يظن المرء . آنئذ ، حين كنت طفلاً ، فإن وجود عدوٍ قد أكدّ نفسه ؛ فلدغتني الحاجة للمناهضة . لقد وثبت وصرخت : (فلنستكشف) فانتهى هول الوضع .

«والآن أيّ وضع هناك لإنهائه؟ الانخماد والقضاء المحتوم . وما الذي يُستكشف؟ إن أوراق الشجر والغابة لا تخفي شيئاً . وإذا انتهض طير فإني لم أعد أنظم قصيدة - إني لأكرر ما كنت قلته سابقاً . لذا فإن كان لديّ عصا بها أؤشر على نقاط الخط البياني المنحني للكينونة ، فهذه هي النقطة السفلى ؛ هنا تلتوي النقطة على نفسها عديمة الجدوى في الطين حيث لا يصل المد - هنا ، حيث أجلس وظهري إلى سياج من نبات الوشيع المتسلق ، وقبعتي فوق عيوني ، بينما تتقدم الأغنام بعناد في دربها ذاك المتخشب ، خطوة فخطوة على سيقانٍ صلبة ، مستدقة . لكنك إذا أمسكت بنصلٍ حاد على حجر الرحى لمدة كافيةٍ فإن شيئاً ما يتفجّر - حافة مثلومة من النار ؛ وإذ يُمسَك بها كذلك على كل المجموع المتكتل من فقدان العقل ، وفقدان الهدف ، ومن كل ما هو عادي ، فستتفجر ، دافقة بهبة واحدة ، الكراهية ، الازدراء . لقد تناولت عقلي ، كياني ، الشيء القديم البائس الكئيب ، المتبلّد الذي يكاد يخلو من الحيوية ، وجلدته جلداً ما بين هذه الحوائج التافهة ، والعيدان والقش ، والقطع الصغيرة المزرية من الحطام ، من الطافي على البحر ومن المرمي فيه من سقط المتاع ، العائم على السطح الزيتي . وثبتُ . قلت : (قاتل! قاتل!) مكرراً . إنه هو الجهد والكفاح ، إنها هي الحرب الأبدية ، إنها هي التمزيق والتجميع - هذه هي المعركة اليومية ، هزيمة أو انتصار ، النشدان المستغرق . الأشجار ، متناثرة ، تفرض نظاماً ؛ الاخضرار الكثيف للأوراق يرقق نفسه تجاه ضياء متراقص . إني أقتنصتها بشبكة من عبارة مفاجئة . إني استنقذتها من فقدان الشكل بالكلمات .

«وجاء القطار . وإذ استطال على الرصيف فقد توقف . إني لحقت بقطاري . وهكذا عدت إلى لندن في المساء . يا له من شيء مرض مناخ المعقولية والتبغ ؛ والنساء العجائز يتسلقن بجهد جهيد عربة الدرجة الثالثة مع سلالهن ؛ والمص في الغلاليين ؛ والتحيات المتواصلة مثل ، مع السلامة وطابت ليلتك وإلى اللقاء ، ونراك غداً ، من أصدقاء يفترقون عند المحطات الفرعية على الطريق ، ومن ثم أضواء لندن - ليست النشوة الملتهبة من وجد الشباب ، ليست تلك الراية البنفسجية البالية ، إنما مع ذلك أضواء لندن هي هي ؛ أضواء كهربائية ، قاسية ، في الأعالي بالمكاتب ؛ مصابيح الشوارع منسوجة حذو الأرصفة الجافة ؛ سطوعات تدوّي فوق أسواق الطرقات . إني أحب كل هذا حين أكون قد أرديت العدو للحظة واحدة .

«كذلك فإني أحب أن أجد مهرجان الوجود مزمجراً ، في مسرح مثلاً . إن حيوان الحقل الطيني اللون ، الأرضيّ العسير الوصف ، هنا يقيم نفسه منتصباً وبأصالة وجهد لا تحدها الحدود يشن قتالاً ضد الغابات الخضر والحقول الخضر والأغنام تتقدم بوطء موزون ، وهي تمضغ . وبالطبع ، النوافذ في الشوارع الرمادية الطويلة مضاءة ؛ وقطع مستطيلة من سجاد تقطع الرصيف ؛ ثمة غرف مكنوسة ومزخرفة ، ونار ، وطعام ، ونبيذ ، وكلام . رجال بأيد ذاوية ، نساء بأقراط لؤلؤية هرمية تتدلى من آذانهن ، يدخلون ويخرجون . رأيت وجوهاً لشيوخ نحتت بفعل الدنيا إلى غضون ؛ والجمال يُعتز به بحيث يبدو وقد انبثق حديثاً حتى في عمر الشيخوخة ؛ والشباب جدير بالمتعة إلى درجة بحيث يظن المرء أن المتعة لا بد حاضرة في الوجود ؛ ويبدو أن الأراضي المعشبة يجب أن تترامى من أجلها ؛ والبحر يتحول إلى أمواج صغيرة ؛ والغابات تهش بطيور براقة الألوان من أجل الشباب . هنالك التقى المرء جيني وهال ، توم وبتي ؛ هنالك كانت لنا فكاهاتنا واقتسمنا أسرارنا ؛ وما افترقنا قط في مدخل الباب إلا ورتّبنا أن

twitter @baghdad_library

نلتقي ثانية في غرفة ما أخرى كما توحي المناسبة أو الفصل من السنة . الحياة لطيفة ؛ الحياة حسنة . بعد الإثنين يأتي الثلاثاء ، والأربعاء يتبع .

«أجل ، إنما بعد زمن يكون التتابع مع فارق . قد يوحي به شيء في مظهر الغرفة في إحدى الليالي ، في ترتيب المقاعد . يبدو مريحاً أن تغوص في أريكة بركنٍ من الأركان ، أن تتطلّع ، أن تصغي ,عندئذ يحدث أن شخصين واقفين وظهريهما إلى النافذة يظهران على خلفية من أغصان شجرة منتشرة . وبرجّةٍ من العاطفة يشعر المرء : (هناك أشخاص بدون قسمات يكتسون بالجمال) . وفي التوقف الذي يلي بينما تنتشر الرجرجات ، فإن الفتاة التي كان ينبغي أن يحدثها المرء تقول لنفسها ؛ إنه عجوز ، لكنها على خطأ إنه ليس العمر ؛ إنه إنما قطرة قد سقطت ؛ قطرة أخرى . إن الزمن قد أنزل بالترتيب خضة أخرى . إننا نتسلل من طاق أوراق التوت ، خارجين إلى عالم أرحب . ونظام الأشياء الحق - هذا هو وهمنا السرمدي - واضحٌ الآن . وهكذا ففي إحدى اللحظات ، في إحدى غرف الجلوس ، تُكيّف الحياة نفسها للمسير الجليل لليوم عبر السماء .

«وكان لهذا السبب أنني عوضاً عن ارتداء حذائي من الجلد اللماع وعثوري على ربطة عنق مناسبة ، فقد ابتغيت نيفيل . ابتغيت أقدم أصدقائي ، الذي كان قد عرفني حين كنت بايرون ؛ حين كنت فتى ميريديث ، وكذلك حين كنت ذلك البطل في كتاب لدوستيوفسكي الذي نسيت اسمه . وجدته وحيداً ، يقرأ . ومنضدة مرتبة كل الترتيب ؛ ستارة مسحوبة بالتمام بشكل منهجي ؛ مؤشّرة أوراق تفصل مجلداً فرنسياً - ودار في خلدي أنه ما من أحدٍ يغيّر قط الموقف الذي به رأيناه أولاً ، أو يغيّر الملابس . هنا قد جلس فيٍ هذا المقعد ، بهذه الملابس ، منذ التقينا أول مرة . هنا وجدت حرية ؛ هنا وجدت ألفة حميمة ؛ ضياء الموقد يفصم تفاحة مدورة على الستارة . هناك تكلمنا ؛ جلسنا نتكلم ؛ تسكعنا في

ذلك الدرب ، الدرب الذي يمر تحت الأشجار ، تحت أأشجار المتمتمة الكثيفة الأوراق ، الأشجار المثقلة بالثمار ، الدرب الذي طرقناه مراراً وتكراراً معاً ، بحيث أن التربة المعشبة هي الآن جرداء حول بعض تلك الأشجار ، حول مسرحيات معينة وأشعار ، مفضلة لنا بعينها • التربة المعشبة وُطئت جرداء بخطونا الدائب غير المنهجي . إذا كان عليّ أن أنتظر ، فإني أقرأ ؛ إذا استيقظت في الليل ، فإني أتحسس الرف من أجل كتاب . وإذ تنتفخ ، معظَّمةً على الدوام ، فإن هناك تراكم ذريع من مادة غير مسجلة في رأسي . إني بين حين وحين أقطع من التراكم كتلة ، قد تكون شكسبير ، قد تكون امرأة ما عجوز تُدعى پك ؛ وأقول لنفسي ، وأنا أدخن سيجارة في الفراش ، (هذا هو شكسبير . هذه هي پك) - بوثوق التعرّف ورجّة المعرفة مما هو متمتع بشكل لا ينتهي ، وإن لا يتم الإفصاح عنه . وهكذا اقتسمنا من نعرف من عجائزنا مثل پك ، وشعراءنا مثل شكسبير ؛ وقارنا انطباع أحدنا بانطباع الآخر ؛ وأتحنا لبصيرة كل واحدٍ منا أن يضع ما يعود لنا من مثل پك أو شكسبير في ضوء أفضل ؛ وعندئذٍ نغرق في صمت من ذلك النوع الذي يُقطع بين حين وحين ببضع كلمات ، كما لو أن زعنفة قامت في مدد الصمت المترامي ؛ وعندئذٍ تغوص الزعنفة ، الفكرة ، ثانية إلى الأعماق ، ناشرةً حولها رقرقة صغيرة من الرضا والقناعة .

«أجل ، لكن المرء يسمع فجأة ساعة يدق . إننا نحن الغارقين إلى آذاننا في هذا العالم نغدو على انتباه بعالم آخر . إنه لأمر أليم . إنه كان نيفيل الذي يغيّر زماننا . إنه ، وهو الذي كان يفكر مع الزمن غير المحدود للعقل ، الزمن الذي يمتد بالتماعة واحدة من شكسبير إلى أنفسنا ، يأخذ بنبش نار الموقد ويبدأ بالعيش تقوته تلك الساعة الأخرى التي تؤشر مقترب شخصٍ مخصوص . إن الترامي الواسع والمحتشم لعقله يتشنّج . إنه

twitter @baghdad_library

يضحى يقظاً متيقظاً . إن بوسعي أن أحسّه يتسمّع لأصواتٍ من الشارع . كنت ألاحظ كيف يلمس وسادةً . إنه من بين الألوف من البشرية ومن كل ماضٍ من الزمان قدا ختار شخصاً واحداً ، لحظة واحدة على وجه الخصوص . إن صوتاً قد سُمع في الردهة . وما كان يقوله ترنح في الهواء كلهيب غير مستقر . كنت أرقبه ينتزع خطوة واحدة انتزاعاً من الخطوات الأخرى ؛ وينتظر من أجل علامة مخصوصة من علامات التعرّف ويحدّق ، ذلك التحديق الخاطف لثعبان ، في مقبض الباب .(من هنا الحدة المدهشة لمداركه ؛ لقد ثُقف دائماً تثقيف الرمح من قبل شخصٍ واحد) . إن عاطفة بهذا النوع من التركيز ترمي الآخرين كالمادة الغريبة من محلول ساكنٍ ؛ متلألئ . إني أمسيتُ مدركاً لطبيعتي الغامضة والمتبلدة الغيوم والحاشدة بالرواسب ، الحاشدة بالشكوك ، الحاشدة بالعبارات والملاحظات التي ستوضع في دفاتر الجيب . إن طيّة الستارة ومضت ؛ كل شيء غدا محدّداً ، خارجياً ، مشهداً لا دور لي فيه . لذلك نهضت ؛ تركته .

«يا للسماء! كيف أطبقت عليّ وأنا أغادر الغرفة تلك الأنياب لذلك الألم القديم! الرغبة بوجود شخصٍ ما غير موجود . من؟ لم أعرف في البداية ؛ ثم تذكرت بيرسيفال . لم أكن قد فكّرت به لشهور . الآن أن أضحك معه ، أن أضحك معه على نيفيل - ذلك ما أردته ، أن نسير يداً بيد معاً ضاحكين . لكنه ليس هناك . المكان فارغ .

«يا عجباً كيف يثب الموتى علينا في ركن شارع ، أو في الأحلام .

«هذه الهبّة العاصفة التي هبت عليّ بكل الحِدة والبرد قد دفعتني تلك الليلة عبر لندن لأزور أصدقاء آخرين ، رودا ولويس ، يرجوان الرفقة ، التوثق ، الوصال . وتساءلت مع نفسي ، وأنا أرتقي السلالم ، ما هي علاقتهما؟ ما الذي يقولانه لوحدهما؟ تخيلتها مرتبكة التناول مع قاروة الشاي . إنها تحدّق فوق ألواح السطوح - حورية النافروة بليلة على الدوام ،

مأخوذة بالرؤى ، حالمة . إنها تفرق الستارة لتنظر إلى الليل . قالت : (إذهب! إن السبخ مظلم تحت القمر) . دققت الجرس . انتظرت . لعل لويس يصب الحليب في الصحن الصغير للقطة ؛ لويس الذي تنطبق يده النحيلة البارزة العظام كخاصرتي بطة تنضمان على بعضهما ، في عذاب بطيء من المجهود ، على مور المياه الذريع ، لويس الذي يعرف ما كان قد قاله المصري ، والهندي ، ما قاله رجال ذوو خدود بارزة العظام ، ورجال فرادى في العزلة بقمصان من وبر . طرقت ، انتظرت ؛ ما من جواب . نزلت منسرحاً على السلالم الحجرية مرة أخرى . أصدقاؤنا - كم هم متناؤن ، كم هم بُكم ، كم هم لا يُزارون إلا نادراً ، ولا يُعرفون إلا قليلاً . وأنا ، أيضاً ، معتم بالنسبة لأصدقائي وغير معروف ؛ سراب ، أحياناً يُرى ، وغالباً لا يُرى . الحياة حلم بالتأكيد . إن لهيبنا ، السراب الكاذب الذي يتراقص ببضعة عيون ، سرعان ما سينطفئ فيتلاشى كل شيء . لقد استذكرت أصدقائي . فكرت بسوزان . لقد اشترت حقولاً . الخيار والطماطم تنضج في سقائف زراعتها الساخنة . والكروم التي قتلها انجماد العام الماضي قد شقت ورقةً أو اثنتين . إنها تسير بتثاقل مع أبنائها عبر مروجها . إنها تتفقد أراضيها يصحبها رجال على أحذيتهم واقيات ، وهي تشير بعصاها إلى سطح ، إلى سياج وشيع ، إلى جدران تتهاوى إلى العطب . الحمام يتبعها ، يضلع متهادياً ، من أجل قمح تبيح له أن يسقط من أناملها القديرة ، الأرضية . (لكني لم أعد أنهض فجراً) ، قالت : ثم جيني - وهي تستقبل ، لا ريب ، شاباً جديداً . إنهما قد بلغا أزمة المحادثة الاعتيادية . الغرفة ستظلم ؛ المقاعد سترتب . ذلك أنها لا تزال تبتغي اللحظة . إنها تمضي ، بدون أوهام ، صلبة وصافية كالبلور ، فتمتطي ظهر النهار بصدرها مُتعرٍّ . إنها تدع مسامير النهار تمزقها إرباً . وحين تبيضّ خصلة الشعر على ناصية جبينها فإنها ترمي بها غير هيّابة بين الخصل

twitter @baghdad_library

الباقية . لذا فحين يأتون لدفنها فلن يكون هناك ثمة شيء خلاف المعتاد . قطع من شرائط سيعثر عليها ملفوفة . لكن لا يزال الباب ينفتح . وهي تسأل : من القادم؟ فتنهض للقائه . ومهيّأة ، كما في تلكم الليالي الربيعية الأولى حينما كانت الشجرة ، تحت بيوتات لندن الكبيرة حيث يأوى مواطنون محترمون إلى فراشهم برزانة ، لا تؤوي حبّها إلا بالكاد ؛ وصريج قطارات الشارع تمتزج بصيحة متعتها فكان على رجرجة الأوراق أن تظلّل تراخيها وكسلها اللذيذ إذ ترتمي متبردة بكل محاسن الطبيعة راضية مكتفية . أصدقاؤنا ، كم هم لا يزارون إلا نادراً ، كم هم لا يُعرفون إلا قليلاً - صحيح ؛ ومع هذا ، حين ألتقي شخصاً غير معروف ، وأحاول أن ألخص ، هنا على هذه المائدة ، ما أدعومه بـ(حياتي) ، فإنها ليست حياة واحدة هذه التي أعيد التطلع إليها ؛ إني لست شخصاً واحداً ؛ أنا أناس متعددون ؛ إني لا أعرف تماماً من أنا - جيني ، سوزاان ، نيفيل ، رودا ، أم لويس؟ ؛ أو كيف أميّز حياتي من حياتهم .

«هكذا فكرت في تلك الليلة في أوائل الخريف حين اجتمعنا معاً وتناولنا العشاء مرة أخرى في هامتون كورت . كان ضيفنا في البداية عظيماً ، ذلك أن كل واحد منا بحلول ذلك الوقت قد التزم بقول ، والشخص الآخر الآتي من الطريق إلى محل الاجتماع مرتدياً هذا الزي أو ذاك ، بعصا أو بدونها ، يبدو وكأنه يناقض القول . إني رأيت جيني تنظر إلى أصابع سوزان الأرضية ومن ثم تخفي أصابعها ؛ إني ، إذ أقيّم نيفيل ، وهو بغاية الأناقة والدقة ، شعرت بسديمية حياتي مضبَّبةً بكل تلك العبارات . إنه عندئذٍ تباهى ، لأنه كان خَجِلاً من غرفة واحدة ومن شخص واحد ومن نجاحه . لويس ورودا ، المتآمران ، الأرصاد على المائدة ، اللذان يلقطان الملاحظات ، شعرا : (على أية حال ، بوسع بيرنارد أن يجعل النادل يوافينا بأقراص الخبز - وصالٌ حرفناه) . لقد رأينا لهنيهةٍ مطروحاً

بيننا البدن للكائن الإنساني المكتمل الذي خبنا أن نكونه ، لكننا في ذات الوقت لا نستطيع نسيانه . كل ما يحتمل أن نكون قد رأيناه ؛ كل ما كنا قد فقدناه ، ونحن نتحاسد لحظةً كلٌّ يضمر الضغينة للمأثرة التي يدّعيها الآخر ، كالأطفال حين تقطّع الكعكة ، الكعكة المنفردة ، الكعكة الوحيدة ، يرقبون نصيبهم يتلاشى .

«على أننا شربنا إبريقاً من النبيذ ، وبتأثير تلك الغواية فقدنا عداوتنا ، وتوقفنا عن المقارنة ، وشعرنا ، في منتصف العشاء ؛ بالاسوداد الضخم لما هو خارج ذواتنا وما هو ما ليس نحن يوسّع نفسه حوالينا ، إن الريح ، وجري العجلات أضحت هدير الزمن ، ونحن نجري سراعاً - إلى أين؟ ومن نحن؟ إننا مُحينا للحظة ، انطفأنا كشرارٍ في قصاصة ورق محروقة والاسوداد يهدر . مروراً بالزمن ، مروراً بالتاريخ مضينا . وبالنسبة لي فهذا لا يدوم سوى ثانية واحدة . إنه يُنهى بمشاكستي ذاتها . إني أ ضرب المائدة بملعقة . لو كان بوسعي أن أقيس الأشياء بفرجال لفعلت ، لكن ومذ أن مقاسي الوحيد هو عبارة ، فأنا أؤلف عبارات - نسيت ماذا ، في تلك المناسبة . لقد أمسينا ستة أشخاص حول مائدة في هامبتون كورت . إننا نهضنا ومشينا معاً في الجادة . وفي الغسق الرقيق ، غير الحقيقي عاد لي ، على تقطّع ، لطفي الأنيس وجسدي ، كصدى أصواتٍ تضحك في زقاق . وأمام البوابة ، أمام شجرةٍ من أشجار الأرز ، رأيت برّاقاً كالسطوع ، نيفيل ، جيني ، رودا ، لويس ، سوزان ونفسي ، حياتنا ، هويتنا . ولما يزل الملك وليام يبدو عاهلاً غير حقيقي وتاجه محض شيء مبهرج . لكننا - أمام الآجر ، أمام الغصون ، نحن الستة ، من بين كم من ملايين الملايين ، وللحظة واحدة من بين الوفرة التي لا يقيسها قياس لزمنٍ مضى وزمنٍ آت ، احترقنا هنالك منتصرين . اللحظة كانت كل شيء ؛ اللحظة كانت كافية . وعندئذ فإن نيفيل ، جيني ، سوزان وأنا ، استسلمنا ، كموجةٍ تتحطم ، تتفجّر إرباً

twitter @baghdad_library

- استسلمنا لورقة الشجر التالية ، للطير الوحيد ، لطفل ذي طوق ، لكلبٍ وثاب ، للدفء الذي يُختزن في الغابات بعد يوم حار ، للأضواء ملتوية كشريطٍ أبيض على ماء مترقرق . وافترقنا ؛ لقد أُذبنا في ظلام الأشجار ، تاركين رودا ولويس ليقفا في الشرفة بجنب سندانةٍ ذات عروة .

«حين عدنا من ذلك الاستغراق - يا للحلاوة ، يا للعمق! - وخرجنا للسطح ورأينا المتآمران وهما يقفان هناك فقد كانت عودتنا بشيء من الندم الواخز للضمير . لقد فقدنا نحن ما قد حفظاه هما . إننا قاطعنا خلوتهما . لكننا كنا متعبين ، وسواء كان الأمر حسناً أم سيئاً ، منجزاً أم متروكاً دون أن يُفعل ، فإن الغلالة الغسقية كانت تتساقط على تشبثاتنا ؛ الأضواء كانت تغرق إذ توقفنا لحظة على الشرفة التي تطل على النهر . المراكب تُنزل السائحين على الضفة ؛ كان هناك ثمة هتاف بعيد ، صوت غناء ، كما لو أن الناس تلوِّح بقبعاتها وتشارك في أغنية ما أخيرة . صوت الجوقة يصل عبر الماء فشعرت بذلك الدافع القديم يثب ، والذي قد حركني طيلة حياتي ، الدافع الذي يرميني قياماً وقعوداً على هدير أصوات الآخرين ، مغنياً الأغنية ذاتها ؛ الذي يقذفني عالياً وسافلاً على الهدير الصادر مما يكاد يكون لا معنى له من المرح والعاطفة والانتصار والتمني . كلا! إني لا أستطيع أن ألملم نفسي ؛ لا أستطيع أن أميّز نفسي ؛ لا يسعنيٍ إلا أن أدع الأشياء التي جعلتني قبل دقيقة واحدة توّاقاً ، مسروراً ، غيوراً ، متيقظاً ، ومجاميع من أشياء أخرى ، تسقط في الماء . إني لا أستطيع استعادة نفسي من ذلك التبديد الذي لا نهاية له ، التبذير ، الدفق دون أن نريد ذلك والاندفاع دون رجع صوت إلى هناك تحت أقواس الجسر ، أو حول أجمة أشجار أو جزيرة ، هناك حيث تجلس طيور البحر على أوتاد ، فوق الماء المخشوشن ليصبح أمواجاً في البحر - إني لا أستطيع استعاذة نفسي من ذلك التبديد . وهكذا افترقنا .

«هل إن هذا إذن ، هذا التسرب ممزوجاً بسوزان ، وجيني ، ونيفيل ، ورودا ، ولويس ، هو نوع من الموت؟ تجميع جديد للعناصر؟ تلميح بما هو آت؟ إن الملحوظة قد شُطبت ، والكتاب قد أغلق ، ذلك أنني تلميذ متقطّع ، إني لا أذاكر دروسي بأي صورة من الصور في الساعة المحددة . إني بعدئذ ، وأنا أسير في شارع الصحافة بساعة الزحام ، تذكرت تلك اللحظة ؛ واصلتها . قلت : (أيجب عليّ أبداً أن أضرب بملعقتي على غطاء المائدة؟ ألا يجب عليّ ، أنا أيضاً ، أن أقبل؟ إن حافلات الركاب معوّقة ؛ الواحدة تأتي خلف الأخرى وتقف وهي تحدث ارتجاجاً ، كحلقةٍ تضاف إلى سلسلة حجرية . الناس مرّوا .

«إنهم وهم يتلاطم زحامهم ، حاملين حقائب الأوراق اليدوية ، يراوغون الحركة بخفة مذهلة خروجاً ودخولاً ، قد مضوا مارّين كنهرٍ في فيضان . لقد مضوا مارّين يهدرون كقطار في نفق . وإذا اهتبلتُ فرصتي فقد عبرت الشارع ؛ ولجت ممراً مظلماً ودخلت دكاناً حيث حلقوا شعري . أرخيت رأسي للخلف وشددته بقماشة . المرايا تواجهني وفيها أرى جسدي الموثّق والناس يمرون ؛ يتوقفون ، ينظرون ، ويمضون في سبيلهم غير مكترثين . بدأ الحلاق يحرّك مقصّه ذهاباً و إياباً . شعرت بنفسي عاجزاً عن إيقاف الذبذبة للحديد البارد . قلت : وهكذا فنحن نُقص ونوضع في قماش ؛ وهكذا نحن نستلقي جنباً إلى جنب على المروج الرطبة والغصون الذاوية والنماء . ليس لدينا مزيدٌ لنكشف أنفسنا على الوشيع الأجرد للرياح والثلوج ؛ مزيدٌ لنوقف أنفسنا منتصبين حين تجرف الزوبعة ، لنحمل عبأنا وقوفاً مُدعمين ؛ أو نهجع ، غير متمتمين ، في أحيان الظهيرة الشاحبة حينما ينسل الطير قريباً من الغصن ويبيّض البلل ورقة الشجر . إننا مقصوصون ، إننا مسقطون . إننا نصير جزءاً من ذلك الكون الذي لا يشعر والذي ينام حينما نكون في أقصى انتباهتنا ويشتعل أحمر حينما نستلقي

twitter @baghdad_library

نائمين ، إننا قد نبذنا مقامنا ونستلقي الآن مسحاً مع الأرض ، وقد أذوانا البلى وسرعان ما نُنسى! وعندها رأيت تعبيراً في طرف عين الحلاق كما لو أن شيئاً قد أثار اهتمامه في الشارع .

«ما الذي أثار اهتمام الحلاّق؟ ما الذي رآه الحلاق في الشارع؟ إني هكذا أُستدعى فأعاد إلى سليقتي . (ذلك أني لست صوفياً ؛ عن شيئاً ما ينتف بي - الفضول ، الحسد ، الإعجاب ، الاهتمام بالحلاّقين وأمثالهم يعيدني إلى السطح) . وبينما الحلاق ينفض بفرشاته الشعيرات من سترتي فإني كدحت لأوكد لنفسي هويته ، وعندئذٍ ، خرجت وأنا أهز عصاي إلى شارع ستراند ، واستحضرت في خاطري ، للقيام بدور الضد لنفسي ، شخص رودا ، المسارقة للغاية دائماً ، والخوف في عيونها دائماً ، تبتغي دائماً عموداً ما في الصحراء ، والذي قد ذهبت تبحث عنه ؛ إنها قد قتلت نفسها . قلت ، وأنا أضع ذراعي خيالياً (هكذا نصحب أصدقاءنا) في ذراعها . (انتظري ، انتظري حتى تمر هذه الحافلات ، لا تعبري الشارع على هذا النحو الخطر . هؤلاء الرجال هم أشقاؤك) . إني باقناعها كنت كذلك أقنع روحي ذاتها . ذلك أن هذه ليست هي حياة واحدة ؛ كما أني لا أعرف دائماً ما إذا أنا رجل أم امرأة ، بيرنارد أم نيفل ، لويس ، سوزان ، جيني ، أم رودا - فاتصال الواحد بالآخر هو على مثل هذه الغرابة .

«ذهبت أهز عصاي ، وشعري محلوق للتو وقفا رقبتي يوخز برداً ، ماراً بكل تلك المعروضات من لعب القرش الواحد المستوردة من ألمانيا التي يحملها الرجال في الشارع قرب كنيسة سان بول - كنيسة سان بول ، الدجاجة الحاضنة ذات الأجنحة المنتشرة والتي من ملجئها تنطلق حافلات الركاب وحشود جارية من الرجال والنساء في ساعة الزحام . ومرّ في خاطري كيف أن لويس سيرتقي هذه الدرجات ببدلته الأنيقة وعصاه بيده ومشيته الناحلة ، المترفعة بعض الشيء . ودار في خلدي كيف أنه ،

بلكنته الاسترالية (والدي ، صيرفي في برسبن) ، سيأتي على هذه المراسم العتيقة باحترام أكبر من احترامي ، والذي كان قد سمع الأغاني ذاتها لهدهدة الأطفال للنوم لألف عام . إني حين أدخل الكنيسة تؤثر بي دائماً الورود المصقولة وألواح النحاس المدهونة اللامعة ؛ الهفهفة والترتيل ، بينما صوت صبي واحد ينوح حول القبة كحمامة ضائعة تائهة . إن هجوع وسلام الموتى يؤثر بي - محاربون في نومهم الأبدي تحت بيارقهم القديمة . ثم أسخر من التزويق الزاهي والخطل الأخرق لقبر ما مدرّج ؛ من الأبواق والانتصارات وشعارت سالفة والوثوق ، المكرر بالطنّة والرنة ، من قيام القيامة ، والحياة الآخرة الأزلية . إن عيني المتجولة والمستقصية تريني عندئذ طفلاً هالعاً ؛ شيخاً من المتقاعدين يجرجر أقدامه ؛ أو انحناءات الاحترام للفتيات بائعات المخازن المتعبات والمثقلات بما لا يعرفه إلا الله من الكفاح المضني في صدورهن النحيفة البائسة وقد أتين يطلبن العزاء والسلوان لأنفسهن في ساعة الزحام . إني أهتم وأتطلع وأعجب ، وأحياناً أحاول ، بنوع من المكر الاستراقي ، أن أرقى على عمود الدعاء المنطلق من غيري لأدخل القبة ، وأنطلق منها ، إلى ما وراءها ، بعيداً ، إلى حيثما يذهبون . لكنني عندئذ كحمامة ضائعة ونائحة ، أجد نفسي أخور ، وأخفق بجناحي ، وأهبط فأحطّ على غرغول غريب ، أو أنف مجدوع أو شاهد قبر أخرق ، بمرح الفكاهة ، بعجب ، وهكذا أرقب ثانية السائحين يحملون كتب الإرشاد للسياحة والسفر وهم يمرون يجرجرون أقدامهم وصوت الصبي يرتقي إلى القبة والأرغون يسرف بين حين وحين في الانغماس بلحظة انتصار أخرق الضخامة كالفيل الذي تعوزه الرشاقة . وأسال : كيف إذن سيضعنا لويس جميعاً تحت سقف واحد؟ كيف سيضم شتاتنا ، ويجعلنا جميعاً واحداً فرداً ، بحبره الأحمر وريشة قلمه الرفيعة جداً؟ إن الصوت قد تلاشى في القبة ، منتحباً .

twitter @baghdad_library

«وهكذا عدت إلى الشارع ثانية ، أهز عصاي ، وأتطلع إلى ما هو معروض في واجهات دكاكين القرطاسية ، وأتمتم بأغاني شعبية مازجاً الهراء بالشعر ، طافياً في التيار . إن شيئاً ما لا بد من القيام به في المرة التالية دائماً . الثلاثاء يتبع الإثنين : الأربعاء يتبع الثلاثاء . وكل يوم منها ينشر الرقرقة الرجراجة ذاتها . الكيان ينمّي حلقات دائرية ، كشجّرة ، وكشجرة ، تسقط الأوراق .

«ذلك أنه ذات يوم إذ أنا أنحني على بوابة تؤدي إلى حقل ، توقف الإيقاع ؛ والسجعات والهمهمات والهراء والشعر . فقد مُهِّد حيز في فكري تمهيداً . وأبصرت مخترقاً الأوراق الكثيفة للعادات المستحكمة . وإذ انحنيت فوق البوابة فقد أسفت لهذا القدر الكبير من النفايات ، لهذا القدر الكبير من عدم الانجاز والانفصال بعضنا عن بعض ، ذلك أن المرء لا يسعه عبور لندن لزيارة صديق ، لكون الحياة حاشدة جداً بالمواعيد ؛ كما لا يستطيع أن يستقل سفينة إلى الهند ليرى رجلاً عارياً يصطاد السمك برمح في مياه زرقاء . قلت إن الحياة قد كانت عبارة من العبارات غير البالغة الكمال ، وغير الكاملة . لقد كان من المستحيل عليّ ، وأنا أتناول السعوط كما هي فعلتي من أي بائع متجول أصادفه في قطار ، أن أحفظ التماسك - ذلك الإحساس بالأجيال ، بالنساء حاملات أباريق حمراء إلى النيل ، بالعندليب الذي يغرد ما بين الغزوات وما بين الهجرات . قلت إن الحياة قد كانت مشروعاً شاسعاً أكثر مما ينبغي ، فكيف يسعني الاستمرار على رفع قدمي سرمدياً لارتقاء السلّم؟ خاطبت نفسي كما يكلم المرء صاحباً له يرتحل معه إلى القطب الشمالي .

«كلمت تلك النفس التي قد صحبتني في عدد من المغامرات الهائلة الكبرى ؛ الرجل الأمين الصادق الذي يجلس أمام النار وقد أوى الجميع إلى النوم ، وهو يحرك رماد الفحم بشيش الموقد ؛ الرجل الذي اعترته

بغموض شديد تناميات متعاظمة في بدنه الناشئ النمو ، في غابة الزان ، جالساً عند شجرة صفصاف على ضفة نهر ، أو منحنياً فوق درابزين في هامبتون كورت ؛ الرجل الذي جمع شتات نفسه رابط الجأش في لحظات الطوارئ وطرق بملعقته على المنضدة ، قائلاً : (إني لن أقبل) .

«إن هذه النفس الآن ، إذ أنا أنحني فوق بوابة أتطلع إلى حقول تترامى في أمواج من لون تحتي ، لم تحر جواباً . إنها لم تبد معارضة . لم تحاول أي عبارة من العبارات . قبضة يدها لم تتجمع . انتظرت ، أصغيت ، لا شيء أتى ، لا شيء . عندئذٍ بكيت باقتناع مفاجئ بالتخلي التام . الآن لا شيء هناك . ما من زعنفة تقطع هذا المدد الممتد من البحر الذي لا يحده حد . إن الحياة قد حطمتني الآن . ما من صدى يرجع آتياً حين أتكلّم ، ما من كلمات متنوعة . إن هذا لهو الموت الحق أكثر مما هو موت الأصدقاء ، ومن موت الشباب . إني شخص في صالون حلاقة أشغل فقط ذلك القدر من الحيّز .

«المنظر تحتي ذوى ، إنه كالخسوف حين تنطفئ الشمس ، تاركة الأرض ، وهي مزدهية بإبراق الصيف التام ، ذاوية ، سريعة الزوال ، زائفة . كذلك رأيت على درب متعرج تشبّ في غبار ، المجموعات التي خلقناها ، كيف أنها جاءت معاً ، كيف أنها أكلت معاً ، كيف أنها التقت في هذه الغرفة أو تلك . رأيت انشغالي ذاته الذي لا يعتريه النصب - كيف أنني قد هرعت من هذا إلى ذاك . جلبت وحملت ، سافرت ورجعت ، انضممت لهذه الجماعة أو تلك ، قبّلت هنا ، انسحبتُ هناك ؛ ودائماً جادّ السعي في كل هذا يحدوني هدف فائق ، وأنفي إلى الأرض ككلب يتعقب الأثر ؛ وبهزة من الرأس بين حين وحين ، وصيحة اندهاش بين حين وحين ، ويأس ، أعود من ثم مرة أخرى وأنفي وراء الأثر . يا لها من نفاية - يا لها من بلبلة ؛ مع ولادة هنا ، وموت هناك . حيوية مفعمة بالرواء

twitter @baghdad_library

وحلاوة ؛ جهد وعذاب ؛ وأنا دائماً أجري هنا وهناك . الآن قُضي الأمر . لم يعد لديّ شهية للتخمة ؛ لم يعد فيّ لدغات بها أسمم الناس ؛ وليس بعد الآن من أنياب حادة وأيد قابضة أو رغبة بتحسس الكمثرى والعنب وبالشعور بالشمس تضرب آتيةً من حائط البستان .

«الغابات اختفت ؛ الأرض عبارة عن امتدادٍ شاسع من الظل . ما من صوت قطع صمت المنظر الشتائي . ما من غرابٍ نعب ؛ ولا دخانٍ ارتفع ؛ ولا قطارٍ تحرّك . قلت : رجل بلا نفس . جسد ثقيل ينحني على بوّابة . رجل ميت . وبقنوطٍ خالص الهدوء ، وبتحيّرٍ كلي منقشع الوهم ، استعرضت الغبار يتراقص ؛ حياتي ، حياة أصدقائي ، ذلكم الوجود الرائع ، رجال بمكانس ، نساء يكتبن ، شجرة الصفصاف عند النهر - سحبٌ وسراب صنعت من غبار كذلك ، من غبار يتغيّر ، إذ تخسر السحب وتكسب وتتخذ لون الذهب أو الاحمرار ، وتفقد قممها وتتمايل إلى هذه الجهة وتلك ، متقلبة ، مختالة . وأنا ، حاملاً دفتري ، مؤلفاً عبارات ، إنما قد سجلت محض تغيّرات ؛ أنا ظل ، وقد كنت مثابراً بكدٍ على تدوين الملاحظات عن الظلال ، قلت : كيف يتسنى لي أن أواصل الاستمرار الآن بدون نفس ، بلا وزن ، بلا بصيرة ، في عالم لا وزن له ولا وهم؟

«إن ثقل قنوطي فتح على مصراعيه البوابة التي عليها أنحني ودفعني ، أنا الرجل المسن ، الرجل البدين ذو الشعر الأشيب ، خلال حقلٍ لا لون له ، حقلٍ فارغ . لم أعد أسمع الأصداء ، لم أعد أرى السراب ، ولا أتخيل المناهضة من أي نوع ، بل أسير دائماً غير مظلّل ، لا أطبع أثراً على التراب الميت . لو كان هناك حتى أغنام تمضغ ، تدفع قدماً بعد آخر ، أو طير ، أو رجل يدفع مسحاة في التربة ، لو كان هناك حتى شوك أعثر به ، أو حفرة ، مرطبة بأوراق مشبعة بالبلل ، فيها أسقط - لكن لا ، إن الدرب السوداويّ الحزن أدى باستقامة إلى مزيد من الشتائية والشحوب والمنظر

غير المثير لمشاهد الطبيعة نفسها . كيف إذن يعود الضياء إلى العالم بعد كسوف الشمس؟بمعجزة . على وهن . بخطوط رفيعة . إنها تتعلق كقفص زجاجي . إنها حلقة لكي يتم كسرها بدورق صغير جداً . ثمة شرارة هناك . في اللحظة التالية وهجةٌ من كُمَيْت . ثم بخار كما لو أن الأرض تتنفس شهيقاً وزفيراً ، مرةً ، مرتين ، للمرة الأولى . ثم تحت الهمود يسير أحدٌ ما بضياء أخضر . ثم إذ بطيف أبيض يلتف . الغابات تنبض زرقاء اللون وخضراء ، وبالتدريج تمتص الحقول الأحمر والذهبي والبنيّ . وفجأةً ينتش نهرٌ ضياءً أزرق . الأرض تتشرّب اللون كإسفنجة تشرب الماء ببطء . الأرض تضيف لنفسها وزناً ؛ تكوّر نفسها ؛ تعلّق المتدلّي ؛ تستقر وتدور تحت أقدامنا .

«وهكذا عاد إليّ مشهد الطبيعة ؛ هكذا رأيت حقولاً تترامى في أمواج من اللون تحتي ، لكنْ الآن مع هذا الفارق : إني رأيت لكنني لم أُرَ . سرت غير مظلَّلٍ ؛ جئت غير معلن . مني قد سقطت البردة القديمة ، الاستجابة القديمة ؛ اليد المجوفة التي تُرَجِّع الأصوات . نحيفاً كشبح ، غير تاركٍ أثراً حيث أطأ ، بمحض الإدراك ، سرت وحيداً في عالم جديد ، غير مطروق قط ؛ أمرُّ لماماً بأزهار جديدة ، غير قادر على الكلام خلا بكلمات الطفل ذات المقطع الواحد ؛ دون مثوى من عبارات - أنا الذي صنعت منها العديد ؛ غير مصحوب بأحد ، أنا الذي كنت على الدوام بصحبة من هم على شاكلتي ؛ انفرادياً ، أنا الذي كان لديّ على الدوام أحد أشركه في حاملة جمر الموقد الخالية ، أو في الخزانة بحلقتها المتدلية من الذهب .

«لكنْ كيف تصف العالم وهو يُرى بدون نفس؟ ليس هناك من كلمات . زرقاء ، حمراء - حتى هي تحوّل الانتباه ، حتى هي تخفي الكثافة عوضاً عن إتاحة المرور للضياء . كيف تصف أو تقول أي شيء بكلماتٍ فصيحةٍ مرةً أخرى؟ - سوى أنها تتلاشى ، سوى أنها تمر بتجولٍ

twitter @baghdad_library

تدريجي ، وتمسي ، حتى في مضمار مشية قصيرة واحدة ، عارضةً - هذا المشهد أيضاً . إن العمى يعود إذ يتحرك المرء وتُكرِّر ورقةٌ ورقة أخرى . إن الحسن يعود إذ ينظر المرء ، مع كل موكبه من العبارات السرابية . إن المرء يتنفس تنفساً جوهرياً شهيقاً وزفيراً ؛ وفي الوادي يجري القطار عبر الحقول متنمراً بالدخان .

«لكنني للحظة جلست على الأرض المعشبة في مكان ما عالياً فوق فيض البحر وصوت الغابات ، ورأيت البيت ، والحديقة والأمواج تتكسر . المربية القديمة التي تقلب صحائف الكتاب المصور قد توقفت وقالت : (انظر . هذه هي الحقيقة) .

«هكذا كنت أفكر وأنا قادم من جادة شافتزبري الليلة . كنت أفكر بتلك الصحيفة من الكتاب المصور . وحينما التقيتك في المكان الذي يعلق به المرء معطفه قلت لنفسي : (إن من ألاقي أمر لا يهم . إن كل هذه المسالة البسيطة المسماة بالكينونة قد انتهت . أما من هذا الذي أمامي فلا أعرف ؛ لا ولا أعبأ ؛ سنتعشى معاً) . فعلقت معطفي وربّت على كتفك وقلت : (اجلس معي) .

«الآن وجبة الطعام انتهت ؛ ونحن محاطون بالقشور وفتات الخبز . لقد حاولت أن أنتزع هذه الباقة وأسلمها لك ؛ لكن تُرى هل أن فيها جوهراً أو حقيقة فلا أدري . لا ولا أدري بالضبط أين نحن . على أي مدينة يطل هذا الامتداد من السماء؟ هل هي باريس ، هل هي لندن ، أم مدينة ما جنوبية من مدن البيوت الوردية الصبغ تستقر تحت أشجار السرو ، تحت جبال عالية ، حيث ترقى النسور صعوداً؟ لا أدري في هذه اللحظة ؛ بالتأكيد .

«إني بدأت الآن أنسى ؛ إني بدأت أشك بثبات المناضد ، بواقيعة الهنا والآن ، بدأت أدق بمفاصل أصابعي دقاً أنيقاً على حوافي الأشياء

الصلدة في الظاهر وأقول : (هل أنتِ شديدة؟) . لقد رأيت العديد من مختلف الأشياء ، ووضعت العديد من مختلف الجمل . لقد فقدت ، إبّان عملية الأكل والشرب ومسح عيوني حذو السطوح ، بتلك الصَدفة الرقيقة ، القوية ، التي تغلّف روحي كالعلبة ، والتي هي في الشباب تغلق المرء فيها غلقاً - ومن هنا الضراوة ، والنقر المتواصل للمناقير العنيدة للفتيان . والآن أنا أسأل : (من أنا؟) . لقد كنت أتكلم عن بيرنارد ، نيفيل ، جيني ، سوزان ، رودا ولويس . هل أنا كلهم جميعاً؟ هل أنا منفرد ومتميز؟ لا أدري . لقد جلسنا هنا معاً . لكن الآن بيرسيفال ميت ، ورودا ميتة ؛ إننا منقسمون ؛ نحن لسنا هنا . مع هذا فإني لا أستطيع العثور على أي عقبة تفصلنا . ليس ثمة انقسام بيني وبينهم . وإذ أنا أتكلم فإني أشعر : (أنني أنا أنت) . هذا الفارق الذي نبالغ به كثيراً ، هذه الهوية التي نعتز بها اعتزازاً محموماً ، قد انتهت . أجل ، فمنذ أن رفعت المسز كونستابل إياها اسفنجتها تصب الماء الحار فوقي وغطتني بحاسة الجسد ، وأنا حساس ، ومدرك رشيد التمييز . ها هنا على جبيني الضربة التي تلقيت حين سقط بيرسيفال . ها هنا على قفا رقبتي القبلة التي طبعتها جيني على لويس . عيوني تمتلئ بدموع سوزان . إني أرى بعيداً العمود الذي رأته رودا ، يرتجف كخيط الذهب ، وأحس بزخم سرعة الريح المنطلق من فرارها حين وثبت .

«لذا فحين أقدم على أن أصور هنا على هذه المائدة بين يدي قصة حياتي فأضعها أمامك كشيء كامل ، فإن عليّ أن أستذكر أشياء ابتعدت ، ذهبت عميقاً ، غارت في هذه الحياة أو تلك فصارت جزءاً منها ؛ وأحلاماً ، أيضاً ، أشياء تحيط بي ، وصحاب الحياة ، تلك الأشباح القديمة التي لا تكاد تبين والتي تواصل مطارداتها ليل نهار ؛ والتي تتقلب في نومها ، التي تفوه بصيحاتها المختلطة ، التي تمد أصابعها السرابية فتمسك

twitter @baghdad_library

بي إذ أحاول الفرار - ظلال أناسٍ ربما كان المرء هو أحدهم ؛ نفوس لم تولد . هنالك كذلك الوحش القديم ، الهمجي ، الرجل المكسو بالشعر الذي يبلل أصابعه عابثاً في حبال الأحشاء ؛ الذي يزدرد ويتجشأ ؛ والذي كلامه يخرج متحشرجاً من بلعومه ومن بطنه - حسناً ، إنه هنا . إنه يجثم في باطني . إنه احتفل الليلة على عشاء من لحم طير الدرّاج والسلطة وبيض الغنم . وهو الآن يرفع قدحاً من كونياك معتق رائع ببراثنه . إنه يتزيى بزي هرٍ ، ويموء ، ويطلق إثارات دافئة تجري إلى أسفل عمودي الفقري إذ أرشف . صحيح ، إنه يغسل يديه قبل العشاء ، لكنهما لا تزالان مكسوّتان بالشعر . إنه يزرر سراويله وصديره لكنها تضم ذات الأعضاء . إنه يعيرني إذا أبقيته ينتظر العشاء . إنه يدمدم على الدوام ، مشيراً بإشاراته شبه الغبية المنبئة بالجشع والحسد إلى ما يرغب به . وأوكد لك أنني ألاقي صعوبة عظيمة في السيطرة عليه . ذلك الرجل ، المكسو بالشعر ، الشبيه بالقرد ، قد ساهم في حياتي مؤدياً دوره . إنه قد أضفى وهجاً أكثر اخضراراً على الأشياء الخضر ، قد رفع مشعله بلهيبه الأحمر ، ودخانه الكثيف والواخز ، خلف كل ورقة . إنه قد أضاء حتى الجنينة الباردة . لقد امتشق مشعله في أزقة معتمة حيث الفتيات تَبدونّ فجأة مشعّات بشفافية خافتة حمراء ومسكرة . آه ، إنه قد رمى بمشعله عالياً! إنه قد قاد لي رقصات طائشة وحشية!

«لكن لا شيء من هذا بعد الآن . إن جسدي ، الليلة الآن ، ينبعث طبقة فوق طبقة كمعبدٍ بارد نثرت في أرضيته السجاجيد وتتصاعد فيه التمتمات ، والمذبح قائم ينطلق منه الدخان ؛ لكن هنا فوق ، هنا في رأسي الصافي ، لا تدخل إلا هبّات من نغم ، إلا أمواج من بخور ، بينما تنوح الحمامة الضائعة ، وتترنح البيارق فوق القبور ، والهواء القاتم لمنتصف الليل يهز الأشجار خارج النوافذ المفتوحة . وحين أطرق بنظري من هذا السمو

الرفيع ، فيا لها جميلة حتى البقايا المتفتتة من الخبز! ايّ أبراج رشيقة تصنعها قشور الكمثرى - كم هي رقيقة ومرقطة كبيضة طائر من طيور البحر . حتى الأشواك وقد صُفت باستقامة جبناً إلى جنب تبدو نيّرة الوضوح ، منطقية ، صحيحة الضبط ؛ كعوب الصمون التي تركناها هي الآن مزجّجة ، مكسوة بصبغة صفراء ، وقوية الملمس . إن بوسعي أن أعيد حتى يدي ، بما فيها من منشور عظام منسوجة بعروق غامضة وما فيها من المظهر المدهش لليباقة ، وللمرونة ، وللقدرة على الالتواء بنعومة أو على السحق بغتة - إلى حساسيتها غير المحدودة .

«متلقياً بلا حدود ، ماسكاً بكل شيء ، مهتزاً بالامتلاء ، مع ذلك صفياً ، ومحتوىً - هكذا يبدو كياني ، الآن إذ لم تعد الرغبة تحثه على الانطلاق بعيداً ؛ الآن إذ لم يعد الفضول يصبغ الرغبة بألف لون . إنها تستقر عميقاً ، بلا مد في بحرها ، الآن وقد مات الرجل الذي أدعوه بيرنارد ، الرجل الذي مسكً دفتراً في جيبه يدون فيه الملاحظات - عبارات عن القمر ، ملحوظات عن قسمات الوجوه ؛ كيف تبدو طلعة الناس ، كيف يتلفتون ، كيف يلقون بأعقاب سجائرهم ؛ تحت حرف م مسحوق أجنحة الفراشات ، تحت ط طرائق لتسمية الموت . أما الآن فلينفتح الباب ، الباب الزجاجي الذي يدور أبداً على رفّاصاته . فلتدخل امرأة ، فليجلس شاب ببدلة السهرة السوداء وشاربين : هل هناك شيء يستطيعان قوله لي . كلا! إني أعرف كل ذلك ، أيضاً . فإن هي نهضت فجأة وذهبت ، فأنا أقول : (يا عزيزتي ، إنك ما عدت تجعلينني أنظر وراءك) . إن رجّة الموجة الساقطة التي رنّت طيلة حياتي ، التي أيقظتني بحيث أني رأيت حلقة الذهب على الخزانة ، لم تعد تجعل ما أمسك راجفاً .

«وهكذا الآن ، وأنا آخذ على عاتقي أحجية الأشياء ، بوسعي أن أمضي كرصدٍ من الأرصاد دون أن أترك هذا المكان ، دون أن أتحرك من

twitter @baghdad_library

مقعدي . بوسعي أن أزور التخوم النائية للصحاري حيث يجلس الهمجي بجنب الضرام في العراء . النهار يبزغ ؛ الفتاة ترفع الجواهر المائية اللون المشتعلة القلب بالنار إلى جبينها ؛ الشمس تعدّل أشعتها مستقيمة على البيت الهاجع ؛ الأمواج تعمّق حُزَمها ؛ إنها ترتمي على الشاطئ ؛ الرذاذ يعود ضارباً ؛ وإذ تجرف الأمواج مياهها فإنها تحيط بالزورق وبزهرة البحر . الطيور تغني مجتمعاً ؛ والأنفاق العميقة تجري بين سيقان الأزهار ؛ البيت يَبيضّ ؛ النائم يتمطّى ؛ وبالتدريج فكل شيء يتحرك . الضياء يملا الغرفة ويطرد ظلاً إثر ظل إلى حيث تتدلى في طيات مبهمة . ما الذي يحويه الظل الوسطي؟ شيئاً؟ لا شيء؟ لا أدري .

«أوه ، لكن ها هو وجهك . إني ألتقط بنظري عينك ، أنا الذي كنت أظن نفسي واسعاً ذريع السعة ، معبداً ، كنيسة ، كوناً بأسره ، غير موثق بقيد وقادراً على أن أكون في كل مكان على تخوم الأشياء وهنا أيضاً ، أنا الآن لا شيء سوى ما تراه - رجل مسن ، بدين نوعاً ما ، أشيب فوق الأذنين ، والذي (إني أرى نفسي في المرآة) يضع ساعداً واحداً على المائدة ، ويمسك بيده اليسرى قدحاً من الكونياك المعتق . تلك هي الضربة التي سددتها لي . لقد سرتُ مصطدماً بصندوق البريد . إني أترنح من طرف إلى طرف . إني أضع يديّ على راسي . قبعتي انتُزعت - وقد أسقطتُ عصاي . لقد جعلت من نفسي حماراً خائباً وإني يُضحك مني بحقّ من أيّ من المارة .

«يا لله ، كم هي الحياة مقززة بصورةٍ لا يسعها النطق! يا لها من مكائد قذرة تكيدها لنا ، حرٌ في لحظة واحدة ، وفي التالية هذا الحال . ها هنا نحن ، هنا بين فتات الخبز ومناديل الطعام الملوّثة مرة أخرى . تلك السكين أخذت أصلاً تتخثر بالدهن . الفوضى ، والقذارة ، والفساد ، تحيط بنا . إننا كنا نلتقم في أفواهنا أجسام طيور ميتة . إننا إنما علينا أن نبتني بهذا

الفتات المدهّن ، ملوثة باللعاب على المناديل ، وبجثامين طيور صغيرة . والامر يبتدئ مرة ثانية على الدوام ؛ هناك يوجد العدو على الدوام ؛ عيون تلاقي عيوننا ؛ اصابع تشد أصابعنا ؛ الجهد بالانتظار . نادِ النادل . ادفع الحساب . يجب علينا أن نسحب أنفسنا سحباً من مقاعدنا . يجب علينا أن نجد معاطفنا . يجب أن نذهب . يجب ، يجب ، يجب - كلمة بغيضة . ومرة أخرى ، فإني أنا الذي قد ظننت نفسي مُحصناً ، أنا الذي قد قلت ، الآن أنا تخلّصت من كل هذا ، أجد أن الموجة قد قلبتني رأساً على عقب ، بعثرت مقتنياتي ، وتركتني أجمع ، أجمّع ، أركم بعضاً فوق بعض ، استنفر قواي ، أنهض وأواجه العدو .

«ومن الغريب أننا ، نحن المقتدرين على تحمل قدرٍ كبيرٍ من الشقاء ، يجب أن ننزل قدراً كبيراً من الشقاء بالغير . غريب أن وجه شخصٍ ، الذي لا أكاد أعرفه سوى أنني ألتقيته على ما أظن مرةً على سطح سفينة متجهة إلى أفريقيا - مجرد رمز ينبئ بعيون وخدود وخياشيم - ستكون له القوة على إيقاع هذه الإهانة . أنت تنظر ، تأكل ، تبتسم ، تكون متضجراً ، مسروراً ، منزعجاً - هذا كل ما أعرفه . مع هذا فإن هذا الظل الذي قد جلس جنبي لساعة أو اثنتين ، هذا القناع الذي منه تتلصّص عينان ، له القوة على إرجاعي ، على تكبيلي بين كل تلكم الوجوه الأخرى ، على حجزي في هذه الغرفة الحارة ؛ على إرسالي أمرق كالفراش من شمعة إلى شمعة .

«لكن انتظر ، فبينما يجمعون قائمة الحساب وراء الستارة ، انتظر لحظة واحدة . الآن وقد شتمتك على الضربة إلى أردتني أترنح بين القشور والفتات وقطع اللحم القديمة ، فإني سأسجّل بكلمات من مقطع واحد كيف أنني ، وتحت تحديقك كذلك ، وبذلك الدافع القويّ فيّ ، بدأت أدرك هذا الشيء وذاك وذاك . الساعة تدق ؛ المرأة تعطس ؛ النادل يأتي - إن ثمة تقارب تدريجي وتجمّع في واحد منفرد ، تصعيد وتوحيد . إسمع : صافرة

twitter @baghdad_library

تصفر ، عجلات تهرع ، بابٌ تصرج على رفاصها . إني قد استعدت الإحساس بالتعقيد وبالواقع وبالكفاح ، الأمر الذي أشكرك عليه . وبشيء من الاشفاق ، بشيء من الحسد ، وبكثيرٍ من حسن النية ، أتناول يدك وأحييك تحية المساء .

«الحمد لله على العزلة! إني لوحدي الآن . إن ذلك الشخص الذي يكاد يكون غير معروف قد ذهب ، ليلحق بقطارٍ ما ، ليستقل سيارةً ما ، ليذهب إلى مكانٍ ما أو إلى شخصٍ ما لا أعرفه . إنّ الوجه الناظر بي قد ذهب . الضغط قد أزيل . ها هي أكواب قهوة فارغة . ها هي مقاعد قد أديرت لكن ما من أحد يجلس عليها . ها هي مناضد خالية ولم يعد أحد ليأتي لتناول العشاء عليها الليلة .

«فلأرفع الآن عقيرتي بأغنيتي التي تتغنى بالمجد . الحمد لله على العزلة! دعني أكون وحيداً . فلأقذف وأرمي هذه الغلالة من الكينونة ، هذه الغمامة التي تتغيّر مع أقل نسمة ، ليل نهار ، وطيلة الليل وطيلة النهار . إني بينما أجلس هنا فإني أتغيّر . إني قد رقبت السماء تتغير . إني قد رأيت غيوماً تغطي النجوم ، ثم تطلق النجوم ، ثم تغطي النجوم كرّة أخرى . إني الآن لم أعد أنظر إلى تغييرها . الآن لا أحد يراني وأنا لم أعد أتغيّر . الحمد لله على العزلة التي قد أزالت ضغط العين ، وإغواء الجسد ، والحاجة بأسرها للأكاذيب والعبارات .

«إن دفتري ، محشواً بالعبارات ، قد سقط إلى الأرض ، إنه يقبع تحت المنضدة ، ليكنس من قبل خادمة التنظيف حين تأتي على نحوٍ متعب عند الفجر تبحث عن قصاصات ورق ، بطاقات ترام قديمة وهنا وهناك جذاذة بملحوظة دُعكت على شكل كريّة وتركت مع النفاية لكي تكنس . ما هي العبارة عن القمر؟ ما هي العبارة عن الحب؟ بأي اسم ندعو الموت؟ لا أدري . إني بحاجة إلى لغة صغيرة كتلك التي يستعملها العشاق ، كلمات

من مقطع واحد كتلك التي ينطقها الأطفال حين يدخلون الغرفة ويجدون أمهم تخيط فيلقطون نتفةً من صوف براق ، ريشة ، أو مزقة من قماش قطني ملون . إني بحاجة إلى صرخة ؛ صيحة . فحين تعبر العاصفة المستنقع وتجتاحني حيث أقبع في حفرةٍ دون اعتبار فإني لا أحتاج لكلمات . ما من شيء محكم . ما من شيء ينزل بكل أقدامه على الأرض . ولا شيء من تلك المطنطنات والأصداء الحلوة التي تنفصل فتقرع من عصبٍ إلى عصبٍ في صدورنا ، صانعة موسيقى متوحشة ، عبارات زائفة . لقد انتهيت من العبارات .

«كم أن الصمت أفضل كثيراً ؛ وأكواب القهوة ، والمائدة . كم أنه أفضل كثيراً الجلوس أنا ونفسي كطير البحر الانفرادي الذي يفتح جناحيه على الوتد . دعني أجلس هنا إلى الأبد مع أشياء مجردة ، كوب القهوة هذا ، وهذه السكينة ، وهذه الشوكة ، أشياء بذواتها ، ونفسي أنا كوني نفسي أنا . لا تأتي وتقلقني بتلميحاتك بأن الوقت قد حان لغلق الدكان والذهاب . إني سأعطيك بكل استعداد كل نقودي ألا تزعجني بل تدعني أجلس ، وأجلس باستمرار ، صامتاً ، وحيداً .

«لكن رئيس الخدم الآن ، الذي قد انتهى من وجبته هو ، يظهر ويقطّب عابساً ؛ إنه يتناول ملفعه من جيبه ويتيهيأ متباهياً للذهاب . إنهم يجب أن يذهبوا ؛ يجب أن يغلقوا كتائب النوافذ ، يجب أن يطووا أغطية الموائد ، ويمسحون مسحة واحدة باسفنجةٍ مبللة تحت الموائد .

«عليك اللعنة إذن . فمهما يكن قدً انقضى أمري كلياً ، فإني يجب أن أشحذ همتي ، وأعثر على المعطف المخصوص العائد لي ؛ يجب أن أدفع بذراعيّ في الكُمَين ؛ يجب أن أكمم نفسي ضد هواء الليل وأمضي . أنا ، أنا ، أنا ، على كوني متعب ، على كوني منتهٍ ، وأكاد أكون قد بليت بكل هذا التمسح بأنفي حذو سطوح الأشياء ، حتى أنا ، الرجل المسن الذي

twitter @baghdad_library

يأخذ بالسمنة بعض الشيء وينفر من بذل الجهد، يجب عليّ أن أحمل نفسي ماضياً في سبيلي وألحق بقطار ما أخير.

«مرة أخرى أرى أمامي الشارع المعتاد. إن ظُلّة الحضارة انهمدت. السماء قائمة كعظم حوت صقيل. لكن ثمة وميض في السماء سواء من سراج أو من فجر. ثمة ململة من نوع ما - عصافير على أشجار الدُّلب تزقزقً في مكان ما. ثمة حس بفلق النهار. لن أسميه فجراً. فما الفجر في المدينة لرجل مسن يقف في الشارع يتطلع بدوار نوعاً ما في السماء؟ الفجر هو نوع من الابيضاض في السماء؛ نوع من التجديد. يوم آخر؛ جمعة أخرى؛ يوم آخر من العشرين من آذار، أو كانون أو أيلول. إفاقة عامة أخرى. النجوم تتراجع وتنطفيء. الحزوز تتعمق بين الأمواج. شاشة الغبش تتكثف على الحقول. واحمرار يتجمع على الورود، حتى على الوردة الباهتة التي تتدلى عند نافذة غرفة النوم. طير يزقزق. منازل ريفية توقد شموعها المبكرة. أجل، هذا هو التجديد الأزلي، القيام والقعود الذي لا ينقطع، والقعود والقيام كرة أخرى . . . الخ.

«وفيّ أيضاً تقوم الموجة؛ إنها تقوّس ظهرها، إني أتنبه مرة أخرى إلى رغبة جديدة، شيء يقوم تحتي كالجواد الشموس. يهمزه ممتطية أولاً ثم يشد عليه العنان. أيّ عدوٍ الآن نتصوره يتقدم ضدنا، يا هذا الذي أمتطيه الآن، إذ نقف ننبش بحوافرنا هذا الجزء الصغير من الرصيف؟ إنه الموت. الموت هو العدو. إنه الموت الذي ضده أركب المخاطر برمحي مسدّداً وشعري يتطاير إلى الوراء كشعر شابٍ فتيّ، كشعر بيرسيفال، حين خبّ خببه في الهند. إني أهمز المهاميز في جوادي. وضدك سأرمي بنفسي، غير مهزومٍ وغير مستسلمٍ، يا موت!».

الأمواج تكسّرت على الساحل.

twitter @baghdad_library

T H E ◆ W A V E S

رواية
NOVEL

الأمواج

إنّ رواية الأمواج ، الّتي نقدّمها بالعربيّة الآن للقرّاء ، كانت قد صدرت في عام ١٩٣١ ، فاعتبرها النقّاد تحدّيًا للقرّاء لأنّها كلّها مكتوبة بلغة شاعريّة مرهفة ، حتّى إنّ بعض هؤلاء النقّاد قال إنّ الرواية بأسرها هي بمثابة قصيدة شعريّة طويلة .

[...]

إنّ رواية الأمواج تقع في اثني عشَر قسمًا ، يبدأ كلّ قسم منها بوصف الطبيعة قبيل شروق الشمس حتّى بعيد غروبها ، ثمّ تنتهي الرواية بجملة واحدة : « الأمواج تتلاطم على الشاطئ » . لكأنّ هذا الوصف للسماء والأرض والبحر هو وصف للحياة من الولادة حتّى الموت .

[...]

◆ من مقدّمة المترجم

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

ISBN 978-9953-36-345-5
9 789953 363455